



فرانز كافكا



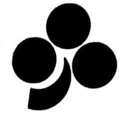
ترجمة د. سامي الجندي

سور الصين

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ١/ ٨٠٧٩٠٠
برقياً - موكيالي بيروت - ص.ب : ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٢



فرانز كافكا

سور الصين

ترجمة: سامي الجندي

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر

وصف معركة

« وعلى الحصباء يروح ويغدو المتنزهون
في ثياب العيد وخطو متردّد
تحت قبة السماء العظيمة
التي تمتد من الهضاب البعيدة إلى التي
في البعد ».

[١]

عند منتصف الليل نهض بعض المدعوين ، وحيّوا ، بهز اليد ، ثم أعلنوا أنهم قضوا سهرة ممتعة ، وبعدها مرّوا من الباب ، وقد فتح على مصراعيه ، إلى المدخل كي يأخذوا معاطفهم . وكانت سيّدة البيت تقف في وسط الصالون فتجيب في مرح ، على الانحناءة بانحناءة . وكانت طيات ثوبها تتموّج أنيقة ، لدى كل حركة .

ولقد كنت جالسا أمام منضدة بثلاث قوائم دقيقة منحنية ، أتذوّق كأس البنيديكتين الثالث ، دون أن تغيب عن عيني مؤونتي الصغيرة من الحلوى التي انتقيت ، بنفسي ، وصففت ، في عناية ، على صحني .

ثم رأيت صديقي الجديد ينبثق من غرفة مجاورة ، وقد تشعث شعره غير قليل ، والفوضى في ثيابه نوعا ما . وهو شأن يعنيه وحده ، ولقد هممت بأن أتسلل خفية . غير أنه ، بات أمامي ، وابتسم كأنه شارد عمّا يشغلني . قال :

« أعذرني ، أني وقفت هكذا حذك ! لكني بقيت حتى الساعة وحيدا ، في

الغرفة المجاورة ، مع صديقتي . منذ العاشرة والنصف ! آه ! ياعزيزي يالها سهرة ! وأعرف ، أني أخطىء ، حين أقول لك ذلك ، فنحن لم نتعارف إلّا لأننا ، أليس كذلك ؟ تلاقينا هذا المساء على الدرج ، وتبادلنا بعض الكلمات بصفتنا مدعوين إلى نفس السهرة ! رغم كل هذا ، أعذرني ، رجاء ! أني أفيض سعادة . بت لا أستطيع ، وبما أني لا أعرف أحدا هنا أبوح له . . .

نظرت إليه مقطبا (لم تكن قطعة الحلوى التي قضمت مما لذّ وطاب !) ومددت رأسي حتى وجهه الفاقع الاحمرار . قلت له :

« أنا سعيد ، طبعا باستحقاق ثقتك ! لكني أكره أن تبوح لي ! ولو لم تكن شاردا هكذا ، لأحسست أنه لا يليق بك أن تتحدث عن حبيبة رقيقة إلى سيّد جلس وحيدا قبالة كأسه .

عندها ، جلس فجأة ، وارتد إلى وراء ، وقد تدلى ذراعاه ، ثم استند على مرفقيه ، وأخذ يهمهم بصوت على شيء من الارتفاع :

ـ في هذه اللحظة كنت وآنيت وحدنا ، جنبا إلى جنب ، قبلتها ، قبلتها ، من فمها ، وأذنيها ، وكتفها ! آه ! أيتها الآلهة العظيمة !

واقترب بعض المدعوين الذين كانوا يتثاءبون ، وقد توقعوا حديثا حيًّا ، في جهتنا . فوقفت حالا وأعلنت بصوت عال :

ـ وافقت ! سأرافقك ، بمادمت تلح . ولو أن النزهة في المون لوران ، في ليلة شتائية ، تظل جنونا . البرد شديد في ذاك المرتفع ، ولقد جعل الثلج الأخير الدروب مزالق حقيقية . لكن ، كما تحب !

حدّج إليّ بنظرة مندهشة وقد فغرفاه ذا الشفتين الرطبتين ، حتى إذا اكتشف من حولنا ، ابتسم ونهض . قال :

« ستفيدنا الطراوة ، فقد تشبعت ثيابنا بالحرارة والدخان . وأحس أني على شيء من السكر بالرغم من أني لم أشرب . هيا ، ولنستأذن !

ومشينا إلى سيّدة البيت ، فقبّل هو يدها . قالت له :

« آه ، كم أحب أن أراك ، وعلى ملامحك هذه السعادة !

وأثرت به هذه الكلمة فما لبث أن قبّل يد السيدة التي أخذت تبتسم .

واضطررت أن أجرّه . . . في المدخل كانت توجد وصيفة نجهلها حتى ئذ . ساعدتنا في ارتداء معطفينا ثم أخذت لمبة صغيرة كي تضيء الدرج . كان عنقها عارياً ، إلّا من شريط مخمل يحيط بها وتحت ثيابها الرخوة المحكمة كان ينحني جسدها ويتمطى أمامنا ، وهي تنزل الدرج وقد خفضت لمبتها ناحية الدرجات . كانت ما تزال حمراء من كل ما شربت من خمور ، وكنا نرى ، على نور اللمبة الخفيف الذي تلقيه على الدرج ، شفتيها ترتجفان . وعند أسفل الدرج ، وضعت اللمبة على احدى الدرجات ، وتقدمت خطوة ناحية صديقي ، فأخذته بين ذراعيها ، وقبلته ولطت عليه . ولقد اضطررت لأن أدس إليها قطعة من العملة كي تبتعد عنه وكأنها نائمة . وفتحت في بطء الباب فأدلجنا في الليل .

فوق الشارع القفر ، الذي يسبح في ضياء البدر الباهت ، كانت تمتد السماء وتزيد في سعتها غيوم خفيفة . وما كان ليسمح لنا الثلج الذي تجلّد إلّا بخطى صغيرة .

ما أن جزت إلى الهواء الطلق حتى داهمني فرح شاسع . كنت أرفع فخذا ، ثم أخرى ، وأطقطق مفاصلي ، أو أصيح باسم ، وكأني أرى صديقا يختفي في زاوية الشارع ، أو أقذف قبعتي تدوّم في الهواء ثم التقطها بخفة منتصر .

وكان يسير صديقي إلى جانبي ، خافضا رأسه ، لا يبالي بأمر ولا ينبس بكلمة ، وما كان إلّا ليدهشني ، لأني قدّرت أن أراه ، منذ أن ينسحب من تلك السهرة ، يسلم نفسه إلى فرح مضطرب . وهو سبب كاف إلى أن يهدئني بدوري أنا ! ولقد صفعته ، كي أنعشه ، صفعة مرحة على كتفيه ، غير أن حماسي تبدّى لي فجأة عبثا . وعند هذا التفكير سحبت يدي . ولم أعرف ما أصنع بها ، فدسستها في جيب معطفي .

ومشينا صامتين . لاحظت وقع خطانا فلم أتوصل لأن أفهم لماذا لا أستطيع المشي على خطو صديقي . مع أن الجو كان نقيا وكان بوسعي أن أرى في وضوح فخذيه . . . كان ينظر إلينا أحد ما ، من وقت إلى آخر ، وهو متكىء على نافذته . وانتبهت ، في شارع فرديناند ، إلى أن صديقي بدأ يدندن بلحن للأميرة دولار ، ولو أنه والحق بصوت خفيض ! لكنه على درجة من العلو أسمع معها جيدا . لم ذلك ؟ أكان يريد ازعاجي ؟ لكن لا بأس ! فقد كنت مستعدا

لأن أستغني عن أميرته ، وأكثر منها ، عن النزهة ! وهذا مؤكد ! لكن لماذا كان لا يتكلم ؟ وإذا كان لا يريدني فلم لم يدعني في سلام ، ودفء مع كأس البنيديكتين وحلوياتي ؟ وما كنت بالذي تغريه هذه النزهة ! كما أني كنت قادرا على التنزه على هواي ، فلقد قضيت سهرة مع العلية ، وأنقذت هذا الشاب العاق من البهدلة ، وهأنذا الآن أتسكع في ضوء القمر . . . أهنالك أمر طبيعي أكثر من هذا ؟ النهار في المكتب ، والسهرة بين العلية ، والليل في الشوارع ، وكل ذلك من دون اسراف ! مثل هذه الحياة طبيعية حتى لتتجاوز قواعد الطبيعي نفسها !

كان الصديق يتبعني دائماً ، ويغذّ بالخطو ، إذا لاحظ أني أسبقه . لم نكن نتبادل الكلام ، ولا كان بوسعنا القول أننا نركض ! وكنت أتساءل مع ذلك ، أما كان أفضل لنا أن نسلك ارتجالا أي شارع جانبي ، وما كان من أمر ، يضطرني على القيام بنزهة مزدوجة ! كان بوسعي أن أعود بيسر إلى البيت ، من كان له الحق في أن يمنعني ؟ وداعا ، ياصديقي العزيز الجديد ! . . .

عندما رجعت ، وجدت غرفتي دافئة ، وأشعلت ضوء طاولتي الذي من حديد مطرّق ، ثم تمددت في كنبتي (كانت تخفي شقا في السجادة الشرقية !). خاطرة ممتعة ! ولم لا ؟ ثم ماذا بعد ؟ وماذا يهم ما بعد ؟ سوف ينير الضوء غرفتي الدافئة وأنا في الكنبة ، وقد حَمَيْتُ وجهي من زيادة النور . هيا ! وقليلا قليلا تبرد الغرفة ، لكني أقضي وحيدا هذه الساعات بين الجدران المغطاة بورق ذي أزهار ، والقدمان على الأرضية التي تبدو في المرآة ذات الاطار الذهبي ، المعلقة على الحائط ، وكأنها تنزل مائلة .

وثقل فخذاي ، وعزمت على أن أفيء إلى السرير ، فواجهني هذا السؤال : أما كان يجب أن أحيّي رفيقي حين ذهبت ؟ كنت أكثر خجلا من أن أتخلص منه دون أن أقول له إلى اللقاء وأكثر ترددا من أن أصيح « طابت ليلتك ! »- وتوقفت وانتظرت في ضوء القمر ، وقد أسندت ظهري إلى حائط بيت .

قطع رفيقي الرصيف واقترب مني سريعا كما لو أنه يود أن يرتمي بين ذراعي ! كان يغمز بعينه كأنه يلمّح إلى شيء اتفقنا عليه بيننا ونسيته في الظاهر .

سألته : « وماذا ؟ »

قال : « لا شيء . أردت رأيك فحسب ، بالجارية التي قبّلتني في الممر ، من تلك الفتاة ؟ هل رأيتها من قبل ؟ لا ؟ ولا أنا ! هل هي وصيفة فعلا ؟ كنت أريد أن ألقي عليك هذا السؤال ، الساعة ، ونحن ننزل الدرج .

ـ أدركت للتو ، أنها وصيفة فقط ، دون أن تكون وصيفة أولى ، من يديها الحمراوين ، حين دسست البخشيش في راحتها وأحسست بأن جلدها خشن .

هذا لا يثبت إلّا ما فكرت به : من أنها في مكانها منذ زمن غير قليل .

ـ قد تكون على حق .

كانت ظلمة الدرج المضيئة ، تجعل الرؤية صعبة .

ـ غير أن وجهها يذكرني بوجه بنت ضابط تقدمت به العمر ، أعرفها جيدا .

قال : « أما أنا فلا ! »

ـ لن يبقيني هذا السؤال معك ، تأخرنا ، وغدا صباحا المكتب ! والنوم فيه صعب !

ومددت له يدي مودعا .

قال : « أوه ! إنها يد باردة . ولا أحب أن أرقد في السرير بيد كهذه ! لو أنك حاولت ياعزيزي ، أن يقبلك أحد مثلي ؟ ضاعت عليك فرصة . . . بوسعك أن تستدرك دائماً ، على كل حال ! أما النوم ؟ في مثل هذه الليلة ؟ ما الذي دهاك ؟ فكر قليلا بكل الأفكار اللذيذة التي تختنق تحت الغطاء ، عندما تكون وحيدا في السرير ، وبكل الأحلام البشعة التي تدفئها !

أجبت : « أنا لا أختنق ولا أدفىء شيئا ».

خلص إلى القول وهو يبتعد : « دعني أضحك ، أنت صاحب نكتة ! »

تبعته دون أن أنتبه ، وأنا مشغول بملاحظته . ترى ألم يكن صديقي الجديد ، ينسب لي ، وهو يتكلم هكذا ، احساسا خياليا ، ولو أنه ، في تفكيره ، يضفي علي الأهمية ، التي يفترض ، أني أهل لها ؟ فعلت حسنا إذن بعدم عودتي إلى البيت . ومن يدري ؟ هذا الرجل إلى جانبي ، والذي يحول

نفسه بخارا في الهواء البارد ، بمغامراته مع الخادمات ، ألاّ يمكن أن يكون قادرا ، دون أن أستحق أنا ، على أن يفرضني في أعين الناس ؟ ولعلّ النساء لا يفسدنه ! ليقبلنه إذا شئن أو يضغطن بأجسادهن عليه تلك مشكلتهن - وذاك أيضاً حق له ! لكن حذار ! إن أمنعهن عن أخذه مني ! عندما يقبّلنه ، فإنما يقبّلنه بعض الشيء عني أيضاً - من زوايا الشفاه ، حسب تقديري ! أما أخذه مني فهو سرقة ! فليبق إذن مني قريبا ، دائماً وللأبد ! وإلّا من يحميه؟ ياللمسكين ، إنه ساذج ! لو أن أحدا دعاه في برد شباط : « يا أنت ! تعال معنا إلى سان لوران ! - لجاء إليه ! وما يفعل إذا سقط ، أو تبرّد ، أو هاجمه في شارع البريد خصم ؟ وأنا ما يكون شأني ؟ هل يرمونني على باب العالم؟ بل أبعد ! لا وألف لا ، لن يتخلص مني !

غداً ، سوف يتحدث إلى الآنسة آن . سوف يتكلمان عن كل شيء ولا شيء علّهما يبدآن كما ينبغي ! لكنه فجأة تنهار مقاومته : « البارحة ، في قلب الليل ، يا آنيت ، بعد سهرتنا ، كما تعرفين ، وجدتني مع شخص ، لم تري أبداً مثله ولا شك ! هيئته ، كيف أصفه ؟ إنه يشبه قناة[1] تتأرجح ، وعلى قمتها جمجمة شعرها أسود . وتتدلى على جسمه قطعتان من جوخ مصفرّ ، فتغطيانه كله ، لأنهما تلتصقان به جيداً ، كما كان الأمر البارحة : يوما بلا ريح ! ماذا يا أنيت؟ هذا ليس شهيا ؟ أعذريني إذ تحدّثت بهذا السوء ! آه لو أنك رأيتهِ ، وهو في غاية الخجل إلى جانبي وقد حزر أني عاشق (وليس في هذا ذكاء شديد !)، وقد سار يتقدمني قليلا كي لا يزعجني ، آه ، أعتقد يا آنيت ، أنك ضحكت قليلاً ، وربما ارتجفت قليلاً ، أليس كذلك ؟ أما أنا ، فقد فتنني وجوده ! أين كنت أنت ، يا أنيتي الصغيرة ؟ في سريرك ! لم تكن أفريقيا بأبعد منك ! لكنه كان يبدو لي أحيانا ، وهو يرفع صدره النحيل ، وكأنه ، صدقيني ، يرفع كل السماء ذات النجوم ! تريدين أن تقولي مبالغة ! لا ياعزيزتي آنيت ، لا ، وروحي التي تمتلكين ! « لم أوفّر على صديقي الجديد - وصلنا إلى رصيف فرانسوا جوزيف - أية نتفة من الخجل يمكن أن يحس بها وهو يروي تلك الأقاويل . كانت أفكاري ، والحق ، تختلط آنئذ ، دون ونى ، وتنتقل إلى مواضيع أخرى ، بتأثير الظلام ، ولا شك ، الذي يغلف المولداو والحي

---

(١)العصا الطويلة، أو عصا الرمح دون الحربة.

المقابل ، الذي تومض في أقصاه أنوار صغيرة !

بعد أن قطعنا قارعة الطريق ، وصلنا حافة الرصيف ، فتوقفنا هناك ، وأنا أتكىء على شجرة قريبة . كانت تصعد من الماء هبّة باردة فارتديت قفازي وأنا أتنهد دون سبب ، كما نفعل غالبا في الليل على شاطىء نهر . ثم أردت أن أذهب ، غير أن رفيقي كان ينظر إلى الماء دون حراك . وأخيرا اقترب أكثر من الدرابزين ، وقد ضغط بفخذيه على الحديد ، واتكأ بمرفقيه ووضع جبينه بين يديه . ما كان يحدث أيضاً ؟ بردت ورفعت ياقة معطفي . أما صديقي ، فكان يتمطى فوق الفراغ . مدّ ظهره ، وكتفيه ، ورقبته ، وانحنى أكثر يستند على ذراعيه .

قلت له : « الذكريات ، أليس كذلك ؟ إن الذكرى حزينة بذاتها ، وحزين هدفها ! أطرد هذه الأفكار ! إنها دون أية قيمة ، بالنسبة لك ولي ، إننا نضعف موقعنا الحاضر دون فائدة لسابقه . وهل هنالك أوضح من هذا ؟ دون أن نعدّ ما كان من قبل عزاء ، وانقطع عن أن يكونه الآن . . . أهل يخالجك الظن بأني بلا ذكريات ؟ أوه ! عشرة مقابل واحدة من عندك ! هاك مثلا ، أني أستطيع في هذه اللحظة أن أتذكر بأني جلست في ل على مقعد . فيما يهبط المساء . كان ذاك أيضاً على حافة الماء ، أنما في الصيف طبعا . . . تعودت ، خلال تلك الأمسيات ، أن أثني فخذي ، لمّا أجلس باتجاه صدري وأن أحيطهما بذراعي . أسندت رأسي آنئذ إلى ظهر المقعد ، وأنا أنظر إلى الجبال على الشاطيء المقابل وكأنها غيوم . . . وكانت كمنجة تعزف عزفا رقيقا في صالة كازينو ، وكانت تمرّ من جانبي النهر قطارات تنزلق وقد توّجها دخان منير . . .

وقاطعني الصديق وهو يلتفت بغتة . بدا لي وكأنه استغرب حينما رأى أني ما زلت هناك .

وأضفت بلهجة مختصرة : « آه ! كم بوسعي أن أروي لك من أشياء ! »

قال : « تأمل . إن الأمور تبدأ دائماً على هذه الشاكلة . اليوم ، وأنا أنزل الدرج ، كي أتنزه قليلا قبل سهرتنا ، كنت أتأمل في بعض الدهشة يديّ تتمايلان في خفة خارج الكمينّ . تلك اللحظة فكرت : « صبرا ! إن شيئا ما ينتظرك هذا اليوم ». ولقد حدث لي هذا الشيء !

عند هذا القول ، استأنف سيره وهو يحدّق إليّ ، مبتسما ، وقد جحظت عيناه .

تلك كانت إذن حالي ! لقد منح الحرية بأن يروي لي ذلك كله ، إليّ أنا وهو يبتسم وعيناه جاحظتان ! ومنحت القوة بأن أتخلى عن أن ألفّ كتفيه بذراعيّ وأقبّل عينيه كي أكافئه على أنه بات دون حاجة إليّ ! وما كان بوسع مثل هذا البوح أن يبدل ، والحق شيئا ، أو أن يضرّ ، بالتالي ، بأحد ! وكان هذا أسوأ ما في الأمر ! لم يبق عليّ سوى أن أذهب ، أن أذهب مهما كان الثمن !

وفيما كنت أبحث ، في غاية العجلة ، عن وسيلة أطيل بها لحظة التصافي به ، أتتني فكرة ، بأنه قد يستنكر ، حين المقارنة ، قامتي الطويلة . واستغرقت في هذه المسألة ـ ولو أن الليل أسود ، ولو أنه وحيد ! ـ استغرقتني حتى لقد عمدت إلى حني ظهري إلى أن لامست يداي ركبتي وأنا أمشي !

ولقد غيّرت قامتي تدرجيا ، كي أغشه ـ وأنا أبادر إلى تحويل انتباهه ، مرّة للنهر ويدي تشير صوب جزيرة الصيادين أو لانعكاس قناديل الجسر في الماء .

لكنه التفت فجأة ، قبل أن أنتهي من محاولتي وصاح وهو ينظر إليّ : « ما هذا ، ماهذا ؟ أراك مفتولا . ما تصنع إذن ؟ » .

قلت له ، ورأسي على علوّ خاصرته ، أي في حال لا تمكنني من أن ألمحه جميعا : « أوافق على قولك . إن عينك لنافذة ! »

ـ استقم ! ياللبلاهة !

قلت له ، وتكاد عيناي تصبحان على مستوى الأرض : « لا ، هكذا أنا وهكذا أبقى ! »

ـ ياعزيزي ، يجب أن أصرّح لك بأنك تنوي اغاظة الناس كل هذا الوقت الضائع ! لننته من هذا الأمر !

قلت : « كل هذا الصياح ، في ليلة هادئة ! »

أضاف : « على هواك ! » وخلص إلى القول بعد لحظة : « إنها الساعة الواحدة إلّا ربعا » . كان يرى ولا شك ساعة برج الطاحون .

كنت قد استقمت منذ هنيهة كأني شدّني أحد من شعري ، وظللت لحظة

وفمي مفتوح كي أهدىء ثورة أعصابي ، ولقد أدركت ، ويا للأسف ! بات لا يريدني . لم يبق لي مكان إلى جانبه ! ولو وجد المكان ، من بوسعه أن يكتشفه ؟ ولم استبسالي للبقاء معه ؟ لم يبق لي إلا أن أنسحب حالا . إن ألحق بمن ينتظرني من أهلي وأصدقائي . أما إذا كنت بلا عائلة ولا أصدقاء ، فلن يبقى عليّ إلا أن أتدبر أمري وحدي . ولماذا الشكوى ؟ لكن يجب قبل كل شيء ألا أتأخر حيث كنت ! وليس هنا ما أؤمّل منه من قامة عالية ، أو شهية طيبة ، أو يد باردة - أما إذا كنت ، بالرغم من كل شيء ، قد عزمت على أن ألتصق به أيّا كان الثمن ، فإن انحيازي خطر جداً !

أجبت : « لم أنتظر حتى تقول لي ذاك ». ولقد كانت تلك هي الحقيقة الناصعة !

- شكرا لله ، لقد استقمت أخيراً . . . لكني لم أقل إلّا أنها الساعة الواحدة إلا ربعا ببساطة !

قلت وقد أولجت بين أسناني ظفرين جعلاني أصطك من كل أعصابي : « حسنا ، حسنا ! لو أني لا أهتم بآرائك ، ما كانت تفيدني شروحك في الحين الذي أنا بحاجة إلى رحمتك ؟ أنعم عليّ ، واسحب ، لطفا منك ، ما قلته ! »

- إنها الساعة الواحدة إلا ربعا ؟ بكل سرور - ما دام الربع قد مرّ منذ بعيد !

ورفع ذراعه الأيمن ، وهو يصغي بأذنه إلى الصليل الخفيف الذي يندّ عن السليسلات التي تثبّت كمّية.

ودقت ساعة الجريمة ، كان ذاك الوضوح نفسه ! لو بقيت إلى جانبه ، لاستلّ من جيبه موسى ، وهو الآن يمسك بمقبضه ، ولرفعه وهو يموّهه على طول معطفه . . . . ثم يضربني حالا ! ولن تدهشه ولا شك بساطة هذا الأمر البالغة - إلا إذا ، مع ذلك . . . من يدري ؟ قد لا أصرخ ، قد أنظر إليه فحسب ، كل الزمن الذي تقوى فيه عيناي .

سأل : « والآن ؟ »

وعلى بعض مسافة ، أمام قهوة بلورها أسود ، كان يتدرب شرطيّ على تزحلق المتزلجين . كان يعيقه سيفه ، فأمسك به بيده واندفع في انزلاقة طويلة

أنهاها وهو يرسم حوالي نفسه منحنيا نصف دائري. ثم أطلق صيحة فرح صغيرة، وتابع تدريبه، وقد امتلأ رأسه بالألحان.

لحظتئذ، لدى رؤية هذا العريف الأعمى الأطرش على كل ما ليس نفسه هو، والذي لا يبالي بالجريمة التي تحضّر على خطوتين، لحظتئذ فحسب هيمن عليّ الرعب! على كل حال انتهى أمري أنا . . . - تركته يضربني بالخنجر أم فررت! لكن أليس أجدى لي، ما دمت ضائعا، أن أفرّ، وأن أجازف هكذا بالموت الصعب، وبالتالي الأشد ألما؟ أن أنتقي؟ لم يكن باستطاعتي اتخاذ قرار للتوّ، أما فيما يتعلق بالموت فقد أملت على هموم أخرى نفسها! فيما بعد، حين تتاح لي الفرصة . . . على كل حال، شريطة أن أكون الآن مصمما على الفرار! ولقد كنته فعلا.

لقد وجب إذن أن أفرّ، وكان هذا أمراً سهلا: حيث ينعطف الطريق يسارا صوب جسر شارل الرابع، ألقي بنفسي يمينا في الشارع الذي يحمل نفس الأسم، وهو النهج المتعرّج، الذي امتلأ دهاليز مظلمة وخمارات ما زالت مفتوحة. نعم، لقد بقي لي أمل!

وقريباً من هذا النهج، منذ أن تجاوزنا القبة التي على طرف الرصيف ودلفنا إلى ساحة الصليبيين، اندفعت رافعا ذراعي. لكني قدام أحد الأبواب الصغيرة لكنيسة المدرسة الاكليركية ارتطمت بدرجة لم أتوقعها. وكان صوت سقطتي عظيما، وزحفت في القمة، فقد كان أقرب قنديل بعيداً جداً. وخرجت من الخمّارة المواجهة امرأة ضخمة، تزّودت بمصباح صغير، كي ترى ما حدث، وانخفض صوت البيانو في الداخل، لأن الموسيقي بات يلعب بيد واحدة لما التفت إلى الباب: وكان هذا حتى ئذ مشقوقا، فانفتح كله تحت دفع رجل في سترة مزرّرة حتى العنق، بصق ثم ضمّ بشدة المرأة الضخمة، التي اضطرت إلى رفع مصباحها الصغير، كي تقيه.

صاحت بمن في الداخل: «لا شيء!». ودخلا معا وانغلق الباب.

لما حاولت النهوض، أحسست بألم حاد في ركبتي، وسقطت ثانية وأنا أقول: «إنه الجليد!» لكني هنأت نفسي بأني تخلصت من انتباه ناس الخمّارة، ومن البقاء هادئا هناك حتى الفجر. أما الصديق فإنه سار ولا شك حتى الجسر قبل أن يلاحظ غيابي، لأني لم أره إلا بعد مدّة طويلة. ولم يظهر عليه

الاستغراب ، حين انحنى عليّ ، كي يداعبني بلطف ، وقد حنى عنقه كما يفعل الضبع ، مرّ بيده على كلّ من وجنتيّ ، ثم أراحها على جبيني .

ـ لقد آذيت نفسك ، أليس كذلك ؟ يجب أن تحذر الجليد . ألم تقل ذلك أنت ؟ رأسك ؟ لا ؟ آه ! الركبة ، الألم هنا !

لكنه لم يفكر في أن ينهضني . كان مرفقاي على البلاط ، فأسندت رأسي إلى يدي اليمنى .

قلت له : « ها نحن من جديد معا ! » ولما راجعني الخوف ، وضعت يدي ، كي أبعده ، على ساقيه وصحت : « لكن اذهب ، اذهب ! »

كان ينظر بالتناوب ، ويداه في جيبيه ، إلى الشارع المقفر وكنيسة المدرسة الاكليركية والسماء ، ودفعته أخيراً ، عربة تمرّ في الشارع المجاور إلى أن يتذكرني .

ـ لكن لماذا هذا الصمت ياعزيزي ؟ هل تتألم ؟ لم لا تقف ؟ هل تريد عربة ؟ أو أن أذهب فآتيك بقليل من الخمر من الجهة المقابلة ؟ لكن ، يجب ألا تبقى مضطجعا في البرد ، ألم نقرر الذهاب إلى سان لوران ؟

قلت : « أكيدا ! » وأنا أنهض دون مساعدة ، ولو أني كنت أتألم !

وترنحت للتو ، حتى لقد وجب عليّ أن أثبت أنتباهي على تمثال الأمبراطور شارل كي أؤمن توازني . جهد ضائع ! لو لم تنجدني فكرة الحب الوفي ، دون انفعال ، الذي نذرته لي ، ذات فتاة ، يحيط بياقتها مخمل أسود !

وتلطّف القمر فأضاءني بأشعته . وفكرت ، عن حذر ، باللجوء تحت قبة برج ـ الجسر لما فهمت بأنه جدّ طبيعي ، أن ينير القمر كل شيء . وفتحت في فرح ذراعي على مداهما كي أتمتع من جوارحي بنوره . آه ! ـ كم كان كل شيء سهلا عليّ ، حينما نفذت في كسل حركات السبّاح بذراعي ، وأخذت أتقدم دون مشقة أو ألم ! لم لم أجرب من قبل ! غرق رأسي في الهواء البليل وكانت ركبتي اليمنى نفسها هي التي تتحرك أفضل من سواها . وربّتّ عليها كي أهنئها ، وأنا أستعيد ذكرى صديق قليلا ما أحبه ، يتابع ولا شك الآن نزهته فوقي ! ولقد كان فرحي العظيم ، في كل هذا الشأن ، أني لمست نوع ذاكرتي ، ألم تحفظ مثل هذه التفاصيل ؟ لكني لم تتح لي أبداً فرصة التفكير ، فقد وجب عليّ أن أسبح

دائماً أو غرقت . ومن أجل الا أسمع فيما بعد من يقول أن أي امرىء يستطيع السباحة على الأرض . وأنه لا داعي لرواية هذا الأمر ، اجتزت بوثبة واحدة الدرابزين وأخذت أسبح في الهواء حول تماثيل القديسين التي تزيّن الجسر .

وعند الخامسة ، استغل الصديق أني كنت أثبت نفسي بحركات لا ترى فوق الرصيف فأمسك بيدي . . . . وهأنذا من جديد على الأرض ، في الشارع وفي ركبتي ألم !

قال لي وما زال ممسكا بي بيمناه فيما يشير بيده الأخرى إلى تمثال القديسة لودميلا : « أعجبت دائماً بيدي الملاك ، الذي إلى اليسار . كلّف نفسك بالاعجاب برقتهما ! يدا ملاك حقيقيتان ! هل رأيت أبداً مثلهما ؟ أنت لا ، أما أنا فنعم ! في هذا المساء نفسه ، قبّلت شبههما ! . .

كانت هنالك إذن وسيلة ثالثة للخلاص من الموت ! لم يكن ضروريا أن أدعه يضربني بخنجر أو أن أفرّ ، فقد كان بوسعي أن أندفع في الجوّ . وليذهب هو إلى جبل سان ـ لوران ، فلن أزعجه ، آه ، ! أبداً لن أزعجه ، حتى وأنا أفرّ .

وضقت فصحت به :

ـ هات إذن حكاياتك ! أجهدني ترددك ! إرو لي كل شيء ، من الألف إلى الياء ! أريد أن أعرف كل شيء ، كل شيء ، أحيطك بذلك علما ، أني أتحرق رغبة فيها !

لكنه عندما نظر إليّ ، توقفت عن الصياح .

وضع في حسابك أني أحسن الصمت ! إرو لي ما يثقل على قلبك ، فلن تصادف عمرك ، نجيّا على هذا الكتمان ! وأضفت بصوت خفيض قريبا من أذنه : إياك والخوف مني لأنه حقا نافلة ! ما زالت ضحكته ترن في أذني . وخلصت إلى هذه الكلمات : لكن نعم ، لكن نعم ، أصدقك ، لا تشك بذلك !

وعند هذا القول قرصت له ربلة ساقه بالقدر الذي كانت فيه أصابعي حرّة .

وفكرت بيني وبين نفسي : « ولم تذهب مع هذا الشخص ؟ فهو عندك سيان ». إن فتاة تصنع له كل سعادته ، دون يقين منه أن طهرها متوحّش . . . هذا الرجل لا أهمية له عندك ، لا أهمية له اطلاقا ! وهو بعد ليس خطرا ، كما تبيّنت ، وبوسعك أن ترافقه إذن إلى سان ـ لوران . أولا تقوم بهذا الأمر ، على كل حال ؟ الليل جميل ، دعه يتكلم ! لكن أله على هواك ، فلسوف يكون ، لكن هسّ ! أفضل وسيلة لديك للدفاع ! ».

[٢]

هو
أو
مفروغ منه أن الحياة شيء مستحيل

١ ـ نزهة على جواد

بقفزة واحدة ، كأني لم أصنع في حياتي سوى القفز ! كنت على كتفيه ، وجعلته يخبّ بوابل من الضربات على ظهره ، وحين حرن وأكدف ، بدلا من أن يتقدم ، همزته بنعليّ مرات عديدة ، كي اشدّد عزمه ! ووصلنا سريعا إلى قلب منطقة واسعة في حالة اصلاح .

كانت الطريق التي أخيّل فيها حجرية ، شاقا صعودها ، وهذا هو بالضبط ما أعجبني . ولقد جهدت في أن أجعلها أوعر وأكثر حجرا . وكنت إذا عثرت مطيتي ، أنهضها بضربة محكمة ، وأوجه لرأسها بعض اللكمات ، عند أقل تنهّدة . وتحققت سريعا من كل نفع هذه النزهة راكبا ، الصحّية في الهواء الطلق ، وأردت أن أجعلها أنشط ، فدفعت ، وأنا واقف ريحا قاسية تعصف بهبّات طويلة .

وأدّى بي الأمر إلى الاكثار من نهزات الفارس على كتفي صديقي العريضين وأنا أتشبث بيدّي بعنقه ، وأدفع برأسي أكثر ما أستطيع إلى وراء عليّ أراقب بطريقة أفضل الغيوم ، التي كانت أضعف مني ، ولذلك تسرى أبطأ مني . كنت أضحك وأرتجف منفعلا . وحين انفتحت سترتي ، زادت في سرعتي ، وشددت قبضتي ، بنفس الوقت ، حتى لقد كدت ، والحق أخنق مطّيتي ! . . . وحين اختفت السماء من الأشجار التي كنت أنميّها على طول الطريق ، انصرفت إلى

التفكير .

صحت بصوت أخرس : « أعرف . والحقيقة أني لا أعرف شيئا . إذا لم يجيء أحد ، لم يجيء أحد . أنا لم أوذ أحدا ولم يؤذني أحد ، غير أن أحدا لا يريد مساعدتي ، أبدا أحد ! لا ، إن الأمر ليس كذلك . الأمر هو التالي فحسب ، إن أحدا لا يساعدني . وعدا عن ذلك ، أليس جميلا حضور لا أحد مطلقا ؟ أود لو أقوم (ما قولك بذلك ؟) بجولة برفقة لا أحد مطلقا . في الجبل ، طبعا ! ـ وإلا فأين ؟ ياله زحام ـ دون أحد ، على كل حال ! أوه ! كل هذه الأذرعة المتشابكة ، كل هذه الأقدام التي تفرّق بينها خطى مجهرية ! كلهم بالثياب الرسمية ، وهو أمر طبيعي ! نحن نتقدّم أيدي سبا ، وصبا لذيذة تهبّ عبر قناطر أذرعنا المتشابكة ، وتمتد الأعناق في الجبل . إنها لمعجزة أننا لم نغنّ !

في تلك اللحظة انهارت مطيتي . وبيّن لي الفحص وجود جرح بالغ في الركبة . وما كانت لتنفعني في شيء فتركتها راضيا على حجارة الطريق . وصفرت لبعض النسور كي تقوم بحراستها . فبادرت ، من أعالي الجوّ وحطت على الجسد ، ومناقيرها جادّة .

٢ ـ نزهة

وتابعت على قدمي ، خلّي البال ، غير أني خشيت تعب الصعود ، فسطّحت الطريق شيئا فشيئا حتى خفّضتها هناك إلى منحدر لطيف صوب السهل . واختفت الحجارة بأمرى ، وهدأت الريح .

سرت بخطى واسعة ، ورفعت رأسي لأن الطريق كانت نازلة ، وشددت بجسدي وصالبت ذراعي وراء رأسي . واجتزت الحرش ، لأني صديق الصنوبر ، وكنت سعيدا بتأمل النجوم صامتا ، وأغراني ، أن أراها تصعد بطيئة في السماء . ولم أشهد غير غيوم نادرة انتشرت ، وهي ، في دهشة الناظر إليها العظيمة ، تدفعها ريح لا تهبّ إلّا في الأعالي .

وعلى بعض مسافة من طريقي ، ربّما في الناحية الثانية من النهر ، جعلت كتلة جبل عال ترتفع ، جبل تلامس السماء قمته التي تغطيها الشجيرات . كنت أستطيع ، في وضوح ، رؤ ية أفنان[1] أعلى الأغصان الدقيقة ، ولقد أعجبني

(١) جمع فنن وهو أدق فروع الغصن .

المنظر ، ولو أنه جدّ مألوف ، حتى لقد نسيت ، حين تحولت إلى طائر صغير أحجل على أعلى أفنان أعلى الجنبات[٢] والعليق ، أن أطلع القمر ، الذي كان على أهبة ذاك وراء الجبل ، مغضبا ولا شك ، لأن أخرّته .

ولقد امتّد على الجبل ، تلك اللحظة ، نوره الطري الذي يبشر به ، ثم انبثق فجأة ، وراء احدى الجنبات التي تحرّكها الريح . غير أني أثناء ذلك ، ذهبت بعينيّ بعيدا ، وفيما أنا أنظر أمامي من جديد ، رأيت فجأة ، كرة البدر ، في أوج لمعانها ، وتوقفت ، كئيب العين ، فقد بدا أن طريقي يفسد في هذا القمر الذي لا يرحم !

لكني تعودت في لمح البصر ولاحظت بكل هدوء صعوده الصعب ، حتى لقد عانيت أخيرا ، بعد أن قطعت جزءا طيبا من الطريق ، تعبا شديدا ، هو نتيجة محتملة للجهد الذي بذلته في هذه النزهة الغريبة . وتابعت بعض الوقت ، أمشي وعيناي مغمضتان ، وأحافظ على يقظتي بضرب يديّ واحدة بالأخرى في ايقاع موزون . وحين أوشك الطريق على الضياع تحت قدمّي ، وأخذ يتلاشى المنظر ، تسلّقت بكل قوّتي المنحدر الذي إلى يمين الطريق كي أصل في الوقت المناسب إلى حرش الصنوبر العميق ، فقد عزمت على أن أقضي فيه الليل الذي تبدّى وشيكا .

لم يكن بوسعي أن أضيّع أية لحظة ! كانت النجوم تلمع ببريق هو أقوى في السماء الصافية والقمر يسيل كسولا في السماوات كما في محيط هائج ، وبات الجبل نهب الظلمات ، وتفتّت الطريق في المكان الذي يبدأ منه صعودي ، وكان انقصاف الأشجار التي تهوى ، في عمق الأحراش يدوّي وهو يقترب مني ! وكان بوسعي أن أرمي بنفسي حالا على الطحالب وأنام ، لكني خشيت قضاء الليل على اليابسة ، فتسلقت شجرة ، كانت رغم هدوء الهواء الطلق ، تتمايل تحت ريح عنيفة ، ولكم انزلق الجذع سريعا إلى الأرض ما بين قبضتي الذراعين والركبتين ! وتمددت على الأغصان ورأسي على الجذع ونمت عاجلا ، فيما يتأرجح ، على طرف الأغصان المهتز ، نتيجة نزواتي ، سنجاب رفع ذيله مستقيما .

---

(٢)الجنبة هي ما بين الجشرة والجشيرة. أصغر من الأولى، وأطول من الثانية.

نمت نوما عميقا دون حلم . لم يوقظني مغيب القمر ولا طلوع الشمس. وحين شارفت اليقظة ، وعظت نفسي قائلا : « دار نومك ، فقد تعبت كثيرا البارحة ! »- ثم نمت .

غير أن نومي ولو أنه من دون حلم ، لم يخل من الاضطراب . وكان هذا خفيفا ، لكنه مستمر ! ولقد تكلم ، بالواقع ، أحد ما طيلة الليل إلى جانبي . لم أميّز كلماته أبدا (باستثناء بعضها التي تطرّقت إلى « مقعد على حافة نهر »..... و « جبال شبيهة بالغيوم »... و « قطارات متوّجة بدخان منير »...) ولو أني كنت أدرك قليلا نبرة الكلام . وأذكر أني فركت يديّ فرحا لأني - ما دمت كنت نائما - لم أفقه كلّ كلمة .

وتنهدّت قائلا بصوت عال كي أقنع نفسي : « كانت حياتك عادية . وبات ضروريا حقا بأن تحس أنك شددت إلى سواها . كن سعيدا ، فالمكان فرح ، والشمس تلمع ! »

عندها شعّت الشمس ، وابيضّت غيوم المطر ، في السماء الزرقاء ، ثم فشّت، وباتت الآن على بياض برّاق وشبّت[1] . وظهر في الوادي، نهر...

قلت وكأني مكره على ذلك : « لقد كانت حقا رتيبة ! واستحقيت هذه العطلة ، لكن هل باتت أقل خطرا ؟ » وانتبهت إلى تنهدة قريبة حتى الرهبة .

وهممت بالنزول سريعا ، غير أن الغصن ارتعش ، ارتعاش يدي نفسها ، فسقطت متيّبسا ! مع ذلك لم أرتطم إلاّ قليلا ودون أن أصاب بأذى . لكني كنت على ضعف وبؤس لم يبق لي معهما غير وسيلة وحيدة هي أن أدفن رأسي في دبال[2] الغابة ، لأن رؤية الأشياء الأرضية كانت ترعبني ! كان عليّ أن أبتعد عن أية حركة وأية فكرة مع القناعة أن كلاهما أملي علي . وكان أفضل ما أفعل هو أن أظل مستلقيا بين العشب ، وذراعاي حدّ جسدي ، فيما أخبىء رأسي وحاولت أن أقنع نفسي أن الحظ أتاح لي أكثر الأوضاع طبيعية . ألم أستغن هكذا ، كي أصل إليه ، عن كل جهد شاق للحركة أو الكلام ؟

---

(١)تقال للخيل.

(٢)تربة عضوية

كان نهرا عريضا ذاك الذي يضج ويتلألأ بموجات صغيرة . ومن الناحية الثانية تمتد مروج ، تدع مكانها ، فيما وراء ذلك قليلا ، إلى الجنبات ، وبعدها إلى ممرات مضيئة من أشجار مثمرة ، ترى من بعيد ، وتؤدي إلى هضاب خضراء ، وسحرتني النظرة الخاطفة فتركتني أسقط على التربة . وسددت أذني كي أتجنب مغبّة أن أسمعني أبكي ، وقلت في نفسي أني أستطيع هنا أن أجد سلام روحي ، ولقد كنت والحق وحيدا ، والجو جميل . وما كانت تتطلب الحياة هنا شجاعة خارقة ، إلا أنه لا بدّ من بذل الجهد كما في الأمكنة الأخرى ـ دون أن ينصب المرء كثيرا . لا شيء سوى الجبال ونهر عظيم ما زلت على بعض الفهم كي أتأملها على أنها كائنات بلا حياة ! طبعا ، إذا تعثّرت ، وأناوحيد ، مساء ، في شعاب المروج القاسية ، فلن أهمل أكثر من الجبل ، ولو أن شعوري يكون كذلك ! وآمل ، أن يمضي أيضاً هذا الشعور !

هكذا كنت ألعب بمستقبلي ، جاهدا في عناد ، بأن أنسى . وكنت ، بنفس الوقت ، أنظر بعيني وهما تطرفان إلى السماء . ولقد كان لونها مدهش الهدوء . لم أرها منذ أمد طويل على هذه الشاكلة ، وتأثرت حين ذكرت الأيام التي ظننت فيها أني أراها في نفس هذا المظهر . وتوقفت عن سدّ أذني ، وفتحت ذراعي وتركتهما يسقطان في العشب .

وبعيدا كان ينتحب ، أحد ما ، في لطف . وهبّ الهواء وسرب من الأوراق الميتة ، لم أرها من قبل ، طارت في حفيف خفيف ، وسقطت عن الأشجار المثمرة ثمار خضراء بجنون ، وارتفعت غيوم عجفاء وراء الجبل ، وشبّت على النهر الأمواج ، وتراجعت وهي تئن على هبوب الريح .

ونهضت بقفزة . كان قلبي يخفق ألما ، لأني تخيلتني موكلا للأبد بالعذاب ! وكدت أدور على نفسي وأترك هذا المصر وأراجع حياتي السالفة ، لولا أن فكرة أتت إلى عقلي : « أهو من الغرابة بمكان ، أن يعمد بعض الصفوة ، في أيامنا ، إلى اجتياز نهر بطريقة على هذا التعقيد ! إنها عادة قديمة ، ذاك هو التفسير الوحيد » . وهززت رأسي وهو نهب دهشة عظيمة .

-٣- البدين

أ) خطاب إلى المنظر

تقدّم من عوسج الضفة المقابلة أربعة رجال عراة بخطى نشيطة ، وهم يحملون على أكتافهم محفّة من خشب . كان يجلس عليها رجل هائل الضخامة جلسة شرقية . كان على الحمالين أن يفتحوا الطريق عبر العوسج ، أما البدين فقد عزف عن ابعاد الأغصان الشائكة ، وترك الممر ، دون أن يتحرك هو ، ينفتح بجسمه . وما كانت لتزعجه تلك الطيات الضخمة من كتل الشحم ، وقد نضّدت جيدا فغطت المحفّة وفاضت عنها في بعض الأمكنة كبساط مصفّر . كانت جمجمته ضيّقة صلعاء ، على صفرة لامعة ، وكان وجهه يعكس في قليل من البلاهة تعبير من يفكر دون أن يعنى باخفاء ذلك . كان يغلق أحيانا عينيه ، فإذا فتحها ، انحرفت قليلا ذقنه .

قال في صوت خفيض : « هذا المنظر يبلبل أفكاري . يجعلني أتردد في قراراتي كجسر معلّق في العاصفة . إنها منطقة جميلة ، تريد أن ننظر إليها .

أطبق عيني وأقول : ياجبلا أخضر على حافة النهر ، جميل أنت ، الذي تدحرج حجارتك كي تدافع عن نفسك ضد الماء !

غير أن الجبل لا يرضى أبداً . يريد أن يرى عينيّ مفتوحتين تستديران إليه .

لكني لو أقول له وعيناي مغمضتان : أكرهك أيها الجبل ، فأنت تذكّرني الغيوم ، واحمرار الشموس الغاربة والسماء التي تبدو وكأنها تصعد . لكنت أبكي ما دامت كل هذه الأشياء حراما على من لا يتنقّل إلاّ في محفّة ! أنت ، فيما تريني ، أيها الجبل الماكر ، تخفي عني الآماد ، التي يسحرني مرآها ويكشف لي عن آفاق المكان العجيبة وقد باتت قريبة الآن . من أجل ذلك أكرهك أيها الجبل على حافة الماء ! نعم أكرهك ، أقول لك !

غير أن هذه الخطبة كانت أقل أثرا من السابقة ، لو لم أتكلم وعيناي مفتوحتان . والجبل لا يرضى إذا لم أفتح عيني .

أولا يجب علينا أن نداري الجبل ، كي نبقي عليه مزاجه الحلو ، هو

وإيثاره القلب لأدمغتنا المنهارة ؟ انه إذا لم يمدّ عليّ ظلاله المسننة ، قطع في صمت طريق عربي بأسواره فتعثّر حمّاليّ على حصى الطريق.

لكن الجبل ليس وحده المغرور اللحوح الحقود ، الأزهار والعشب والنهر هي أيضاً كذلك ! حتى لقد وجب عليّ أن أكرّر دون ونى وأنا أحملق بعيني - وهما تؤلماني ! :

نعم ، أيها الجبل ، أنت جميل ، تملؤني غبطة الغابات التي تغطي منحدراتك عند الغروب ! وأنت أيضاً ، أيتها الزهرة ، انك تسحرينني ، وترجع ألوانك الوردية الفرح إلى روحي ! وأنت ، ياعشب المروج ، لقد غدوت عاليا ، وطريّا ، وقويّا ! وأنت أيها العلّيق الغريب ، أن الافكار لتقفز فيّ ، على وخزك المفاجيء ! أما أنت ، أيها النهر الحبيب ، إن أمواجك تبدو لي على رقّة أهمّ معها بالابحار !

غنّى البدين ، هذا النشيد عشر مرّات ، وهو يرافقه بانحناءات متواضعة من جذعه ، ثم خفض رأسه وقال ، وهو يغمض عينيه :

- أما الآن ، فأرجوك ، أيها الجبل ، أيها العشب ، أيتها الزهور ، أيها العلّيق ، أيها النهر ، من فضلك جميعا ، أفسحي مكانا لعلّي أتنفس قليلا !

وتحركت ، على عجل ، جبال الجوار ، وتدافعت وراء وشاح من ضباب . وبقيت الممرّات في أمكنتها طبعا ، وظلّت على عرض الطريق تقريباً ، وما لبثت أن تلاشت على بعض السرعة . وفي السماء ، اختبأت الشمس وراء غيمة حبلى بالمطر ، فيما بقيت حوافها منارة بلطف. وغاص المنظر في ظلّ أعمق اختفى فيه جمال التقاطيع والأشكال .

كانت تسمع خطى الحمّالين حتى الضفة التي كنت عليها لكني لم أستطع تمييز شيء بدقة في مربّع وجوههم المظلم . كنت أراهم يحنون رؤوسهم ويدورون ظهورهم تحت هذا الحمل العجيب . كان تعبهم يقلقني ، وكنت أنظر إليهم في كثير من الاهتمام وهم يدوسون عشب الضفة ويجتازون بخطو متساو الرمل الرطب قبل أن يتورطوا في حمأ القصب ، حيث اضطر حمّالا المؤخرة أن ينحنيا أكثر كي يحافظا على أفقيّة المحفّة . وأخذت أفرك يديّ من انفعالي . لقد أصبحا مكرهين الآن على رفع القدمين لدى كل خطوة ، إلى علوّ جعل العرق يلمع على جسميهما في هذا العصر الماطر البارد .

وظلّ البدين هادئاً ، ويداه على فخذيه ، تلامسه رماح القصب الطويلة وهي تنتصب بعد مرور حمالي المقدمة .

ولقد كانت حركات هذين الاثنين تتقطع بالقدر الذي كانا يقتربان فيه من الماء ، فتتمايل النقّالة أحيانا كما لو أنها على الموج . لقد اضطرا وهما يقطعان حقل القصب ، إلى القفز عن بعض الرامات الصغيرة أو الدوران حولها ، وأقدّر أن بعضها كان عميقا .

وارتفعت بطّات برّية صائحة وانقضّت على الغيمة الحبلى بالمطر . عندها فحسب لمحت وجه البدين فجأة ، وجها يرتعد فرقا ! نهضت فقفزت بعض قفزات خرقاء وصلت بها إلى أسفل الحاجز الصخري الذي يفصلني عن الماء . كنت لا أفكر إلا بعون البدين ، غير مكترث بالخطر ، حين لا يكفي خدمه للقيام بمهمتهم . وركضت في طيش ، ولم أتوقف إلاّ حين وصل الماء إلى ركبتيّ . وأمامي ، توصل العتالون بفعل التوارك[1] إلى وضع النقالة على الماء . وقد حافظوا على أنفسهم بيد على وجه الموج المضطرب، ورفعوها بأذرعهم الأخرى الأربعة الشّعراء ، التي يرى بروز عضلاتها غير الاعتيادي .

وصل الماء أوّلا إلى ذقونهم ، وبعد قليل شفاههم فرفعوا رؤوسهم إلى وراء ، وسقط المحمل على أكتافهم . وغمر الماء أنوفهم ، فثابروا على جهدهم ، بالرغم من أنهم لم يتجاوزوا نصف النهر . وعندها انقضّت موجة صغيرة على حمّالي المقدمة . . . ، وغرق الرجال الأربعة دون أن يفوهوا بكلمة ، وهم يجرفون المحفّة بأيديهم المضطربة ! وانغلق الماء عليهم في دوّامة عنيفة .

في تلك اللحظة اخترقت أشعة الشمس الغاربة المائلة ، حواف الغيمة الضخمة ، فحوّلت الجبال والهضاب حتى الأفق فيما بقي النهر والمنظر في ظلّ الغيمة تحت أشعة غامضة .

ودار البدين ، بطيئا ، في وجهة التيار الذي يحمله وكأنه صنم عتيق من خشب أبيض رمي إلى الماء ! وانسرب على انعكاس غيمة المطر القائمة في الماء ، وسيّرته غيوم متطاولة ، فيما دفعته غيوم أخرى صغيرة وقصيرة إلى وسط الدوّامة الضخمة التي تدفقت حتى ركبتيّ وحصباء الشاطىء .

---

(١) من ورك

وتسلقت على عجل ، الحافة من جديد ، كي أرافق بدين الضفة ، لأني أحببته حقا ، ثم ، ألا يمكنني الحصول على بعض المعلومات عن أخطار بلاد ، تبدو مع ذلك آمنة ؟ تقدّمت إذن على لسان رمل (على ضيق يقتضي منك التعود عليه) ويداي في جيبيّ وقد التفّت بوجهي في زاوية قائمة إلى النهر ، حتى لقد كادت ذقني تعتمد كتفي .

وحظت سمرمرات على حصباء الضفة .

قال لي البدين :

ـ ياسيّد الضفة ، ألا تحاول انقاذي . ذلك هو انتقام الماء والريح ، وأنا ضائع . لأنه انتقام ! كم مرّة هاجمناهما ، أنا وصديقي التقيّ ، على صليل سيفينا ، في بريق الصنوج ، وفخامة الأبواق الرزينة ، وقفز الدفوف !

واخترقت بعوضة بخفقة جناح بطنه دون أن تفقد شيئا من سرعتها .

استمر البدين :

ب) بداية الحديث مع التقيّ

كان زمن كنت أذهب فيه كل يوم إلى الكنيسة ، لأن فتاة ، أحببتها ، كانت تصلي فيها على ركبتيها نصف ساعة كل مساء ـ وهذا ما كان يمكّنني من تأملها بكل حرية !

وذات مساء لم تجيء الفتاة ، وأخذت ، كي أخدع خيبة أملي ، أنظر إلى المؤمنين ، واسترعى انتباهي مشهد فتى نحيل ارتمى بطوله على الأرض .

ولقد كان من وقت لآخر يأخذ رأسه بكل قوّته ، ويضربه وهو يتنهد ، على راحتيه ، وقد وضعهما على بلاط الكنيسة .

وما كان يوجد غير بعض العجائز اللائي ، كنّ أحيانا يلتفتن ناحيته ، بوجوههن الضعيفة في أغطية رؤوسهن . وكان يبدو سعيدا في ما يثيره من انتباه ، وكان قبل أن يسترسل في فوراته ، يقدّر بنظرة دائرية عدد المشاهدين .

وأغاظني سفهه ، فعزمت على أن أدانيه عند الخروج فأسأله ببساطة عن سبب هذه الصلاة الغريبة . وأنا منذ وصولي هذه المدينة ، أعاني شغف الرغبة

بتفسير كل الأسرار . . . ولو أني في تلك اللحظة ، ما كان يهمّني غير غياب
الفتاة !

لم ينهض إلا بعد حوالى ساعة . وبدأ ينفض الغبار طويلاً عن بنطاله حتى لم
أملك إلا وأن أصيح به : « كفى ! كفى ! نحن نرى أن عندك بنطالا ! » ثم ،
صلّب[1] بدقة ، وتقدّم إلى الجرن المقدّس في مشية بحّار ثقيلة .

وعسكرت حدّ الباب ، وقد عزمت على ألاّ أدعه يمرّ دون تفسير . وقد
أخذت أنفخ خدّيّ وأفتل فمي (اعداد ممتاز للحديث في بعض الشؤون !)
وقدّمت رجلي اليمنى إلى أمام فيما نهدت بقدمي اليسرى (وضع ممتاز للتوازن ، كما
لاحظت في مرات عديدة) . . . لكن أمن المحتمل أن رجلي كان يسترق إليّ
النظر وهو يرّش وجهه بالماء المقدّس ، أو أن نظرى ربما دفعه لأخذ الحيطة ؟ ومهما
كان من أمر فقد اندفع بغتة إلى الباب وخرج منه كهبّة ريح . وقفزت بالرغم منيّ
وراءه ، واصطفق الباب الزجاجي ، فاجتزته على عقبيه ، لكن استحال عليّ
العثور عليه في النهج الضيقة وزحمة السير !

ولم يظهر في الأيام التالية ، غير أن الفتاة جاءت وصلّت في فيء مصلّى
جانبي . كانت تلبس السواد ، وقد غطت كتفيها ورقبتها ياقة دانتيلا حريرية ،
كان يظهر تقوير الديكولتيه[2] من تحتها . ولقد أنساني وجودها ، في يسر ،
رجلنا ، حتى أني لم أهتم به أبداً ، عندما عاود الصلاة ، بانتظام على طريقته .
لكنه كان كلّما مرّ من أمامي ، يسرع في مشيته ، ويشيح برأسه عني . ولو
أنه ما يفتأ ينظر إليّ خلال صلواته . كان يبدو عليه أنه حقد عليّ لأني لم أدانه تلك
المرة ، ولقد فكر ولا شك ، أن محاولتي باتت واجبا وأني سوف أنفذها كما
ينبغي ، ذات يوم أو آخر . وذات مساء ، بعد الوعظة ، اصطدمت به في نصف
العتمة وأنا أتبع سيدتي ، وخيّل لي أني رأيته يبتسم .
والحق أن اقترابي منه لم يكن أبداً واجبا ، وما كانت لتساورني الرغبة
بذلك . وباختصار ، ذات مساء ومازلت على ترددي ، وصلت راكضا إلى
الفناء ، ودقت الساعة السابعة ، لقد غادرت الفتاة ولا شك ! منذ زمن

(١) رسم اشارة الصليب (أخذناها من العاميّة)

(٢) ترجمت كلمة decolleté كما هي

الكنيسة ، وكان رجلنا وحده في شغله ، أمام شبكة المذبح !

وانزلقت حتى البوابة ، على رؤوس أصابعي ، وأعطيت قطعة عملة إلى آذن الصدقة . وتسللت إلى قربه ، وراء أحد مصراعي الباب المفتوح . وقضيت هناك نصف ساعة أتمتع بالمفاجأة التي كنت أعدّها لتقيّي . غير أن فرحي كان قصيرا ، فما عتمت أن اغتظت حين رأيت العناكب تتسلّق ثيابي - وكان شاقّا عليّ ، والحقّ ، أن أضطر للانحناء أمام كل الذين ، يتنفّسون بضجّة ، وهم خارجون من عتمة الكنيسة !

وجاء أخيرا ! كان واضحا أن صلصلة الأجراس الكبيرة التي ترّن منذ برهة ، تزعجه: كنت أراه على كل خطوة يتفحّص الأرض في رفق برأس قدمه .

نهضت، وبفشخة واحدة ، بلغته . . .

- مساء الخير ! قلت له وقد وضعت يدي على ياقته ودفعته إلى أسفل الدرج ، وحتى أضواء الساحة .

والتفتّ إليه ، وبما أني لم أفلته ، وجدنا نفسينا وجها لوجه .

قال لي : « دعني ! أجهل ما يريبك فيّ ، لكنني بريء !

ثم كرر : طبعا لا أعرف ما يريبك فيّ !

- ليست المسألة مسألة ريب وبراءة ! أرجوك ، لا نتكلّمن في هذا الشأن . كلانا غريب عن الآخر ، وليس قدم علائقنا ، بأعلى من درجات الفناء . وإلى أين نصل ، إذا تكلمنا للوهلة الأولى عن براءتنا ؟

أجاب : « اتفقنا. لكنك هل عنيت عندما قلت براءتنا، إن براءتي ثابتة، وأن عليك أن تثبت براءتك ؟ هل هذا ما ذهبت إليه ؟

ردّدت عليه قائلا : « هذا أو شيء آخر ! عندما دنوت منك ، لم تكن لديّ إلا النية في إلقاء سؤال عليك ، فاعتبر إننا اتفقنا عليه!

قال وهو يتنحىّ قليلا : « أريد أن أرجع إلى بيتي ».

- كم أفهمك ! ولولا ذلك هل كنت أدانيك ؟ ولا يذهبن بك الظن أن

الأمر من أجل جمال عينيك !

- ألست صريحا أكثر مما ينبغي لك ؟

- هل أعيد عليك أن المسألة لا تتعلّق بهذا ؟ وما شأن الصراحة وعدم الصراحة هنا ؟ عندي سؤال ألقيه عليك ، فتجيب ووداعا ! وأنت عندها ، حرّ في أن تعود راكضا ، إذا طاب لك ذلك !

- أليس أفضل أن نلتقي مرّة ثانية ؟ في وقت يناسبنا أكثر ؟ ربما في القهوة ؟ والآنسة خطيبتك لم تذهب إلّا منذ لحظة ، وبوسعك اللحاق بها ، فقد انتظرت طويلا !

صحت في ضجة قطار يمرّ : « لا ، لا ، لن تفلت منيّ ! انك تعجبني أكثر فأكثر ، أنت أسيري وأهنيء بذلك نفسي !

أجاب : « ياإلهي ، قلبك ، كما يقال ، في مكانه ، وأنت كتلة واحدة ! أنت تعلنني أسيرك . ولكم تبدو سعيدا ! إن بؤسي والحق في غاية العطب ، ينكسر منذ أن يلمس ويقع على من يسألني . ولهذا : طاب مساؤك !

قلت وأنا أمسك بغتة بيده اليمنى : « حسنا ، أردت ، أم لم ترد ، سوف تجيبني ! سوف أعرف كيف أكرهك على ذلك ، سوف أتبعك حيث ذهبت ، يمينا أم يسارا ، حتى درجك ، حتى غرفتك ! سترى أني أجد فيها مكانا لي ! لن يفيدك النظر إليّ . . . ومن أين تأتيك - واقتربت حتى التصقت به ، وبما أنه كان يزيدني بطول رأس ، وكلمته ، وكأنما ، في عنقه - . من أين تأتيك الشجاعة لمنعي ؟

وتراجع قليلا ، فأخذ يقبّل يـديّ واحدة بعـد الأخرى ، ويبللهما بالدموع .

- إن المرء لا يستطيع رفض شيء لك . لقد حزرت أني لا أستطيع رفض أمر لك ، مثلما حزرت أني راجع للبيت . لكني أرجوك ، دعنا نذهب إلى النهج الصغير ، في الجهة المقابلة !

وافقت . وحين فرقت بيننا عربة ، أشار إليّ بكلتي يديه أن أسرع . كان ينير عتمة النهج قناديل نادرة على علوّ الطابق الأول ، بدت له أنها غير كافية ،

فقادني إلى رواق بيت عتيق ، إلى تحت نوّاسة تنزّ عند قدم درج . هناك مدّ محرمة على احدى الدرجات التي حفرتها خطى لا تحصى ودعاني إلى الجلوس . سوف تسألني أفضل وأنت قاعد ، وبوسعي أن أجيبك أفضل وأنا واقف ، لكن رجاء ، لا تعذبني !

وجلست ، مادام يعالج الأمر من كل قلبه ، لكني لم أستطع منع نفسي من القول :

جئت بي إلى هذا الوجر، وكأننا متآمران، مع أني لا أهتم بك إلاّ عن فضول ، وأنت تهتم بي عن خوف ! والحق ، أني أردت أن أعرف فحسب ، لماذا تصلّي هكذا ! باللطريقة المضحكة ! كأنك مجنون ، مجنون حقيقي ! ما تأتيه حقا بشع ، كريه عند المشاهدين ، ولا يطيقه المؤمنون !

والتصق بالحائط ، فلا يتحرك بحرّية إلاّ رأسه .

- ياله خطأ عميق ! المؤمنون يجدون سلوكي طبيعيا ، والآخرون يحكمون عليه أنه ينطبق على سلوك المؤمن !

- إن غضبي هو الدليل على العكس !

- إن غيظك ، إذا افترضنا صدقه ، يثبت ببساطة أنك لست من هؤلاء ولا هؤلاء .

- صحيح جداً ! لقد بالغت حين تكلمت عن الغيظ . لا ، لقد أثار ، نوعا ما ، سلوكك فضولي ، ولقد قلت لك ذلك في البدء . لكنك أنت إلى أية فئة تنتمي ؟

- أوه ، أنا ؟ أجد لذة في ، أن يلاحظني الآخرون ، وأن ألقي من وقت لآخر ، إذا استطعت القول ، ظلاّ على المذبح !

سألته وقد تغضّن وجهي : « لذة ؟ »

- الحق أقول لك ، لا ! لا تأخذها عليّ . إذا أسأت التعبير ! لا ، ليست لذة ، إنها بالأحرى حاجة ! الحاجة إلى أن تسمرّني هناك ، إلى بعض ساعة ، كل تلك النظرات ، فيما المدينة كلها حولي . . . .

- ما تعني بقولك ؟ صرخت بقولي بصوت أعلى مما تقتضيه هذه الملاحظة

الصغيرة التي أردت ذكرها وارتفاع الرواق الهيّن ، وبعدها خفت من أن أفقد أو أوهن صوتي. بالحق ، ما تعني بهذا ؟ لقد حزرت حالتك ، بالتأكيد ، من أول نظرة ، وأنت تؤكدها لي ! أليست نوعا من الجذام هذه الحمّى ، هذا الدوار البحري على اليابسة ؟ ألا يخالجك انطباع بعدم قدرتك ، في حميّا حماسك ، على الاكتفاء ، أو الارتواء ، من اسم الأشياء الحقيقي ، فتصمها بالتالي ، على عجل ، بما تيسّره الصدفة من أسماء ؟ أنك تفكر قائلا السرعة ، السرعة ـ لكنك ما أن تفرّ بعيدا عن الأشياء حتى تنسى أسماءها من جديد . إن حورة الحقول التي أردت أن تتجاهَل أنها ما هي عليه ، فسميتها « برج بابل »، تتمايل من جديد بلا اسم وقد وجب عليك أن تدعوها « بنوح السكران . . . »

قاطعني قائلا : « أنا مسرور ، بأني لم أفهم شيئا مما قلت ! »
قلت له سريعا ، في حماسي :

ـ سرورك هو بالضبط اعتراف بأنك فهمتني !
ـ ألم أقل لك ؟ ليس بوسع المرء أن يرفض لك شيئا !

أسندت يديّ على احدى الدرجات العليا وارتددت إلى وراء . في هذا الوضع المنيع تقريبا ، وهو آخر وسيلة لدى المتصارعين ، أعلنت :

ـ آه ، لكن عفوا ! إن ردّك إليّ التفسير الذي أعطيتك ، هو نقص في الأمانة !

عندها تشجّع . وضم يديه بعضا إلى بعض كي يجعل جسمه أكثر وحدة وقال لي بما لا يخلو من بعض التردّد :

ـ لقد استبعدت منذ البدء الجدل في الصراحة . والحق ، إن شيئا واحدا هو ضروري لي الآن : أن أجعلك تفهم طريقتي في الصلاة ، وهل تعلم السبب ؟

هو ذا يوجه لي الأسئلة الآن ! لا لم أكن أعرف ولم أشأ أن أعرف . وقلت في نفسي حينئذ ، أني بعيد عن أن أكون هنا بمحض ارادتي ، إنه هو الذي أتى بي بالقوّة ، كما أكرهني بالتالي على الاصغاء إليه ! ربما كان لديّ ، إلاّ أن أتطارش ، فيستقيم كل شيء ، غير أني ما كنت قادرا الساعة ، على هذا الأمر بالذات !

وكان تقبّي قدامي ، يبتسم . ثم سقط على ركبتيه وهو يكشر كالنعسان :

ـ بتّ قادرا على أن أفضح لك سرّي : لماذا تركتك تدنو منّي . عن فضول ، عن أمل ! منذ أجل بعيد تعزّيني نظرتك . آمل أن أعرف منك السبب الذي يجعل الأشياء تضمحل حولي كندف الثلج ، فيما إذا وضع أصغر كأس شراب على طاولة عند الآخرين ، يكون على ثبات صرح !

وبما أني لم أجب ، ولم يندّ عني غير اختلاج عَبَرَ وجهي لا إراديا ، سألني :

ـ ألا تعتقد أن هذا هو شأن الآخرين ؟ حقا لا ؟ إصغ قليلا : ذات يوم ، وكنت جدّ صغيرا ، فتحت عيني ، بعد قيلولتي القصيرة ، ولم أكن حتى ئذ على يقين من وجودي ، سمعت أمي من أعلى البلكون ، تسأل بصوتها على طبيعته : « ما تفعلين هنا يا عزيزتي ؟ يالهذه الحرارة ! » وأجابتها امرأة من البستان : « أتناول العصرونية على العشب ، كما ترين » . كانتا تتكلمان دون قصد ، ولا تبصّر ، كأن هذه المرأة كانت تنتظر السؤال ، وأمي الجواب !

وخيّل لي أني سئلت ، فوضعت يدي على جيب بنطالي الخلفية ، كأني كنت أبحث عن شيء ـ والواقع أني لم أكن أبحث عن أي شيء ، لكني أردت أن أبدّل وضعي كي أظهر اهتمامي بالحديث ! ـ وأعلنت له أني وجدت هذه الحادثة غريبة جدا ، وخفيّة حقا . وأضفت أني لا أؤمن بصحتّها وافترضته تخيّلها لضرورات القضية ، ولو أنها على كل هذا الغموض ! ثم أغمضت عيني ، فقد كان الضوء سيئا جدا ، متعبا لعينيّ !

ـ أنت ترى جيّدا ! الشجاعة ! أنت من رأيي هذه المرّة ! ولقد دنوت مني ، بنزاهتك ، كي تقول لي ما قلت . إني أفقد أملا ، وأربح آخر !

أليس كذلك ؟ ولم أخجل من عدم السير مستقيما وبخطو طبيعي ، ومن ألا أضرب البلاط بعصاي أبدا ومن أن أسلم الرصيف للصاخبين ؟ أليس لي الحق بالشكوى والنطنطة كشبح حائر على طول البيوت ثم أختفي أحيانا في زجاج المعروضات ؟

أية أيام هي أيّامي ! لماذا بني كل شيء خطأ حتى لتتداعى أعلى العمارات لأدنى سبب ؟ وعندها أتسلّق الركام وأسأل كل من ألتقي به : « هل هذا ممكن ؟ وهكذا ؟ في مدينتنا ! بناء مازال جديدا ! وليس هو الأول في هذا اليوم . ولا الأخير ! فكر قليلا ! » لكن من يجيبني ؟

غالبا ما يسقط المارّة في الطريق ويموتون في مكانهم . ويفتح التجار حالا أبوابهم المزدحمة بالبضائع ويبادرون بخطو متسارع ! وتحمل الجثة إلى مكان ما ، ويعودون جميعا يبتسمون ويثرثرون : « طاب يومك ، طاب يومك ! . . . الجو مائل للضباب . . . الأوشحة تباع كالخبز . . . آه ! نعم ، الحرب ، آه ! الحرب ! . . . » وركضت إلى البيت الذي وسّدت فيه الجثة ، وبعد أن رسمت ، في خجل ، عدة مرّات حركة القرع على نافذة البواب الصغيرة ، رفعت يدي ، وثنيت إصبعي ونفذتها آخر الأمر . قلت له : « نهارك سعيد ، إلى هنا ، أليس كذلك ؟ حملت جثة عابر سبيل ؟ هل تتلطّف فتريني إياها ؟ » لكنه ظلّ يهزّ برأسه ، كأنه غير قادر على اتخاذ قرار . واضطررت لأن أضيف : « خذ حذرك ! خذ حذرك ! أنا شرطيّ سرّي ، وأريد رؤية الميت في الحال ! » عندها ، خرج عن تردّده . وصاح : « أخرج ! هذا الوبش تعوّد التسكع هنا طيلة النهار . لا يوجد أي ميت هنا ! أنظر عند الجار ! » حييت وابتعدت .

ساحة كبرى يجب أن أقطعها ، ونسيت كل شيء ! إذا كانوا يشيدون ، عن غرور صرف ، ساحات على هذا الاتساع ، فلماذا لا يزودونها بدربزينات معترضة ؟ ريح من رياح الجنوب الغربي ، تهبّ في هذا اليوم ! يرسم منها سنان البرج في أعاليه دوائر صغيرة ، وترتجف الواجهات الزجاجية وتنحني القناديل كقصب ، والريح تنفخ وتفتل معطف العذراء على نصبها . ألا يلاحظ أحد ما يجري ؟ الرجال والنساء يحومون في الجوّ ، بدلا من السير على الطريق ! وعندما تتوقف الريح ، يتوقفون هم أيضا ويتبادلون بعض الكلمات ، ثم ينحنون ويذهب كل منهم من ناحيته . حتى إذا عاودت الريح هبوبها ، طاروا جميعا دفعة واحدة ، دون القدرة على المقاومة . وهم لا يأبهون لاضطرارهم على الامساك بقبعاتهم ، فالفرح لا يقلّ لمعانه في عيونهم وليس لديهم ما يعترضون عليه ! أنا وحدي خائف ! عندا استطعت أخيرا أن أقول له :

- حكاية أمّك والمرأة في البستان ، لا أجدها ، والحقّ ، مثيرة . فأنا لم أسمع وأر كمية من مثيلاتها فحسب ، وإنما شاركت غالبا فيها . ليس فيها إلاّ ما هو طبيعي جدا ! ألا تعتقد أني لو وجدتني صيفا على البلكون ، لألقيت نفس سؤال أمك أو لأجبت كامرأة البستان ؟ حدث تافه !

لما سمعني بدا عليه أنه هدأ أخيرا وقال لي دون تمهيد أن لباسي جميل وأن

ربطة عنقي تعجبه كثيراً ، وأن جلدي ناعم جداً ، وأن الاعترافات لا تأخذ كل معناها إلاّ إذا قلّصناها .

جـ) حكاية التقي

ثم جلس حذّي . بدأ يخجلني ، فوسّعت له مكانا ، وقد خفضت رأسي . وما كان ليفوتني ، على كل حال ، أنه لم يكن تماما على ما يرام . ولقد صغّر نفسه ، محاولا ألا يمسني أدنى مس وتكلم في جهد قائلا :

ـ أية أيام هي أيامي !

البارحة مثلا حفلة ساهرة . في اللحظة التي أنحني فيها ، على نور الغاز ، أمام فتاة أقول لها : « أنا سعيد حقا باقتراب الشتاء ! » ـ في تلك اللحظة بالذات ، لاحظت ، في ضيق شديد ، أن عظم فخذي الأيمن قد انخلع . وتراخت أيضا ركبتي قليلا .

طبعا ، جلست ـ وتابعت (وأنا أحاول دائماً في الواقع السيطرة على ألفاظي !) وأضفت : « لأن الشتاء هو أقل اجهادا ، بوسع المرء أن يتصرّف فيه بخفة ، والكلام يتطلب فيه جهدا قليلا ، أليس كذلك ، يا آنستي العزيزة ؟ إنك تعطيني الحق بالمناسبة ! »

كانت فخذي اليمنى تضايقني كثيرا كل تلك المدة . ظننتها في البدء صارت إربا ، لكني قليلا قليلا ، ولطول ما دلكتها وعالجتها بحذق ، رددتها شيئا فشيئا إلى حالتها الأولى .

عندها قالت لي الفتاة بصوت خفيض ، وكانت قد جلست أيضاً هي الأخرى حبّا بي : ـ لا ، لا ، إنك لا تؤثر بي ، لأن . . . .

قلت بنفس الرضى والرعاية : « انتظري ، لن تضيّعي يا آنستي العزيزة أكثر من خمس دقائق ! في الحديث معي . أرجوك كلي بين الكلمات ! »

وفيما أنا أقول ذلك أوغلت ذراعي في نوع من السلّة يمدّها جنيٌّ من برونز وقبضت على عنقود ثقيل من العنب ، أمسكت به لحظة في الهواء قبل أن أضعه في صحن صغير حافته زرقاء كي أقدّمه إلى جارتي في حركة لا تخلو ولا شك من بعض التصنّع !

كررت قائلة : « إنك لا تؤثر بي . كل ما تقوله مملّ ، غير مفهوم ، وفوق ذلك غير صحيح ! أعتقد ياسيد ـ لماذا تدعوني « آنستي العزيزة »؟ ـ أعتقد أن السبب ببساطة هو أنك تحتقر الحقيقة لأنها تتطلب جهدا كثيرا !

ياللسماء كم جعل هذا مزاجي لطيفا !

وصحت تقريبا : « لكن نعم ، لكن نعم يا آنسة ! كم أنت على حق يا آنستي العزيزة ! لكن هل تقدرين أي فرح يمكن أن يجتاح الذي يجد نفسه وقد فهم جيدا دون أن يفعل شيئا لذلك ؟

ـ الحقيقة تتطلب منك فعلا جهدا كبيرا ، ياسيّد ، لأنك ماذا تشبه ! أنت من رأسك حتى قدميك قصاصة ورق حرير ، ورق حرير أصفر ، أنت خيال بالضبط ! وعندما تمشي ، يجب أن نسمع حفيف الورق . ومن الجنون أن نلقي نارا أو لهبا بالنسبة لمواقفك أو آرائك ، لأن مجرى هواء بسيط يكفي ، كما هو الأمر الآن ، كي تنحني على هواه !

ـ لا أفهمك . . . يوجد في الغرفة عدد من المدعوّين . بعضهم يحيط بذراعه مسند كرسيّه أو يتكيء على البيانو ، وبعض يرفعون ، وكأنما في أسف كؤوسهم إلى شفاههم ، أو ينتقلون في خجل إلى الغرفة المجاورة . وبعد أن يصطدم كتفهم الأيمن بالخزانة ، يقولون لأنفسهم وهم يتنفسون الهواء عند النافذة : هناك هي فينوس ، نجمة الراعي ! وأنا ، هنا في السهرة ! هل توجد علاقة بين هاتين الواقعتين ، أنا لا أدرك ذاك . أهنالك ولو علاقة وحيدة ؟ وكما ترين ، آنستي العزيزة ، السلوك في كل هذا العالم ، نظرا لفقدان الوضوح عنده عن نفسه ، هو سلوك متردد ، إن لم أقل سخيفا ! ـ وأنا وحدي ، أبدو أهلا لأن تجلى حالتي الخاصة ! وأمنحهم فضلا عن ذلك ! جولة ممتعة ، أنت تموّهين جيدا ملاحظاتك بالسخر ، فلا تهدّم كل شيء ، وإنما تدع الأساسي قائما ـ كما تقف بعد الحريق الجدران الضخمة ! فلا شيء . أو تقريبا لا شيء يعيق النظر ، من كوى النوافذ الفاغرة ، ونرى في النهار الغيوم ، وفي الليل النجوم . وكثيرا ما تبتر الحجارة الرمادية الغيوم وتكوّن مع النجوم كواكب غريبة . . . ما قولك إذا سمعتني أسرّ إليك في امتنان أن سيكون للبشر الذين يريدون أن يعيشوا نفس مظهري أنا : خيال من ورق حرير ، كما لاحظت ، ولسوف يُسمع ، عندما يمشون ، نوع من الحفيف ! لن يكونوا مختلفين عما هم عليه الآن ، لكن

مظهرهم سوف يكون كما ذكرت . حتى أنت ، يا آنستي العزيزة . . .

وانتبهت آنئذ إلى أن جارتي ليست حذّي . أظنّها رحلت مباشرة بعد ملاحظاتها الأخيرة ، ووقفت الآن أمام النافذة ، يحيط بها ثلاثة شبان يضحكون وهم يتكلمون في ياقاتهم المنشّاة .

عندها ، وبعد أن شربت في فرح كوبا من الشمبانيا ، اقتربت من عازف البيانو ، الذي كان يهزّ برأسه ، وهو يوقع في زاويته لحنا كئيبا . وانحنيت في لطف على أذنه ، كي لا أخيفه ، وقلت له بصوت واطيء جداً فيما هو يعزف :

ـ تلطّف ، سيدي العزيز ، واسمح لي أن أعزف لأني على أهبة أن أكون سعيدا .

لكنه لم يسمعني وبقيت هناك ، متضايقا ، حتى اللحظة التي تغلبت فيها على خجلي ، وجلت من مدعو لآخر . كنت أقول لهم ، مظهرا عدم المبالاة : « سوف أعزف اليوم على البيانو ، سوف ترون ! »

وكان يبدو أن أحدا لا يجهل أني لا أعرف العزف ، لكنهم كانوا يبتسمون في لطف لأني قطعت الحديث بطريقة حلوة . غير أنهم لم يعيروني حقا انتباههم إلا عندما اتجهت إلى عازف البيانو ، وقلت له ، هذه المرّة بصوت عال ومفهوم :

ـ تلطّف ، سيدي العزيز ، واسمح لي أن أعزف لأني على أهبة أن أكون سعيدا . وليس أقلّ من فرح النصر !

توقف عازف البيانو ، لكنه لم يغادر مقعده وكأنه لم يفهمني ! واكتفى ، وهو يتنهد ، باخفاء وجهه بكفيه الطويلتين .

أشفقت عليه ، وندمت ، فشجعته على الاستمرار ، وإذا بسيّدة البيت ، تندفع من وسط الجماعة .

ـ صدفة غريبة ! قهقهوا كأني نويت أن أجازف ببعض الشطط .

وبرزت فتاة الساعة الماضية بدورها وقالت وهي تحدّق إليّ وفي هيئتها احتقار :

ـ سيدتي ، أرجوك ، دعيه يعزف ! ربما ينوي السيّد أن يقوم بدوره في

مياذلنا ؟ يجب أن نمتدحه من أجل ذلك . أوه بلى ! رجاء ، سيدتي !

وأظهروا جميعا ، في فرح ضاجّ ، أنهم مقتنعون مثلي بأن هذا الكلام ليس فيه سوى السخر . العازف وحده ظل صامتا . حنى رأسه وهو يمرّر سبّابة يده اليسرى على خشب المقعد ، كأنه كان يرسم على الرمل . وأخذتني رجفة ، فوضعت يديّ في جيبيّ كي أخفيها . وبت غير قادر على الكلام الواضح ، لشدة ما كانت رغبتي بالبكاء ! وبات لزاما عليّ أن أجد الكلمات التي تهزّىء عند مستمعيّ الفكرة بأني سوف أنفجر بالبكاء : « سيدتي يجب أن أعزف لأن . . . » وبما أني نسيت الأسباب ، تركت نفسي أسقط على المقعد . وأدركت من جديد تفاهة موقفي . ووقف العازف ، وبما أني كنت أقطع عليه الطريق ، تلطّف فقفز عن المقعد .

واستقمت فقلت : « الظلام ، أرجوكم ! لا أستطيع عزفا في النور » .

عندها أمسك سيدان بالمقعد وحملاني إلى طرف الغرفة الآخر ، قرب الطاولة ، وهما يصفران بلحن قصير ويؤرجحاني على الايقاع .

بدا على المجتمع كله التأييد وخصّت الفتاة قائلة :

ـ انظري ، يا سيدتي كم أحسن العزف ! كنت أعزف وكنت أنت خائفة جدا !

فهمت وشكرتها بانحناءة حسب الأصول . وصبوا لي كأسا من عصير الليمون سقتني إياه صبية شفتاها جدّ حمراوين ، وقدمت لي سيدة الدار على صحن كعكة مرنج ، دستها في فمي فتاة في ثوب أبيض ، ورفعت فوقي ، شقراء حلوة ، سمينة حسب المرام ، عنقود عنب ما استطعت غير النقر منه ، فيما كان نظرها يغوص في نظري الذي لم يجرؤ على احتمال ذاك . وكم كانت دهشتي ، بعد أن دللني الجميع ، أن يمسكوا بي ، حين أردت العودة إلى البيانو !

ـ لنكتف بهذا ! قال مضيفنا الذي لم ألحظه من قبل ـ وخرج ثم رجع حالا وهو يحمل قبعة عالية كبيرة ومعطفا لونه قرميدي ، تزيّنه الأزهار ـ وقال : هذه هي ثيابك !

والحق ، أنها لم تكن ثيابي ، لكني لم أشأ أن أملي عليه تنقيبا آخر . وساعدني هو في ارتداء المعطف الذي التصق بقوة على شخصي الضعيف ،

فناسبني بشكل مدهش . وزرّرته لي سيدة محببة الوجه على طوله وهي تنحني تبعا لموقع الأزرار .

وقالت لي سيدة الدار : « وداعا . لكن إلى لقاء قريب ! أهلا بك في أي وقت !

وانحنى الجميع كما لو كان ذلك لزاما عليه. وحاولت أن أجاريهم، غير أن المعطف كان ضيّقا جدا . وأخذت عندها القبعة العالية وخرجت مرتبكا .

د) حديث مع السكّير

منذ أن جاوزت ، بخطى صغيرة ، العتبة ، اقتحمتني السماء والقمر ، والنجوم ، تلك القبة الشاسعة والساحة نفسها أيضا ، وقصر البلدية ، وتمثال العذراء والكنيسة .

خرجت بهدوء من العتمة كي أوافي ضوء القمر ، وفتحت معطفي كي أدفأ ، ثم رفعت يدي ، فأسكتّ هسهسة الليل وأخذت أفكر .

باسم ماذا تدّعين أنك موجودة ؟ هل تنوين دفعي إلى قبول ازدراء أني وهم وأني غليظ ، هنا على طريقي المخضّر ؟ لكن ، ألم تختفي منذ زمن طويل أيتها السماء ؟ وأنت ، يا ساحة قصر البلدية ، هل وجدت أبدا ؟ . . .

بقينا ، وأقول الحق ، أنك كنت دائما أعلى مني ، لكن شريطة أن أدعك في سلام !

شكرا لله ، أنك بتّ غير موجود ، أيها القمر ! أليس ، ولا شك ، اهمالا بحتا مني ، أن أظلّ أسميك بهذا الأسم ، الذي يدعونك هكذا به ؟ لماذا لست على نزقك حين أناديك « يافانوسا بندقيا[1] قديما مضحك التلوين ؟ » ولماذا تختبيء كلّك تقريبا عندما أسميك « بتمثال العذراء » وأنت يا تمثال العذراء ، بت لا أتعرف على موقفك المهدّد ، منذ أن أناديك « يا قمرا أصفر النور ! »

إن المرء ليعتقد أن مجرد التفكير بك يؤذيك أفدح الأذى ! وأنك تفقد بذاك الشجاعة والعافية .

---

(١) نسبة للبندقية

أيتها السماء ، لكم يربح المفكر حين يتردد إلى مدرسة السكّير !

لماذا هدأ كل شيء ؟ لقد هدأت الريح كما يبدو لي ، والبيوت الصغيرة التي تجرى غالبا عبر الساحة كأن لها عجلات ، ثبتت قويّة في الأرض ، فما نلمح . . . (لكن هس ، هس !) الخط الضئيل الاسود الذي يفرّق عادة فيما بينها !

وأخذت أعدو . درت دون عقبات مرات ثلاثا في الساحة الكبرى دون أن ألتقي بسكّير ما . واتجهت إلى نهج شارل ، ومازلت أركض دون أي تعب . وكان ظلّي وهو أصغر مني أحيانا ، يعدو إلى جانبي على الجدران كما على طريق متعرّج .

وسمعت ضجة أمام ثكنة الاطفائيين ، آتية من جهة السوق الصغيرة ، ورأيت حين وصلته سكيرا واقفا يستند إلى حاجز الينبوع ، وقد باعد بين ذراعيه ، وأخذ يضرب الأرض بجرموقيه[١] . ووقفت كي أسترد نفسي ، ثم دنوت من رجلنا ، فرفعت قبعتي وقدّمت نفسي :

ـ طاب مساؤك ، أيها السيّد الرقيق ! بلغت من العمر ثلاثة وعشرين عاما ، لكني مازلت دون اسم . أما أنت فتحمل ، على عكسي ، اسما رائعا بقدر ما هو رخيم ، وقد جئت من باريس العظيمة ـ ومازلت مشبعا بجوّ بلاط فرنسا المصطنع وأرضه الملائمة لتسهيل الخطى الخطأ !

لقد رأيت ، يقينا ، بعينيك المخضبتين تلك السيدات العظيمات بقدودهنّ النحيلة ، يدرن إلى وراء عندما يصلن إلى أعلى المصطبة النيّرة ، وما زالت ذيول أثوابهن الباذخة الألوان وقد امتدت على الدرج ، تغطي رمل البستان . . .

وحولهنّ أليس كذلك ؟ خدم بكسوات رمادية أنيقة وبناطيل بيضاء ، يتسلقون بأيديهم وأرجلهم ويمدّون على أعمدة خشب عالية قطع قماش رمادية كبيرة ، يرفعونها على الأرض بحبال ضخمة وقد انحنت جذوعهم من الجهد ـ ذلك أن السيدة الكبرى رغبت ذلك اليوم بصبيحة من ضباب !

---

(١) الحذاء الرثّ.

وتجشّأ فاستأنفت ، وقد استغربت قليلا :

ـ هل صحيح يا سيدي ، أنك أتيت حقا من باريس إلى هذه المدينة ذات الجوّ ، للأسف ! المتغيّر ، المثقل بالعواصف والأهواء ؟

وتجشّأ من جديد فقلت :

إنه شرف عظيم سيدي ، وأنا أحسن تقديره !

وزرّرت معطفي بأصابع سريعة ثم أضفت في شغف خجول :

ـ أعرف جيّدا أنك تذهب إلى أنك لا يليق بك الجواب عليّ ، غير أني أحكم على كل حياتي بالندم إذا لم أسألك هذا اليوم .

. « أرجوك ، سيدي الحسن اللباس ، هل صحيح ما أنبأوني عنه ، من أنه يوجد في باريس رجال ليسوا إلا تطريزا ، وبيوت ليست إلا بوابات ؟ وهل السماء حقا تكون فوق المدينة ، أيام الصيف ، باهتة الزرقة ، تزينها غيوم صغيرة بيضاء على صورة قلب ؟ وهل توجد هناك ديوراما ، على المودة ، ليس عليها سوى الأشجار ، وقد حفرت عليها ـ كل ضمن اطاره ـ أسماء الأبطال ، والمجرمين وأشهر العشاق ؟

« آه ، ثم هنالك ذاك النبأ ، ذاك النبأ الواضح كذبه ! شوارع باريس أليست لها تفرعات مفاجئة ؟ أليست الحركة فيها هائلة ؟ وهي ليس كل شيء فيها على أحسن نظام ، وكيف لهذا أن يكون ممكنا على كل حال ؟ وإذا طرأ حادث ، وجدت الناس يبادرون من الشوارع المجاورة ، بذلك الخطو الذي يخفّ بالبلاط فحسب ، وهم يتحرقون فضولا رغم خوفهم من خيبة الأمل ، يلهثون وقد توتّرت منهم الوجوه ! حتى إذا لمس أحدهم الآخر ، همّ فاعتذر بحديث لا ينتهي وتبادل معه آلاف الانحناءات : « آسف ياسيدي ! أعذرني عن سهوي . . . ياللزّحام ! . . . أعذرني ، أرجوك ! . . . كنت غافلا ، أعترف لك . . . اسمي . . . اسمي جيرم فاروش ، عطار شارع الكابوتان . . . هل أسمح لنفسي بانتظارك غدا على الغداء ، سوف يكون هذا شرفا عظيما لمدام فاروش أيضاً . . . » هكذا يندرج الحديث ، فيما تفتر الحياة في الشارع ، فيما يهبط الدخان بين البيوت . أليس الأمر كذلك ؟ لكن ألا يحدث أن تأتي عربتان في أوج نشاط شارع في حيّ راق فتصطفّان في نفس المكان ؟ ويفتح الغلمان في

رزانة البوّابات ، وتنزل ثمانية عسابير (الكلب الذئبي) سيبيرية ، وهي تتدافع وتقفز وتعوي ، وتندفع للصيد على الطريق . . . ويريد بعض أن يجعلونا نعتقد ، أنهم ليسوا غير شباب أنيقين ، من علية باريس ، وقدّ تنكّروا !! »

وأغمض عينيه نصف اغماضة . حتى إذا سكتّ ، رفع يديه إلى فمه وأرخى بفكّه السفلي . كان الطين يغطي ثيابه ، فهل رميته على باب خمّارة ، دون أن يعرف تماما ما حدث له ؟

ألم نكن ، ولا شك في فترة العطالة القصيرة الهادئة بين النهار والليل ، حينما يسقط الرأس فجأة ، بين الكتفين ويموت ، دون أن ندري ، كل شيء ويختفي في غياب أنظارنا ، عندما نبقى هناك ، وحيدين ، وقد انحنت أجسامنا إلى اثنين ونحن نتطلع حوالينا ، فلا نرى شيئا ، وقد تشبثنا بذكرى أن بيوتا بسطوح تقوم على خطوات منّا . ولسعادتنا أيضاً ! مداخن ذات زوايا يرشح منها الشفق عبر السقائف حتى غرف البيت ؟ لكن ، شكرا لله ! سوف يطلع النهار غدا ، والذي لا يصدّق ، إذا صحّ هذا الأمر ، أننا نستطيع أن نرى غدا .

وغضّن سكّيري فجأة حاجبيه ولمع فيما بينهما وبين الجفنين بريق . وشرح لي في نتف :

ـ يعني أن . . . يعني أني نعسان وأني بالتالي سوف أذهب كي أنام . . . يعني أن لي صهرا في ساحة فينيسلاس . . . إذن يعني سأذهب إلى هناك ، لأني أسكن هناك ، لأن سريري هناك . . . أغرب عني . . . أي أني بت لا أعرف تماما ما يسمى ولا أين يسكن . . . أي أني أعتقد جيّدا أني نسيته . . . غير أن هذا لا قيمة له ما دمت لا أعرف إذا كان لدي فعلا صهر . . . يعني أني سأذهب الآن . . هل تعتقد أني سوف أجده ؟

وأجبته دون تفكير :

أوه ! طبعا . لكنّك قادم من بلد أجنبي وتشاء أبأس الصدف ألا يكون غلمانك تحت تصرفك . فاحتمل مني أن أوصلك ! لم يجب ومددت له ذراعي .

هـ) تتمة الحديث بين البدين والتقيّ

كنت أحاول منذ هنيهة أن أتحرّك . دلكت نفسي وأنا أقول : « آن أوان أن تتكلم ، يبدو عليك أنك مضطرب كلّك . هل تشعر بالانزعاج ؟ انتظر

إذن ! أنت تعرف تلك الحالات . فكّر جديا ! وبوسع ما حولك أن ينتظر ». ويحدث الآن ما حدث في أمسية الأسبوع الماضي ، حين كان يقرأ أحدهم مخطوطة ، نقلت أنا منها بناء على طلبه صفحة . ولكم كانت دهشتي حين رأيت خطي حدّ خطه ! خط مائع مهمل ! . . . كانوا ينحنون من جهات الطاولة الثلاث . أقسمت وأنا أبكي ، بأن ذاك لم يكن خطي ! . . . « لكن ما العلاقة بين هذه الحكاية وهذه الحالة ؟ كان يقع عليك وحدك أن تخلق محادثة بينّة الحدود . كل شيء هادئ . قم بجهد ، ياعزيزي ! سوف تجد شيئا ما تجيب به : « إني أنام . . . رأسي يؤلمني . . . وداعا » أسرع إذن ، أسرع ! تظاهر . . . لكن ماذا ؟ دائما وأبدا الصعوبات ؟ ماذا تتذكر ؟ . . . « أذكر هضبة تنتصب تجاه السماء ، وكأنها درع الأرض ! كنت أراها من أعلى جبل ، وتهيأت لأن أطوف بها ، وبدأت أغني . . . »

ولقد كانت شفتاي جافتين وخانتاني ، عندما قلت أخيرا له :

ـ ألا يمكن لنا أن نعيش بشكل آخر ؟

قال في ابتسامة متنبئ : « لا ».

وسألته : « لكن لماذا إذن تصلّي مساء في الكنيسة ؟ »

فيما كان ينهار بيني وبينه كل ما أيدته حتى الآن كما في حلم .

ـ أوه ! ولماذا نتكلم عن كل هذا ؟ إن أحدا من الذين يعيشون وحيدين لا يكون مسؤولا عند حلول المساء . إن المرء يخشى حدوث بعض الأشياء : ألا يختفي (ومن يدري ؟) جسده ، وألا يكون البشر في الواقع إلا ما يظهرون عليه عند الغسق ، وإننا لا نستطيع السير دون عصا . . . ، عندها يقول الانسان لنفسه أن ربّما كان من الخير له أن يذهب إلى الكنيسة فيصلّي بأعلى صوته ، يولد له جسد من كل الأنظار المسلّطة عليه !

عند هذه الكلمات ، أخرجت من جيبي محرمة وانفجرت بالنحيب ، كأني مكسور إلى اثنين .

ونهض فسألني وهو يقبّلني : « لم البكاء ؟ أنت عظيم . هذا غاية الوّد . لك يدان طويلتان ، تطاوعانك تقريبا ، كيف لا تكون سعيدا وأنت على كلّ هذا ؟ أنصحك أن ترتدي دائماً أكماما موشحة بالسواد . . . هيا ، لا تبك بعد !

أحاول أن أعزيك ، وأنت تلحّ بالنحيب ؟ أنت تحتمل بعقل صعوبة أن تحيا . . .

إن ما نبني من أشياء ، هي في الحق غير قابلة للاستخدام : آلات الحرب ، الأبراج ، الجدران ، ستائر الحرير . . . الخ ، ولو أننا يتاح لنا الزمن فنلاحظ ذاك لكانت دهشتنا عظيمة ! إننا نتماسك في الهواء دون أن نسقط ، ونرفرف أسوأ من الوطاويط نفسها ! لكنّ يوما جميل المناخ سوف يأتي ، ومن بوسعه أن يدفعنا ، آنئذ ، عن القول « آه ، يا إلهي ، هذا اليوم الجميل ؟ » ونقيم هكذا على أرضنا ونعيش بواقعة موافقتنا فحسب !

ألا ترى ! إننا كجذوع أشجار في الثلج ! تبدو موضوعة وضعا ببساطة ، تكفي نقفة كي تتدحرج بعيدا . لكن ، لا ، لا نستطيع شيئا ! إنها مرتبطة بقوة بالأرض . لكن لا ! أنظر ! ليست سوى ظاهر .

وقطع التفكير بما يقول ، عليّ الدموع . وفكرت : « إنه الليل ، ولا يستطيع أحد أن يلومني غدا ما قلت الساعة ، وهي بعد ليست سوى كلمات أفلتت من النوم ! »

ثم قلت بصوت عال :

- نعم ، إن الأمر لكذلك . لكن عمّ نستطيع الكلام في الواقع ؟ ليس عن لون السماء ، طبعا ، مادمنا في أحشاء رواق . لكن لا ، كان بوسعنا أن نفعل ، أولسنا قطعا أحرارا بأقوالنا ، ما دمنا لا نلاحق أي هدف أو حقيقة ، إلا هدف وحقيقة المزاح وتسلية أنفسنا . . . لكن ألا تريد أن تروي لي مرّة أخرى حكاية المرأة في بستانها ؟ إنها امرأة رائعة ويالذكائها ! أليس في مكنتها أن تكون لنا المثل الدائم ! كم أحبّها وما أحسن حظي أني التقيت بك . لقد نعمت بلذة كبرى في الحديث عنك ، وتعلّمت أشياء ربما كنت أريد جهلها حتى الآن . إنني سعيد جداً ، سعيد جداً !

كان يبدو عليه هو أيضاً السرور فلم أملك أن أعفي نفسي من تقبيله بدوري ، مع أني تشقّ عليّ ملامسة الجسد الإنساني . وعندها تركنا رواقنا ودلفنا إلى الهواء الطلق . وشتّت صديقي بنفسه بعضا من غبار الغيوم فظهر لنا حقل النجوم على مداه . كان يمشي صديقي بصعوبة .

٤ ـ غرق البدين

وغدا كل شيء فجأة فريسة سرعة مجنونة وغرق في اللانهاية . وظهرت مياه النهـر، قبـل أن تنجرف إلى شلال ، وكأنها تتردد في البداية على الحرف المتفتّت ، قبل أن تنهار أخيرا في أمواج ضخام وأبخرة .

وأكره البدين عـلى قطع روايتـه ! والتفت . . . واختفى في صخب الشلّال .

لم يفتني ، من الشاطيء ، شيء من نهاية الوصلة . صحت : « ماذا تستطيع رئاتنا . إذا تنفست سريعا ، اختنقت من كونها ، بسمّها نفسه ! فإذا أبطأت في تنفسها ، اختنقت أيضاً بالتأكيد في جوّ العنصر الغضبي ، الخانق ! حتى إذا جهدت في استعادة وتيرتها الخاصة ، وجب عليها أن تهلك من هذه المحاولة ! »

في هذه الأثناء كانت ضفتا النهر تفرطان في تثاؤبهما ، وكنت ، مع ذلك ، أستطيع أن ألمس براحة يدي قضيب حديد علامة ارشاد ، صغيرة ، من مسافة ـ شيء ما فتيء أن بدا لي خفيًا ! ألم يكن بالواقع صغير الحجم ـ أصغر من العادة ؟ ألم تكن تتجاوز طولي ، كما لاحظت في الهنيهة السالفة عابرا ، جنبة ثمارها بيضاء ، تهتز في عنف ؟

خطأ ، كان ذراعاي ، في الواقع بطولها ، ولو أنهما أرشق من غيوم المطر العظيم . ولأي سبب عزما على تسطيح رأسي المسكين ؟

وهو لم يكن أكبر من بيضة نملة ، غير أن حادثا جعله يفقد استدارته . كنت أجعله يدور حول نفسه في التوسل ، لأن عيني كانتا من الصغر بحيث لا يرى تعبيرهما .

أما فخذاي ، فعلى العكس ، فخذاي المستحيلان كانا يمتدان على غابات الجبال ، التي تظلل وديانها وقراها . كانا يكبران ويكبران أيضا ! ولقد أخذا ينتصبان في المدى اللانهائي ، حيث لا يوجد أي منظر ، ولقد تجاوز منذ بعيد طولهما نظر عيني !

لكن لا ، ليس هذا . . . أنا في هذه اللحظة صغير ، رجل صغير جداً . . . أتدحرج . . . أتدحرج ، جرف في الجبل ! لطفا ، أيها العابرون ،

تفضلوا فقولوا لي ما هو طولي ، يكفيكم أن تقيسوا هذين الذراعين ، هذين الفخذين . . أرجوكم !

[٣]

صاح فجأة الصديق الجديد الذي غادرت معه السهرة : « ما هذا ، إلى أين وصلنا ؟ - كان يمشي حدّي هادئا على أحد دروب سان لوران . - هل ستتوقف قليلا ، كي أعرف أي شأن أنا فيه ! . . . ألا تعلم أني أريد أن أسوّي أمرا ما ! هذا منهك . . . هذا الليل البارد الممتلىء بالنجوم ، هذا الهواء النافذ الصبر الذي يبدو عليه أحيانا أنه يريد أن يبدّل أمكنة أشجار الأكاسيا .

كـان بيت حارس البستان ، يلقي في ضوء القمر ، على الطريق المحدّب قليلا في تلك الناحية ، ظلا موشحا بالثلج . وعندما رأيت المقعد القريب من الباب ، دللت عليه صديقي بالاشارة . لم أكن أبدا واثقا من نفسي ، وانتظرت اللّوم ، حتى لقد ، وضعت يدي على قلبي ، وكدت أتذرع ببراءتي .

لكنه قعد متعبا ، دون اعتبار لثيابه الجميلة . ورأيته ، في دهشة عظيمة ، يسند مرفقيه على خاصرتيه ويضع جبينه على أصابعه المتباعدة .

وبدأ يقول : « والآن ، أريد أن أبوح لك ! إعلم ، أن حياتي مستقيمة ، لا سبّة فيها . لا ينقصها شيء مما تقتضيه السمعة الحسنة . وأنك لتجد ما يكفي من البؤس في عالمي (كما لمست في سرور أنا ومن حولي !) ومن السعادة أيضاً ، وأقولها فيما بيننا ، أني أنعم بقسطي منها ! حسنا ، لكني لم أحب أبدا حبّا حقيقيا . وكان يحدث لي أن آسف لذلك ، وعدا عنه ، استعمل التعبير إذا وجدت الحاجة إليه . أمّا الآن . . ! يجب أن أهدئه ! نعم ، أنا عاشق ! نعم ، إني لأهتز حبّا ! وما أنا ، غير عاشق امتلأ نارا ، كما تحلم به الفتيات ! لكن أما كان ينبغي لي أن أفكر أن ما كان ينقصني من قبل هو الذي كان يمنح حياتي طابعا استثنائيا ومضحكا ، مضحكا إلى أبعد حد !

قلت له في لا مبالاة الأنانية : « هدواء ، هدواءا ! حبيبتك جميلة ، كما خيّل لي أني فهمت ؟

ـ آه ، نعم ، إنها جميلة ، أكيدا !

وكنت ، وأنا جالس حذّه ، ما أنفك أردد في نفسي : ياللجرأة ، أيها الطيب ! إنها لجسارة أن تلقي بنفسك في مثل هذه الرحلة ، وأن تشرب الخمر في أكواب دهاق ! لكنها لو ضحكت ، ما رأيت الأسنان التي كنت تنتظر وإنما فتحة فمها المقوّس المظلمة ! ولن يفيدها أن تلقي برأسها إلى وراء ، فهيئتها هيئة عجوز ومحتالة !

وقلت له وأنا أتنهد : « من ينكر ذلك ؟ لقد لاحظته ، هيّا ! إنه أمر واضح . ثم أليس فيها غير هذا !

يالبهاء الفتيات ! كم مرّة وأنا أرى أجسادكن الجميلة في مثل هذه الثياب المزّينة بالطيّات ، والكشاكش والشرّابات ، كم مرّة فكرت بقصر كل هذا الجمال ، وبلى أروابكن الذي لا مفرّ منه ، والغبار الكثيف الذي سوف يغطي ويلتصق بزخارفها ! كيف ندفع بالحزن بعيدا وبسخف ارتداء نفس الثوب الجميل كل صباح وخلعه كل مساء ؟ كم فتاة مع ذلك ـ فتيات جميلات ، فاتنات الصورة ، عظامهن رخصة وجلدهن مشدود برقّة وكتل شعورهن أثيرية ! ـ كم فتاة ، مع ذلك ، حكم عليها بهذا التمويه الأبدي وأن يجلسن كنموذج أمام نفس المرآة ونفس الوجه في نفس راحة اليد ! ثم في بعض المساءات النادرة فحسب ، ووقت متأخر ، يتمرين في مراياهن عند العودة من بعض حفلة فيجدن وجوها انتفخت وتجعدت ، وأن الثوب فيه ، مالا أدرك مما رآه الناس كثيرا حتى ليصعب ارتداؤه ! . . .

ـ لكن قل لي ! ليست هذه هي المرّة الأولى خلال هذه النزهة التي سألتك فيها أن كانت جميلة . وفي كل مرّة تشيح عنّي دون أن تجيب . ألديك نيّة سيئة ؟ لماذا لا تطمئنني ؟

أجبت ، بهيئة من يركزّ وقد أولجت قدمّي في الظلّ :

ـ وما يهمّك ، ما دامت تحبّك !

وضغطت على شفتي ، حين قلت ذاك ، كي لا أبرد ، محرمة زخرفتها عناقيد عنب أزرق .

والتفت إليّ ، وقد أسند وجهه العريض ، على مسند المقعد :

قال : « على كل حال ، لديّ متسع من الوقت ، أليس كذلك ؟ أستطيع دائماً أن أنهي سريعا ، هذا الحبّ الوليد ، بالغدر أو الخيانة أو الرحيل إلى بلد بعيد . الحقيقة ، أني أتردد دائماً : هل يجب أن أسلم نفسي للحماس ؟ في مثل هذا المجال ، الريب هو كل شيء ، وليس بوسع امرىء أن يدلك عن يقين ، أين نذهب أو متى ينتهي ! إذا ذهبت إلى الحانة بنيّة السكر ، أعرف ، أني ، هذا المساء سوف أسكر ، أما في حالتي ؟ أننا نعتزم القيام بنزهة في الأسبوع القادم مع بعض الأصدقاء ، وهو أمر يغوص له قلبك في العاصفة ، خلال خمسة عشر يوما ! إن قبل هذا المساء تمنحني الرغبة في النوم كي أفسح المجال لأحلام جامحة ، أحاول أن أقاومها بنزهة ليليّة . لكنّ الهياج يجتاحني ، فوجهي تارة يكويني ، وتارة يحرقني كما لو ساطته الريح ، ولا تستطيع أصابعي ، في عمق جيبي أن تنفصل عن قصاصة من شريط وردتي ، وأنا أعاني أغرب المخاوف دون أن أستطيع الاستسلام لأيّ منها . . . حتى أنت ، الذي أحتمل ، ياسيدي ، أنا الذي لا أطيق عادة أن أحادثك كل هذه المدّة !

وأحسست ببرد شديد ، والفجر كان يبيضّ في أسفل أقرب سماء .

وخلصت إلى القول وعلى شفتي ، فضلا عن ذلك ـ ابتسامة :

ـ إن الغدر لا يسوّي أمرا ، بالمناسبة ، ولا الخيانة أو الرحيل إلى بلد بعيد . . . إذن ؟ لا يبقى لك سوى أن تقتل نفسك !

كانت تقوم قبالتنا ، جنبتان ، من ناحية الممرّ الأخرى ، ووراءها في الأسفل ، كانت المدينة . وما زالت تلمع فيها بعض الأنوار .

صاح وهو يضرب بقوة المقعد بقبضته الصغيرة التي لم يرفعها عنه : « حسنا ، حسنا ! لكنك تعيش مع ذلك ! إن أحدا لا يحبّك ، ولا تصل لشيء أبداً ، ولست سيّد اللحظة المقبلة ! وتجروء على أن تقول لي ذلك ، أيها الشخص النحس ! أنك لست أهلا لأن تحبّ ، ولا يثيرك شيء ، إلا الخوف ! هيّا ، أنظر قليلا إلى صدري !

وفتح بحركة سريعة سترته ، وصدريته وقميصه : آه ، ياللصدر الجميل العريض !

قلت : « نعم ، من الذي لا يتعرّض للحظات الضيق ؟ أنا ، مثلا ،

هاك ! وجدتني هذا الصيف ، في العطلة ، على شاطيء نهر . وأذكر كل شيء بالضبط . كان يحدث أن أتربّع ، على عادتي ، على مقعد إلى جانب الكازينو ، الذي تأتيني منه أحيانا نغمات كمنجة . وكان في البستان ، شباب أقوياء يتحدثون في الصيد والمغامرات أمام كأس من الجعة . وهناك ، في الناحية الأخرى من النهر ، تبدو الجبال غيوما . . .

ونهضت ، وقد التوى فمي تعبا ، وتقدمت على العشب الأخضر وراء المقعد ، فانقصفت لدي مروري بعض الغصينات المغطاة بالثلج .

قلت في أذنه : « أنا خاطب ، صدقني ».

أجابني دون أن يعجب من رؤيتي واقفا : « أنت خاطب ؟ »

كان جالسا هناك ، في غاية الضعف ، لا يدعمه غير مسند المقعد . ورفع قبعته فرأيت شعره وقد مشطه وعطرّه بعناية ، وفوق النقرة الخط المنحني الواضح الذي يفصل استدارة الرأس عن بياض العنق ، حسب مودة ذاك الشتاء .

وهنأتني أني أجبته بما يليق . وقلت في نفسي : « نعم ، نعم بأية فطرة وأي يسر يتحرك من انسان لآخر ، عندما يكون في المجتمع ! إنه يعرف كيف يرافق السيدات عبر الصالون وكيف يحدثهن في بهجة . لكن شيئا لا يثير العاشق تحت مطر الشارع وهو يرتجف على العتبة ، أو أمام أي منظر حزين ! لا إنه يستمر ، إنه يستمر في دور الواله ـ مع ذلك ها هو ! »

ومسح جبينه بمحرمة باتيستة .

قال : « أرجوك ، تلطّف وضع ثانية يدك على جبيني ، من فضلك ! »

وأمام ترددي ، ضمّ يديه .

وكما لو أن مشاغلنا أظلمت كل شيء ، كنّا في أعلى ذلك الجبل ، كما في غرفة مغلقة (ولقد شهدنا نور وصبا الفجر !) وكنا ، بالرغم من قلة الودّ التي يكنّها أحدنا للآخر ، نرتبط معا فلا منجاة ، لأن الجدران حولنا رفعتها يد واثقة وقوية ! غير أننا بقينا أحرارا في جعل أنفسنا سخرية وأن نتصرف دون كرامة . وماذا يجعلنا نخجل تجاه الأغصان فوق رؤوسنا وقدّام الأشجار التي أمامنا ؟ واستل صديقي من جيبه ، في هدوء عظيم سكينه ، وفتحها وهو ذاهل ،

وأغمدها وكأنه يلعب ، في ذراعه ، وتركها فيه ! وسال الدم حالا ، ورأيت وجنتيه المدوّرتين تشحبان . انتزعت السكين فقطعت ذراع المعطف والفراك ، ومزّقت ذراع القميص ، ثم نزلت راكضا ، وصعدت الطريق مسافة قصيرة ، آملا أن أجد نجدة . كانت أغصان الأشجار بلا حراك ، في وضوح يكاد يعمي . مصصت قليلا الجرح الذي كان عميقا ، وتذكرّت بيت الحارس ، صعدت ، وما زلت أعدو ، الدرجات التي تؤدي إلى النطاق المعشب في جهة البيت اليسرى . وفحصت ، على عجل الأبواب والنوافذ ، وقرعت الجرس مغضبا وأنا أخبط بقدمّي - بالرغم من أني رأيت من النظرة الأولى أن البيت غير مسكون ! ثم رجعت أفحص الجرح . كان يجري منه خيط رقيق من دم ، وبللت محرمة صديقي في الثلج وضمدت برعونة ذراعه .

قلت له : « يا عزيزي ، يا عزيزي جدا ، جرحت نفسك حبّا بي ! مع أنك تحسد على قدرك ، فالعناية ترعاك ، وبوسعك أن تتنزه علنا ، عندما نستطيع أن نرى بعيدا ، بين الطاولات ، على دروب الهضاب وحولها العديد من المتنزهين في ثياب العيد ! سوف ترى ، أننا سوف نذهب ، في الربيع ، إلى الحرش ، لا ، ليس نحن للأسف ! بل آنيت وأنت ، أولئك هما الذين سوف يذهبان في عدو مرح ! بلى ، بلى ! صدقني ! وتحت الشمس المنيرة ، سوف تكونان محط أنظار الجميع ! أوه ! سوف تعزف الموسيقى ، ويتردّد في البعيد عدو الخيل ! إلى الشيطان الهموم ! لن توجد هناك غير صيحات الفرح ، وألحان الأرغن الغجري !

قال وهو ينهض : « آه ! ياإلهي ! - واستند عليّ ، فذهبنا - لا فائدة ترجى ! لن أجني منه أي فرح ! سامحني ! هل تأخرنا ؟ ألا يجب أن أفعل شيئا غدا من أجل ذراعي ؟ آه ! ياإلهي !

كان قنديل يشتعل عاليا ، وينيم جذوع الأشجار على ثلج الطريق الأبيض ، وظلال الأغصان تمتدّ على المنحدر . . .

تأملات

إلى م.ب

طفولات

كانت العجلات تجري أمام مصبّعة[1] البستان ! وكنت أسمعها وفي بعض الفترات ألمحها من فجوات ما بين الأوراق وقد اهتزت بلطف . ولكم كان يطقطق خشب المحور والعريش في قلب الصيف هذا ! ومياومين يمرّون ، في عودتهم من الحقول ، وهم يضحكون بلا حياء . . .

ولقد كنت أغفو في ظل أشجار البستان الأبوي على أرجوحتنا .

كانت الضجّة لا تتوقف أمام المصبّعة : أطفال في ركض مجنون ، عربات قمح ، ورجال ونساء يجلسون على الحزم ، فتغوص إلى لحظة في الظلّ الأجمات والأزهار . وكان يمرّ أحيانا عند المساء سيّد تسلحّ بعصا ، في خطى محسوبة ! وتسير على نفس الطريق فتاتان أو ثلاث وقد تشابكن ، فكن يتراجعن حتى العشب الذي على حافة الطريق ، كي يحيينه . ثم يهبّ طيران طيور كحزمة شرارات . كنت أراها تعلو بسحبة ـ حتى لأظنّ أنها كفّت عن أن تعلو ، وأنّي أنا

(١) حاجز مشبّك

نفسي أسقط ! وكان يخور قلبي ، فأتماسك بالحبال ، وأثير هزّة خفيفة . حتى إذا اعتدل الهواء ، وظهر بدلاً عن طيران الطيور ، بريق النجوم الراجفة ، سارعت حركتي .

كانوا يجعلوني أتعشّى على ضوء الشمعة ! وكنت أشرع بأكل شطيرتي ومرفقاي على المائدة ، وفي غالب الأحيان متعب الهيئة . وكانت الستائر تنتفخ تحت الصبا الناعمة ، وكان يضطر عابر الطريق أن يمسك بها إذا شاء أن يراني أو يكلّمني . وكانت الشمعة تنطفىء عادة ، فيتابع البعوض إلى أجل دورته في الدخان الخارج منها . فإذا سألني أحد من الشباك ، نظرت إلى من يكلمني كما أتأمل جبلاً أو أنظر ببساطة إلى الجوّ ! أما جوابي لمن يدعوني فلم يكن أبداً أكثر أهمية !

أما إذا قفز صاحب لي من الشبّاك كي ينبئني أن الآخرين موجودون ـ وجدتني وليس لي غير أن أنهض بعد أن أتنهّد قليلاً !

ـ لا ، لكن لماذا هذه التنهّدة ؟ ما الذي حدث ؟ مصيبة كبرى ؟ لا علاج لها ؟ ألا نستطيع أبداً أن نبلّ منها ؟ هل فقد كل شيء حقّاً ؟

لا ، لم نفقد كل شيء ، وكنا نركض حتى الطريق .

ـ شكرا لله ، هانتذا أخيراً !
ـ أنت الذي تتأخر دائماً .
ـ كيف أنا ؟
ـ نعم أنت ، أنت بالضبط ! إبق إذن في بيتك إن لم تكن تريد المجيء .
ـ يكفيك تعطّفاً !
ـ ماذا ، يكفيك تعطّفاً ؟ أهذه طريقة للحديث ؟

وكنا نوغل في المساء وقد خفضنا رؤوسنا . في النهار ، في الليل ، ما كنا نهتم بالوقت ! وكانت أحياناً أزرار صدارينا تتلاطم كأسنان ، وكنا نركض أحيانا وقد جعلنا بيننا نفس المسافة ، وأفواهنا لاهبة ، مثل حيوانات استوائية . كنا نكدف ، وقد تقوست قاماتنا ، مثل فرسان العصور ، ونحن ننحدر على النهج القصير وبعضنا يصطدم ببعض حتى يجعلنا اندفاعنا نصعد جزءاً غير يسير من المنحدر المقابل . وكان بعض المنعزلين يقفزون في الحفرة ، لكنهم ما أن يختفون

في ظلام التلعة ، حتى يظهروا في أعلى الطريق الذي على حافة الحقول فيحدقون إلينا كأنهم مجهولون .

- انزلوا قليلاً !
- اصعدوا أوّلاً !
- كي ترمونا أرضاً ، لسنا جدّ أغبياء !
- خوّافين ، تريدون أن تقولوا ! تعالوا قليلاً !
- نتحداكم ! أنتم الذين تريدون أن ترمونا أرضاً ؟ أظهروا أنفسكم إذن !

وكنا نندفع إلى الهجوم ، فتمدّدنا على عشب الحفرة ، لكمة في الصدر ، وليس رغماً عنّا بقدر ما هو برغبتنا . وكانت تسود على العشب حرارة متساوية ، فما كنا نحسّ فيه بالحرارة اكثر من البرد ! وكانت تهيمن علينا الرخاوة .

فإذا التفتنا للجهة اليمنى ، واليد تحت الخدّ ، ادركنا النوم باختيارنا ! أما إذا نهضنا ، وقد مددنا الذقن ببطولة ، فإنما على أمل السقوط في حفرة أعمق . . . ومن أجل أن ننقضّ قُدُماً ، وقد امتدّ ذراعنا مائلاً ، وانثنت أفخاذنا نصف انثناءة ، فنسقط مرّة أخرى في حفرة أعمق - وهذا كله دون نهاية ولا انقطاع !

لكن في الحفرة النهائية ، كيف نضطجع وننام أخيراً ، وقد تمددنا بطولنا ، وبخاصة الركب - كيف فكرنا بها ؟ كنا نبقى كمريض على الظهر وعلى أهبة البكاء ، وفيما تطرف عيوننا ، تقفز فوقك ، بغتة نعلا رفيق لك سوداوان ، وهو يمرّ ومرفقاه على جانبيه !

كان القمر عالياً ، وقد مرّ ساعي البريد . وارتفعت صباً ناعمة، أحسسنا بها حتى في الحفرة . وبدأت الغابة تضجّ . وما كان من أحد يريد البقاء وحيداً .

- أين أنتم ؟ تعالوا ! اجتماع ! ماذا تخبىء ؟ لا تكن غبيّاً ! ألا تعرف أن ساعي الليل قد مرّ ؟
- غير ممكن !
- طبعاً ، عندما كنت نائماً !
- أنا نائم ؟ هراء !
- هراء ! يكفي النظر إليك !

ـ يكفي هذا ، هه !

ـ هيّا ، هيّا ، تعالوا !

وكنا نركض ، اكثر مما الساعة الفائتة ، وقد تراصفنا واحد حدّ الآخر ؛ كان بعض يمسك بيد بعض ، وما كنا نستطيع أن نرتدّ برؤ وسنا إلى وراء ، فقد كان الإنحدار شديداً ! وكان أحدنا من وقت لآخر ، يطلق صيحة هندي أحمر ـ فيما كنا نجري بأقصى سرعتنا ، وترفعنا الريح على أقل قفزة وهي تمسك بأوراكنا ! وما كان يستطيع أن يوقفنا شيء ؛ ولقد كان اندفاعنا على درجة نستطيع معها إذا سبق أحدنا الآخر أن نشابك أذرعنا وننظر بهدوء إلى وراء . وكنّا نتوقف عند جسر السيل ؛ وكان يرجع من ركض بعيداً . وكان الماء ، تحتنا يضرب الحجارة والشجر ، كأن الوقت لم يكن متأخراً جدّاً . لماذا لم يقفز أحد عن الدرابزين ؟

وانبثق ، في البعيد ، قطار من وراء الأحراش الصغيرة ، كل مقاصيره مضاءة ، وزجاجها مغلق حتماً . وكان أحدنا ينشد لحناً شعبيّاً نردّده معه كجوقة ، ونغني أسرع من مسيرة القطار ، ونؤرجح أذرعنا ، دون أن نكتفي بالصوت . وكان يتدّ عن حلوقنا صخب نرتاح له . عندما تمزج صوتك بأصوات أخرى ، تغدو كأنك علقتك سنّارة .

وهكذا كنا نغنّي وظهرنا إلى الغابة ، في آذان المسافرين البعيدين . وكان كبار السنّ ما زالوا يسهرون في القرية ، والأمهات تهيء السرر للّيل . كانت تلك هي الساعة ! قبّلت أقرب رفيق إليّ . أما للثلاثة التالين ، فقد اكتفيت بمدّ يدٍ مهملة وصعدت الطريق وأنا أركض دون أن يستدعيني أحد . عند أوّل تقاطع طرق ، حين كان لا يستطيع أن يراني أحد ، اتجهت عبر الحقول وبلغت الغابة . كنت أود الوصول إلى مدينة الجنوب التي يقولون عنها في قريتنا :

ـ هناك يعيش ناس ـ فكرّوا إذن ـ لاينامون أبداً !

ـ ولم هذا ؟

ـ لأنهم لا يتعبون أبداً .

ـ ولم هذا ؟

ـ لأنهم مجانين .

ـ المجانين لا يتعبون إذن أبداً ؟

ـ كيف يمكن أن يتعب المجانين !

مفضوح !

توصلت أخيراً ، برفقة ذلك الرجل ، الذي عرفته لماماً في السابق ، بعد أن تعلّق بي ، فجأة ، ذاك المساء ، وجعلني أضرب معه ساعتين في النهج ـ توصلت حوالي العاشرة إلى البيت الجميل الذي دعيت إليه .

قلت له وأنا أصفّق بيدي مشيراً إليه بضرورة افتراقنا : « وصلنا ! »

وكنت قبل ذلك قد قمت بعدة محاولات أقلّ عزماً . كنت منهكاً .

سألني : « ستصعد حالاً ؟ »

وسمعت في فمه نوعاً من اصطفاق الأسنان .

ـ طبعاً !

ما دمت مدعوّاً ـ كما نبهته عن ذلك للتوّ ! ولقد كنت مدعواً للصعود (وكم كنت أتمنى لو أنّي فعلت من قبل !) لا للمراوحة أمام الباب دون أن أنتبه لرفيقي . وفضلا عن ذلك ! أن أظلّ أخرس إلى جانبه ، كمن حزم أمره على إقامة طويلة في هذا المكان ! وأكثر من هذا ، أن ساهمت رأساً كل البيوت التي حولنا في هذا الصمت ، ومن فوقها الظلمات ، حتى النجوم ! وخطى ما لا نرى من متنزهين ، ومن لا نهتم بحزر اتجاههم ، والهواء الذي تسلّط دون ونىً على جهة النهج الأخرى ، وفونوغراف بحّ صوته على درفات مغلقة ، لما لا أدري من غرفة. . . . كان كل شيء يتجاوب في هذا الصمت كأنه ملك أو وجب أن يكون ملك الظلمات .

وخضع حارسي بدوره لها ، واستجاب لابتسامتي بابتسامة . ومدّ ذراعه اليمنى على الحائط ، وعيناه مغمضتان، واسند عليه وجهه .

لكني لم أرَ نهاية هذه الإبتسامة ، فقد حوّلت وجهي ، فجأة ، خجلاً . لقد فهمت أخيراً من هذه الابتسامة ، أني أتعامل مع ممالق ، لا أكثر !

وأنا الذي أعيش في هذه المدينة منذ شهور وشهور وأظن أني أعرف عن عمق كل الأشخاص ! ألم أرَ ، أولئك الناس مائة مرّة يخرجون ليلاً من النهج الصغيرة ، كي يجيئوا إلينا ، وايديهم ممدودة ، على طريقة الفندقيين ؟ وينزلقون كما في لعبة التخبئة وراء أعمدة موريس ، حيث توقفنا ، فيتلصصون علينا ، ولو

أنّه بعين واحدة ؟ ألم أرهم على مفارق الطرق ، حين ينتابنا الخوف ، يحومون بغتة أمامنا على حافة الرصيف ؟ كنت أفهمهم جيّداً ! ألم يكونوا ، في البارات ، أول تجربة لي مع مجتمع المدينة الكبيرة ؟ أولست مديناً لهم بأول اتصالاتي في عناد لو أني أعانيه الآن لما أستطعت التصوّر أنه يغيب عن الأرض ! آه ! يالطريقتهم في الوقوف أمامنا ، حتى ولوكنّا تملّصنا منهم من زمن طويل ، وعندها ، نكون ، إذا استطعت القول ، وليس لدينا منذ بعيد ، ما هو أهل للممالقة ! إنهم في بعدهم عن السقوط من أوجهم، في بعدهم عن الأنهيار ، يرمقونك بعين ساحرة ! دائماً نفس الأساليب : ينتصبون أمامنا بكل عرض أكتافهم ، وقد خططوا لتحويلك عن هدفك ووعدوك بديلاً عنه بملاذٍ خالد في قلوبهم ! حتّى إذا شببنا ، بدافع البغضاء ، خالوا أننا نفتح لهم أذرعتنا فألقوا بأنفسهم إليهم وأوّلاً رؤ وسهم .

هذه الأحابيل القديمة ، لم أشخّصها هذه المرّة إلّا بعد حديث طويل - ولقد فركت بشدّة أطراف أصابعي ، بعضاً على بعض ، كي أزيل خجلي .

ما زال رجلنا هنا ، يستند إلى الحائط ، وقد حسب نفسه ممالقاً حقيقيّاً ، وقد لوّنت بالرضى خدّه الطليق ، فكرته أنه ولد ممتلئاً دهاءً .

قلت له وأنا أربّت على كتفه : « أنت مفضوح ! » ثم صعدت الدرج سريعاً ، وفي الأعلى سرّتني وجوه الخدم الغريبي الإخلاص كما أسرّ بمفاجأة حلوة . وتفرّست بهم بالدّور وهم يخلعون عني معطفي ويمسحون لي حذائي . وانتصبت مستقيماً في تنهدة راحة ، ثم دخلت إلى قاعة الاستقبال .

نزهة مرتجلة

عندما يجيء المساء ، وتبدو أنك عزفت نهائيّاً عن الخروج ،

عندما تكون ارتديت مبذلك ،

عندما تكون جلست ، بعد العشاء ، إلى الطاولة المضاءة كي تنصرف لهذا العمل أو تلك اللعبة ، وبعدها تنام كما جرت العادة ،

عندما يكون الطقس فظيعاً في الخارج ، فما من سبيل إلا أن تقبع في بيتك ،

عندما تجلس ، فضلاً عن ذلك ، مدة طويلة ، كي لا تثير دهشة الناس جميعاً إذا خرجت ،

عندما يغرق مهبط الدرج في الظلمة ، ويوضع الرتاج على باب المدخل ،

عندما تنهض، آنئذ، بالرغم من كل شيء، في إحساس عنيف بالضيق، فتبدّل سترتك ، وتظهر حالاً في ثياب المدنية ، وأنت تعلن - وهو ما نصنع بعد وداع قصير- أنك مضطر للخروج ،

وقد تخيّلت تبعاً للعجلة التي صفقت بها الباب ، أنك أدرت ظهرك لقليل أو كثير من السخط ،

عندما تجدك في الشارع وفي أعضائك مرونة خاصة تستجيب إلى ما منحته من حرية لم تكن تأمل بها ،

عندما تحسّ أن قد اجتمع في هذا القرار كل طاقتك على التقرير ،

عندما تدرك أنك تضفي على نفسك أهمية اشدّ ممّا في الزمن العادي ، وأنك أكثر قوّة مما يقتضيه القيام بهذا التبّدل المتسارع وفي سهولة هي نفس سهولة احتماله ،

- عندها تكون قطعت نهائياً ، وطيلة السهرة ، مع عائلتك ، التي تدلج في العدم ، نتيجة لهذا الانقلاب ، وتستغل الحالين ، فتصل أنت ، في وضوح باهر ، إلى عظمتك الحقيقية .

وتكون هذه العظمة أعظم ، عندما تزور صديقاً ، في هذه الساعة المتأخرة ليلاً ، كي تسأل عن أخباره !

قرارات

إن زعزعة الركود ، ينبغي ألا تكون بالغة الصعوبة ، حتى ولو لم يتعلق الأمر إلا بالقدرة على القيادة . أنتزع نفسي من الكنبة ، واندفع حول طاولتي ، أدور برأسي وعنقي في كل الجهات ، وقد توقّدت عيني ، وتوتّرت عضلات وجهي ! أتنكر لكل شعور وأحيّي أ. مهتاجاً إذا أعلن عن قدومه ، واحتمل وجود ب. في صداقة ، وأتذوق طويلاً أقل كلمة من جـ . بالرغم مما تكلفني !

لكنّ أدنى غلطة (والغلط كثير !) تفسد نهائياً كل سهولة وكل صعوبة ، حتى ليجب أن تراجع القهقري كل الطريق التي قطعت ! أليست أحسن نصيحة عندئذ هي الخضوع ، والإستسلام الكثيف ، وأن تعاني شعوراً بأنك حبّة رمل في العاصفة ! وألا تدع نفسك تجرّ إلى القيام بأية خطوة ، وأن تنظر إلى محادثك بهيئة مائتة ، وبألا تحسّ بأي ندم ، وبالأختصار ، أن تهدم بيدك نفسها ما بات لا يعدو شبح حياة ؟

لكنّك ألا تزيد آنئذ بصمت القبر فلا تدع بقاءً لسواه ؟

في هذه الحالات ، حكّ الحاجب بالأصبع الصغيرة له معناه .

بؤس العزوبة

ما أمرّ أن تبقى عازباً ،

أن تلتمس دعوة ، وأن تنقذ ، بنفس الوقت ، كرامة الشيخ ، منذ أن تعزف عن السهرة وحيداً ،

أن تكون مريضاً ، وحدك ، خلال أسابيع ، وأن تتأمل من قلب سريرك الغرفة القفر ،

أن تقول دائماً ، وداعاً أمام باب الدخول ،

ألا تصعد أبداً الدرج الذي يضيق بامرأتك وبك ،

أن تسكن غرفة لا يتصل باب اليمين وباب اليسار فيها إلا بشقق الغرباء ،

أن ترجع مساءً وعشاؤك في يدك ،

أن تُعجب بأبناء الآخرين دون أن تستطيع إلا قولاً وحيداً : « ليس لي ابناء ! »

أن تقتفي مشيتك ولباسك أثر واحد أو اثنين من رفاق الشباب !

وإليك ما سوف يتمّ ، باستثناء أن هذا القدر ، سيكون قدرك ، سيكون أنت ، غدا كما هو شأن اليوم برأس وجسم حقيقيين ، وبالتالي جبين كي تضربه بيدك !

في التجارة

من الممكن أن أوحي ببعض الشفقة ، لولا أني لا أدرك الأثر . مخزني الصغير يسبب لي الهموم والصداع . دون أمل في التعويض ، لأنّه ليس سوى مخزن صغير .

يجب علي أن أحدّد إمكاناتي قبل ساعات . وأن أشحذ ذاكرة القيّم ، وأن أسهر في قلق من الأنوار، فاتنبّأ من فصل لفصل عن المودات القادمة، وليست تلك التي تعني زبائني العاديين ، وأنما زبائن الأرياف البعيدة التي يتعذّر الوصول إليها !

الغرباء يمسكون بمالي ، ولا أستطيع أن أعرف يقنياً إذا كان وضعهم مليئاً ، وليست عندي أية فكرة عمّا يمكن أن ينزل بهم من مصائب ؛ أو كيف ندرؤ ها آنئذ ؟ ألا يمكن أنهم بذخوا به فجأة أو أنهم يقيمون ، في هذه الساعة ، حفلة ما في جنينة فندق ، لآخرين ، توقفوا هنيهة فيه ، في سبيل فرارهم ، إلى أمريكا ؟

كل مساء ، عندما أغلق الدكّان . أجدني في مواجهة الساعات الطويلة التي لا تتنازعني فيها آلاف متطلّبات التجارة ـ يقتحمني قلق مكبوت منذ الصباح ، كبحر يرتدّ ، ولا طاقة لي على مقاومة موجه الذي يدحرجني هنا وهناك !

لا شيء أنتظر من هذه الحال ، فأنا لا أستطيع العودة للبيت ، إلا وقد اتسخ وجهي ويداي ، وقد تعرّقت ، وثيابي ملطّخة غبراء ، وعلى رأسي الكاسكيت التجارية . وعلى حذائي سحجات زوايا الصناديق . أمشي عندئذ كمن يمشي على موج ، واطقطق أصابعي أو أمرّ بيدي على شعر الأطفال الذين ألتقي بهم .

لكنّ الطريق ليست طويلة . ها قد أُرجعت[1]! فتحت باب المصعد وحللت فيه .

بتّ الآن وحيداً وانتبهت فجأة لهذا الأمر ! إن بعض الآخرين الذين يجب

---

(1) يعني بذلك ان قوة ما أرجفته .

عليهم أن يصعدوا أدراجاً طويلة على أقدامهم يتتابهم بعض التعب من هذه الممارسة ، ولا بدّ لهم من أن ينتظروا لاهثين حتى يفتح لهم ، ويتذرعون بذلك سبباً يغضبهم ويعيل صبرهم ! يدخلون أوّلا إلى المدخل ، فيعلقون قبعاتهم . ولا يلجون غرفهم إلّا بعد أن يعبروا الرّواق ويمرّوا أمام عدة أبواب زجاجية ، عندها يجدون أنفسهم أخيراً وحيدين .

أمّا أنا ، فما أن أغدو في المصعد ، وتنضغط ركبتاي ، وعيناي في المرآة الضيّقة ، حتى أجدني وحيداً . ويرتجّ المصعد فأصيح :

« اخرسوا ، اذهبوا إلى الشيطان ! خبئوا أنفسكم في ظل الأشجار ، وراء ستائر النوافذ ، في قبة أوراق الشجر ! »

وأتكلم هكذا من أسناني ، فيما ينزلق دربزين الدرج على طول الزجاج اللبني كماء شلّال .

« طيروا ! ولتحملكم اجنحتكم التي لا ترى إلى وادي طفولتكم ، أو إلى هناك ، صوب باريس ، إذا سرّكم ذاك !

« تمتعوا برؤ ية نوافذكم ، عندما تصبّ أمواج العابرين من ثلاثة الشوارع دفعة واحدة ، دون أن يجانب بعضهم بعضاً ، بل يختلطون ولا يدعون مسافة إلا بين صفوفهم الأخيرة . حرّكوا محارمكم ، إسمحوا بأن ترتعبوا ، اسمحوا بأن تتأثروا ، صفقوا للسيّدة الجميلة التي تمرّ بعربتها !

اعبروا جسر الخشب على الساقية ، أومئوا بإشارة صداقة إلى الأطفال الذين يسبحون، أعيروا أذنا معجبة لآلاف هتافات التجارة على الطرّاد البعيد !

« لاحقوا الإنسان المتواضع المظهر فحسب حتى إذا حاصرتموه تحت سقيفة ما ، سلبّوه ، وانظروا إليه ، وأيديكم في جيوبكم ، وهو ينعطف حزيناً عند أوّل زاوية إلى اليسار !

الحرس ، وهم يلهون ، على خيلهم في نظام مبعثر ، يهيمنون على مطاياهم ويطاردونكم . تراجعوا ، فالشوارع الخالية تشجيهم دون حساب ، هذا شيء معروف ! هاهم اولاء يختفون في بطء اثنين اثنين عند زوايا الشوارع بعد أن أحرقوا على الساحات القوائم الأربع ! »

تلك اللحظة وقف المصعد ، فأرجعته ، ولم يبق لديّ غير التفكير ببابي .
جاءت الخادمة وفتحت وقلت لها مساء الخير .

نظرات شاردة في النافذة

ما سوف نفعل في أيام ربيع يقترب عجلان الخطى ؟ كانت السماء قاتمة هذا الصباح ، غير أن المرء يستغرب الآن عبر النافذة ، ويضغط خدّه على الزجاج .

في الشارع تنير الشمس الغاربة وجه الصغيرة التي تمرّ وترجع ... ويرى ، وراءها في نفس الوقت ، ظل رَجلٍ يحث الخطى .

ثم مرّ الرجل ، ومن جديد الوجه الطفولي ، كبقعة من ضياء !

العودة إلى البيت

كم من اليقين يحمل لك الهواء بعد العاصفة ! وتتكدّس مزاياي أمام عينيّ ، وتملي نفسها في عنف ، بالقدر الذي يستجيب به القلب !

أمشي وإيقاع خطاي ، هو إيقاع هذه الجهة من النهج نفسه ، إيقاع النهج كلّه ، إيقاع هذا الحيّ . والحقّ أني مسؤول عن كل الضربات التي قرعت بها الأبواب ، ووجوه الطاولات ، مسؤول عن كلّ انخاب الشاربين ، عن العشاق في مخادعهم ، وتحت صقالات العمارات وهي تبنى ، ومن تعانق منهم على جدران النهج المظلمة ، وعلى قطائف المواخير!

إني أزن ماضيّ بوزن مستقبلي وأجد كليهما كاملاً ، فلا أستطيع أن أفضّل أيّاً منهما على الآخر . ولا يبقى لي غير أن أنحي باللائمة على ظلم العناية التي تحابيني إلى هذا الحدّ .

وأنا عندما أعود إلى غرفتي فحسب ، استطيع النفاذ إلى ذاتي ، من غير أن أجد الدافع لذلك وأنا أصعد الدرج ! ما أتفه عزاءك حين تفتح النافذة على مصراعيها فتسمع الموسيقى في قلب البستان !

ملاحقات

عندما تسير ليلاً في النهج ، ترى أحياناً من بعيد رجلاً يعدو إليك ، لأن

النهج منحدر ، والقمر بدر . ونحن لا نقوم بأية بادرة ، حتى ولو كان هزيلاً رثيث الثياب ! أو هل نرى إن كان هناك من يلاحقه صائحاً ـ لا ، إننا ندعه لركضه . إنه الليل ، أليس كذلك ؟ وماذا نستطيع أن نفعل إذا صعد النهج أمامنا ، في ضياء القمر ؟

ومن ثم ، هذا الجري ، ألا يمكن أن يقوم به المشاركان فيه للذتهما الخاصة ؟ ربما يطاردان معاً إنساناً ثالثاً ؟ ربما لوحق العدّاء الأول عن خطأ ؟ ربما كان الثاني قاتلاً ؟ ونحن قد نشارك في جريمة قتل ! ربما يجهل كلاهما الآخر ؟ هذا وبعد ، ربما كان يعدوكل منهما ، على حدة ، إلى سريره ؟ ألا يمكن أن يكونا مروبصين؟ ربما كان يحمل العدّاء الأول سلاحاً ؟

وأخيراً أليس لنا الحق في أن نتعب بعد كل ما شربنا هذا المساء ، من قناني ؟ . . . وها نحن اسلمنا أنفسنا إلى فرح الا نرى المُطارِدَ . . .

المسافر

في مكان الواقفين في القاطرة . حائر أبداً في وضعي على هذه الأرض ، وفي المدينة ، وبين عائلتي . وأنا غير قادر إطلاقاً على القول إلى أي قانون استند شرعيّاً . كنت عاجزا عن تبرير وجودي في ذاك المكان ، ويدي على ذاك المقبض ، وسفري في تلك العجلة ـ وبنفس الوقت يرتاح العابرون أمام الواجهات ، انتبهوا أم لم ينتبهوا للتراموای . . . إن أحدا ، والحق ، لا يسألني ، لكن ما يهمّ !

قريباً من الموقف ، تقدّمت فتاة إلى باب الخروج . تبدّت لي في وضوح كأني أنا الذي سويتُها بيدي : تلبس السواد ، وخراطة ذات طيّات كأنها منشّاة ، وصداراً ضيقاً موشحاً بقبّة من الدانتيلا البيضاء الناعمة ، يدها اليسرى انبسطت على جدار العربة ، واسندت باليمنى مظلتّها على الدرجة العليا . سمراء الوجه ، أنفها مقروص قليلاً ، عريض رأسه ومدور ، شعرها داكن ، غزير جدّاً ، شعرها شعث قليلا فوق الصدغ الأيمن ؛ أذنها صغيرة ، حلوة السمة ، وبما أني كنت قريباً جدّاً ، رأيت أعلى صيوان الأذن اليمنى ، والظلّ عند اتصالها بالرأس .

أمن الممكن ألاّ تعجب لشأنها ، وتبقى ، مطبقة فمها ، فلا تقول ما تستجيب به لأفكاري ؟

البتّ

عندما ألتقي بفتاة جميلة وأقول لها :

ـ كوني لطيفة وتعالي معي ! فتمرّ دون أن تنبس بكلمة ، يجيب عنها صمتها :

« لست دوقاً رنّان الاسم ، ولست أمريكيا له كتفا هندي ، وعينان هادئتان بخطّ مستقيم ، وجلد لوحه هواء البراري والأنهار التي تعبرها ! لم تذهب إلى البحيرات الكبرى التي توجد لا أدري أين ! أنت لم تبحر على مياهها ! وتريد أن الحق بك ، أنا الفتاة التي على هذا الجمال؟

ـ أنت تنسبين أنك لست في سيارة تقلّك عبر النهج ، تتبخترين باذخة فيها ! ولا أرى السادة الذين في حاشيتك، وقد احتقنوا في ثيابهم ، ورافقوك وقد اصطفوا في نصف دائرة وهم في تمتمة البركات . عبثا بقاء نهديك عاقلين في صدارك ، فخذاك وردفاك يكافئانك عن كل هذا الوقار ! ترتدين خرّاطة تافتا مثّاة ، تصنع فرحنا جميعاً ، كما في الخريف الماضي ـ وبالرغم من هذا الخطر المميت على جسدك ، تبتسمين أحياناً!

ولخّص عنها صمتها الحديث : « نعم ، كلانا على حق ؛ لكننا أفضل لنا ، كي لا نقنع حتى لاة جدال ، أليس كذلك ؟ أن يرجع كل منا إلى بيته ، من جهته ! »

أفكار للسادة الجوكيين

لا شيء يبرّر ، إذا فكرّنا جيّداً ، الطموح بربح سباق خيل .

إن مجد أن تكون رسمياً أفضل خيّال في البلاد يمنحك ، في اللحظة التي تعزف فيها الأوركسترا ، فرحاً عظيماً لا تعمد معه إلى التوبة منذ صبيحة الغد .

إن حسد المنافسين (أناس غدّارون ويتمتعون ببعض الثقة !) لايفتأ أن يؤلمنا ، في اللحظة التي ـ ونحن خارجون من الساحة وقد أقفرت سريعاً ، إلا من بعض الخيّالة المجهدين الذين يرتسمون صغاراً في الأفق ـ نمرّ فيها من صفّ المعجبين المزدحم .

كثيرون هم الأصدقاء الذين يستعجلون في الذهاب لقبض ربحهم ؛ ولا

يصيحون لنا مرحي إلا من فوق أكتافهم ، من نوافذ لتذاكر البعيدة ! إن أفضل أصدقائنا لم يراهنوا ، طبعاً ، علينا ، لأنهم يخشون أن يلومونا إن خسرنا ، لكنهم منذ أن وصل حصاننا رابحاً ، ففقدواما لهم ، أشاحوا عنا حين مررنا وفضلوا النظر إلى المنصّات .

وبعد لأي ، يحاول المنافسون ، وقد ثبتوا على سروجهم ، تقييم مدى الخسائر والظلم الذي حاق بهم بطريقة أو أخرى ، فيتخذون هيئة مرحة ، كما لو أن سباقاً آخر سوف يبدأ ، سباقاً حقيقيّاً أخيراً ! بعد لعبة الأطفال هذه .

والسيّدات يجدن الغالب عادة سخيفاً ، بهيئته كديك رومي ، فهو لا يدري ما يفعل بالتحيات الخالدة ، والمصافحة ، وانحناءات السلام من بعيد ، فيما يربّت المغلوبون ، مرحين ، وقد خاطوا أفواههم ، على أعناق خيلهم وهي ما تنفك عن الصهيل .

والخلاصة ، أن الجوّ أخذ يكفهّر كل لحظة وها قد بدأ ينزل المطر .

النافذة

من يعيش مهجوراً ويود مع ذلك أن تكون له بعض العلائق ،

الذي ، نظرا للتقلّبات التي تحدث في مختلف لحظات النهار : جوّ حلو أوسيء ، حوادث مهينة أو آلاف الوقائع الأخرى ، يشتهي أن يرى ببساطة ذراعاً ، ذراعاً مّا يتعلّق به ،

ـ هذا ، لا يستطيع أبديّاً ، أن يستغني عن نافذة على الشارع ! أما إذا وصل به الأمر إلى ألاّ يبحث عن شيء ، أمّا إذا بات وليس سوى إنسان متعب يقترب من النافذة كي يدع عينيه تضلّان بين السماء والشارع (لا ينتظر شيئاً ، رفع رأسه قليلاً إلى وراء) ،

ـ عندها ، هناك ، تحت ، تجرّه الخيل في مواكب العربات والضجيج حتى المصالحة النهائية مع بقيّة العالم .

الرغبة في أن أكون هندياً أحمر

لو أني هندي أحمر ، وأن اغدوه في هذه اللحظة ! وعلى الحصان حالاً ، في أوج عدوه ، أشق الهواء وقد انخفض الرأس ، أهتز دون ونىً هزات صغيرة

جافّة على الأرض المرتجة ، حتى انتزع المهماز ـ لأنه ، لاة مهماز أبداً ! ـ حتى أرمي العنان ـ لأنه ، لاة عنان أبداً ! ـ فلا أرى السهل إلاّ لماماً وهو يمتدّ ويفرّ أمامي كأرض حصدوها من قليل دون عنق حتى ولا رأس حصان

بؤس

كان يوماً من تشرين الثاني ، حوالى المساء . كل شيء كان يرعبني . وعلى البساط الصغير ، أخذت أعدو كما في ميدان سباق . لكني ، وقد خفت من منظر الشارع المضاء ، درت نصف دورة ، ووجدت لي هدفاً جديداً في المرآة التي في طرف الغرفة .

وأطلقت فجأة صيحة . وما ذلك إلا كي أسمع صيحة لا يجيب عليها شيء وهو ينتزع من قوّتها ، كما أنها ، بالمقابل ترتفع دون نهاية ، حتى بعد أن تصمت : في وسط الحائط ، انفتح الباب فجأة ـ لا بدّ من العجلة ! ـ وهناك ، تحت ، على الأسفلت ، تشبّ الخيول ، كما تفعل حين تجمح، وأعناقها في الهواء ، وقد احتدمت المعركة !

وانبثق طفل ، على صورة شبح صغير ، من عمق الممر المظلم ، وما زال من غير نور ، فوقف على رأس قدمه ، فوق لوح من الأرضية الخشبية لا يبين أنه مزعزع ! ويبهره نور الغرفة الضئيل ، فخبّأ وجهه بيديه ، ثم هدأ بغتة لما رأى الستائر التي تردّ إلى الليل بخار القناديل المضيء . وظل أمام الباب المفتوح ، وقد اتكأ مرفقه اليمين على الجدار ، وقد ترك مجرى الهواء يغمر جسده من القدمين حتى الصدغين .

وجازفت بنظرة ، وقلت له : « طاب يومك ! »، ثم ارتديت سترتي التي وضعت على حاجز الموقد كي لا أظلّ نصف لابس . وبقيت هنيهة فاغر الفم كي أطرد بذلك تأثّري ، وقد امتلأ فمي بلعاب سيّء، وارتجف جفناي . فما كان ينقصني غير هذه الزيارة ، التي كنت انتظرها على كل حال !

كان الطفل ما يزال في نفس المكان ، وقد اتكأت يده اليمنى على الحائط ، وخدّاه ملتهبان ، وهو لا يني يمرّ بيده على تضاريس الجبس . قلت له :

ـ حقاً كنت تريد أن تأتي إلى عندي ؟ ألم ترتكب خطأ . وليس أسهل منه في هذا البيت الكبير . أنا فلان ، أسكن في الثالث . هل أنا حقاً من تبحث عنه ؟

أجاب من فوق كتفه : « هدوءاً ، هدوءاً ! أنا لم أرتكب خطأ أبداً .

ـ تفضل إذن ، وتقدّم كي استطيع إغلاق الباب .

ـ لا تكلف نفسك هذه المشقّة ، فلقد أغلقته ! إهدأ !

ـ ليست مسألة عناء ! لكنما تسكن هذا الممر جماعة من الناس ، يعرف بعضهم بعضاً ، طبعاً ! وأكثرهم يرجع في هذا الوقت من عمله في الدكاكين ، فإذا سمعوا كلاماً في غرفة ، فتحوا الباب كي يروا ما يجري ، وهذا أمر أقوى منهم . إنهم هكذا ! لقد انتهى هؤلاء الناس من شغلهم اليومي فما يفعلون بحرية أمسياتهم المؤقتة ؟ وأنت تعرف هذا مثلي . دعني أغلق الباب !

ـ لكن ، ما بك ؟ ماذا ؟ بات بوسع البيت كله الدخول ، حبّاً بي ! ومن ثم ، أكرر لك : لقد أغلقت الباب ! هل تعتقد أنك وحدك ، قادر على هذاالأمر ؟ بل لقد درت دورة بالمفتاح !

ـ حسناً جدّاً إذن ! هذا كل ما كنت أريد . هذا وبعد ، ما كان ضرورياً أن تغلق بالمفتاح . وبما أنك هنا ، ارتح في مقامك ! أنت ضيفي . ثق بي كل الثقة . لا تخف أن تتصرف كما لو كنت في بيتك ! لن اكرهك على البقاء ، أو على الرحيل ، هل وجب أن أقول هذا ؟ هل معرفتك بي ضعيفة لهذا الحد ؟

ـ لا ، والحق ، أنك لم تكن بحاجة لقولك لي ما قلت . وأضيف ، أنك ما كان ينبغي لك أن تقوله . أنا طفل ، فلم كل هذه الكلفة ؟

ـ أنت تبالغ ! أنت طفل ، طبعاً ، لكنك لست صغيراً جدّاً . بتّ فتى ! لو أنك آنسة ، لما جاز لك أن تحبس نفسك معي !

ـ لا فائدة من اهتمامنا بذلك ! وأودّ أن أقول لك ببساطة أن معرفتي جيّداً لك ، لا تغني عني شيئاً ـ وهذا يعفيك فقط من جهد المبالغة بالأهمية . فاعزف عنه وعن المديح أيضاً ! أرجوك أعزف عنه ! يضاف إلى كل هذا أني لم أعرفك دائماً ولا من كل جهة . ويزيد في الطين بلّة ، هذا الظلام ! إنك تحسن صنيعاً إذا أتيت بالنور . . . لكن لا ! أفضلُ أن لا ؟ يجب أن أحفظ على كل حال أنك هدّدتني . . . !

ـ كيف ؟ هددتك ؟ آه ! أرجوك! أنا الذي نعمت أخيراً بأن أراك هنا ! أقول « أخيراً » لأن الوقت بات متأخرّاً جدّاً ! أنا لا أفهم لماذا تأخرّت إلى هذا

الحد . . . ربّما أكون تلعثمت في فرحي وأنك خلت أنه التهديد . . . أوافق عشر مرّات وواحدة أني تلعثمت . . . نعم ، نعم ، هددتك بكل ما تريد . . . لكن بخاصّة ، لا نتشاجرن في هذا الشأن ! حبّاً بالسماء ! . . . لكن كيف ، كيف استطعت أن تعتقد . . . ؟ كيف تـوجه لي مثل هذه الإهانة ؟ . . . لا ، لا ! . . . لماذا تريد بكل قوتك أن تفسد الفرح بحضورك القصير جدّاً ؟ . . . إن الغريب أشدّ ظرفاً منك !

ـ أكيداً ! لكن يا لها سذاجة ! ظريفاً كنت أم غير ظريف ، أي أجنبي بوسعه أن يكون أكثر قربا مني إليك بطبيعته ، وأنت تعرف ذلك جيّداً ! لماذا إذن كل هذه المرارة ؟ قل أنك تمثل كوميدية ، أنسحب في الحال !

ـ آه نعم ! وتجرؤ على أن تكلمني هكذا ؟ أن ينقصك الحياء إلى هذا الحد ! لكنّك أخيراً ، في غرفتي ! وعلى جداري تفرك أصابعك كنصف مجنون ! غرفتي ، جداري ! ومن ثم ، فإن كلماتك ليست وقحة فحسب ، وإنما بشعة ، أيضاً ! أنت تزعم أنك ملزم ، بطبيعتك بالكلام معي هكذا . والحق أن الطبيعة تضطر ! آه ، إنها لطيفة طبيعتك ! طبيعتك هي طبيعتي ، وإذا كنت بطبيعتي ، لطيفاً معك ، فقد وجبت عليك معاملتي بالمثل ، أليس كذلك ؟

ـ آه ، تلك المجاملات !
ـ إني أرجع إلى اللحظة السالفة !
ـ هل تعلم ما سوف أصبح فيها بعد ؟
ـ أبداً لا !

وأشعلت شمعة على طاولة الليل ـ في ذلك الوقت لم يكن لديّ في الغرفة لاغاز ولا كهرباء . وبقيت لحظة جالساً إلى طاولتي ـ ثم تعبت ، فارتديت معطفي ، وأخذت قبعتي عن الديوان وأطفأت الشمعة . وحين خرجت ، اصطدمت بقدم الكنبة .

التقيت على السلم بجار في الطابق .

قال لي وهو يستريح لحظة وقد تباعد فخذاه على درجتين : « أنت خارج أيضاً ؟ ياللخبيث ! »
قلت : « وما أفعل ؟ لقد زارني شبح في غرفتي . »

ـ إنك تروي ذلك بهيئة من وجد شعرة في شوربته
ـ أنت تمزح ! لكن إعرف : الشبح هو شبح !
ـ هذا صحيح ، أما إذا كنت لا تعتقد أبداً بالأشباح ؟
ـ هل تذهب إلى أني أعتقد بها ، أنا ؟ لكن بماذا أكون أكثر تفوّقا إذا لم أؤمن بها ؟
ـ بأنّك لا تخشى شيئاً ، إذا كان زارك فعلاً شبح !
ـ لكن هذا الخوف هو ثانوي . إن سبب الظهور ، هو الذي يصنع الخوف الحقيقي ! وهو خوف باق ! أكابده بصورة فظيعة . . .

وأخذت في اضطرابي وعصبيّتي ، أفتش كل جيوبي .

ـ لكنك ما دمت لم تخف من الظهور نفسه ، كان عليك أن تسأله عن السبب !

ـ واضح جيّداً أنك لم تكلم عمرك شبحاً ! إنك لا تصل أبداً إلى أي شيء ايجابي منه . وما تلك غير لهو أو أقوال يتملّص بها ! كما يبدو على الأشباح أنها تشككنا بوجودها أكثر مما نفعل نحن ، وليس هذا بعجيب : إنها في غاية الهزال !
ـ لقد سمعت مع ذلك من قال أن ردّ صحتها لها ممكن !
ـ أنت عارف بالأمر ، هذا ممكن حقّاً ! لكن من يجازف به ؟

قال وهو يصل إلى الدرجة العليا : « ولم لا ؟ إذا تعلق الأمر بشبح امرأة مثلاً ؟ »

قلت : « آه ! نعم . لكن هذا نفسه ، لا يستحقّ أبداً كل ذاك العناء ! »

وفكرّت . بات محدّثي في علوّ ، لا يستطيع معه أن يراني إلا إذا انحنى عن حاجز الدرج .

صحت به : « لكنك إذا سرقت مني ـ على كل حال شبحي الذي فوق ، فقد انتهى كل ما بيننا إلى الأبد !

قال وهو يسحب رأسه : « كنت أضحك » .

ـ أجبت : « ممتاز ! »

والآن بات بوسعي الخروج للنزهة ، دون خوف . لكني . وقد أحسست أني منسي إلى هذا الحد ، اخترت أن أصعد كي أنام .

سور الصين

[١]

مسقط رأسي

مدينتنا الصغيرة ليست في جوار الحدود ، بل بعيدة بعيدة ! الشقة واسعة بينهما حتى لم يستطع أحد منا أن يذهب إليها أبداً ولا شك : عبور كل هذا العدد من الهضاب الصحراوية العالية ، وهذا العدد من السهول الخصبة الشاسعة ! إن التعب ليقتحمك من مجرد تخيل جزء من الطريق ، ويستحيل عليك أن تتخيّل أكثر من جزء من المسافة ! وعلى الطريق علاماتٌ من مدن كبرى ، أكبر بكثير من ضيعتنا . إن عشر ضياع متشابهة ، متجاورة ، نضّدت بعضٍ على بعض لا تساوي واحدة من تلك المدن الهائلة ، الضيقة . وإذا لم يضل المرء من هنا إليها ، فإنه يضيع أكيداً في تلك المدن . ومن المستحيل تجنبها لاتساعها !

على كل حال ، وأبعد بكثير من الحدود ، إن كانت المقارنة ممكنة بين تلك المسافات ـ كأنك تقول إن رجلاً عمره ثلاثمائة عامٍ هو أكبر من رجل عمره مائتا عام ! ـ تقوم العاصمة التي هي أبعد جدّاً من الحدود . وتأتينا من هنا وهناك بعض الأنباء عن معارك الحدود ، أما من العاصمة فلا يأتينا أي شيء تقريباً ، أريد أن أقول إلينا ، نحن ابناء الشعب ، لأن موظفي الحكومة لهم صلات ممتازة

مع العاصمة . إنهم يستطيعون في شهرين أو ثلاثة فحسب أن يتلقّوا رسالة من هناك ، إذا صدقناهم على الأقل !

إنه لغريب إذن ، وأنا لم أنته من الاستغراب ، حين ترانا في مدينتنا الصغيرة ، ننحني بهدوء لكل التدابير التي تتخذها العاصمة . منذ قرون لم يحصل عندنا أي إصلاح بناء على مبادرة المواطنين ! في العاصمة تعاقب الملوك العظام ، وانطفأت أو انهارت عائلات مالكة بكاملها ، وتأسست أخريات . في القرن الماضي هدمت العاصمة نفسها ؛ وأنشئت عاصمة جديدة بعيداً عنها ، ثم هدمت هذه بدورها واعيد بناء القديمة ، دون أن يكون لكل ذلك أي أثر في حياة مدينتنا الصغيرة ! إدارتنا لم تتبدّل ، فالموظفون الأعلون يجيئون دائماً من العاصمة ، والمتوسطون ، إذا لم يكونوا منها ، فمن الخارج ، أمّا الأدنون فمن عندنا . لم يتغيّر شيء . وكنا نقنع بهذا . . .

[٢]

بناء السور

١ . الخبر

انتشر في هذا العالم ، نبأ بناء السور ، ولو أنه تأخر ثلاثين عاماً عن إعلانه . كان ذلك ذات مساء من الصيف . كان عمري عشر سنوات وكنت أتنزه مع أبي على النهر . ولقد عجنا كثيراً على معنى تلك الساعة حتى لنذكر أدق تفاصيلها . كان يمسك أبي بيدي ، وتلك حركة آثرها حتى تقدّمت بي العمر ؛ أما باليد الأخرى فقد كان يداعب غليونه الطويل الدقيق ، وكأنه يداعب مزماراً . وكان شعر ذقنه الطويلة النادر القاسي يزبئرّ في الهواء ؛ وهو يتذوّق غليونه ، ويدع نظرته تهيم باتجاه السماء ، فتنحني بالتالي ناحية الأرض جديلية ، التي يحترمها الأولاد ، التي تسحج قليلاً حرير ثوبه العيديّ الذي نسج بالذهب . . . ووقف فجأة أمامنا قارب ، وأومأ النوتي لأبي كي ينزل إلى حافة النهر . وجاء بنفسه لاستقباله ، فالتقيا في منتصف الطريق ، وهمس النوتي كلمات في أذن أبي ؛ وأخذه بين ذراعيه ، كي يقترب منه أكثر . لم أفهم كلماته ، لكنما ظهر لي أن أبي أنكرها . وجهد النوتي بإقناع أبي ، الذي رفض في عناد تصديق الخبر . ووصل الأمر بالنوتي ، الموسوم بانفعال انباء حرفته ، إلى أن كاد يمزّق الثوب الذي على صدره دعماً لأقواله . وآل الأمر بإلحاح النوتي إلى

الانتصار قليلاً قليلاً على جحود أبي . ورجع الرجل إلى قاربه وذهب وهو يهمهم . عندها ، هزّ أبي غليونه ، والتفت إلي مفكرّاً ، ودس الغليون في زنّاره ، وجذب رأسي إليه ، فداعب وجنتي . كنت أحبّ هذه الحركة ، التي تملؤني حبوراً ، ورجعنا إلى البيت على هذه الحال . كان البخار يتصاعد من عصيدة الرزّ على المائدة ، وقد اجتمع إليها بعض المدعويين ، وبدأ صبّ الخمر في الأكواب . وبدأ أبي ، منذ أن وصل العتبة ، ودون جذر ، يروي ما عرفه . لم تبق عبارات روايته بالدقّة في ذاكرتي ، لكن ما أتى عليه كان عجيباً حتى ليستأثر بصبيّ ، أما معنى كلماته فقد انطبع متيناً في عقلي حتى لأستطيع أن أعيد بناءه كلمة كلمة ، لشدّة ما عكس تماماً العقلية الشعبية . قال أبي إذن ، تقريباً ما يلي !

« أكّد لي نوتي أجنبي - وأنا أعرف كل الذين يمرون عادة من هنا ، لكنّ هذا كان أجنبياً - أنّه سيبنى **السور العظيم** كي يحمي الأمبراطور . إن الشعوب الكافرة تجتمع ، كما يبدو ، وشياطينها كي ترميه بسهامها السوداء . . . »

[هنا توجد وصلة من ١١ سطراً ، لم يسجلها الناشر . ثم ما يلي :]

٢ . رقّ عتيق

يبدو أن الإهمال كان كثيرا في الدفاع عن بلادنا . فنحن لم نهتم حتى الآن بهذا الأمر ، وارتضينا بالتفرّغ لأشغالنا ؛ لكنّ أحداث الزمن الأخير غمرتنا بالقلق . حرفتي حذاء ، ومشغلي على الساحة ، مقابل القصر الأمبراطوري . ما ان أبدأ بفتح دكاني ، لدى طلوع الشمس ، حتى ارى مداخل الشوارع القريبة وقد سدّها الجنود . لكن ليس جنودنا . إنهم رحّل من الشمال بكل وضوح . . . ومن المستحيل أن ندرك كيف توغلوا إلى العاصمة على بعدها من الحدود ! مع ذلك هم هنا ، ويبدو أن كل صباح يزيد في عددهم . وهم يعسكرون على عادتهم في الخلاء ، لأنهم يكرهون البيوت المسقوفة . وهم يقضون يومهم في شحذ سيوفهم ، وتدبيب سهامهم ، والتدريب على الفروسيّة . لقد جعلوا من الساحة الصامتة ، المنظفة في عناية ، اسطبلاً . كنا أحيانا نتخلّص من دكاكيننا فنحاول أن نرفع على عجل الجزء الأكبر من الأقذار . جهد ضائع ! كان علينا أن نعاود دائماً العمل ! وأمام خطر أن نتدحرج تحت حوافر خيولهم المتوحشة والخوف من ضربات سياطهم القاسية ، وجب

علينا أن نقلع عن هذا الشأن .

الحديث معهم مستحيل ! إنهم يجهلون لغتنا . وهم ما يكادون يمتلكون لغة لهم . يتفاهمون فيما بينهم على طريقة البوم ! وما تلك غير صياح بوم ! طرائقنا وعاداتنا الإجتماعية غريبة عليهم ، بل لا تعنيهم ويجعلون الإتصال بالإشارة بهم مستحيلاً . لو خرج فكاك عن مفصليهما ، وانفتلت يداك لما فهموا وهم لن يفهموا أبداً . إنهم يكشرون أحياناً ، وتضطرب عيونهم ويزبد الفم . وهذا لا يعني أنهم يريدون قول شيء ما ، أو أن يخيفوا أحداً ، وانما تلك طرائقهم . وهم يأخذون ما هم يحتاجونه . ولا يمكن وصمهم بالعنف ، لأننا ندع لهم ونجانب ، ما يلمسونه . لقد أخذوا قطعاً عديدة من بضاعتي . لكني عندما أرى كيف يعاملون اللحام المقابل ، أكفّ عن الشكوى . ما ان يعرض بضاعته ، حتى ينتزعها الرحّل ويلتهموها ! خيلهم هي أيضاً لا حمة . وكثيرا ما نرى المطيّة والفارس وقد اضطجعا جنباً إلى جنب ، كي يأكل كل منهما حصته من نفس القطعة . ولقد هيمن الخوف على اللحام فلا يجرؤ على إغلاق دكانه . ونحن نفهمه ونتبرع مساعدة له . فالله أعلم ما يجري برؤوس الرحّل إذا نقص عليهم اللحم ! ومن بوسعه أن يقول أية نزوة تستبدّ بهم ، حتى مع اللحم كل يوم ؟

ظن اللحام ، ذاك اليوم ، أنه يستطيع أن يوفر على نفسه الذبح ، فأتى صباحاً ، بثور النهار حيّاً . لا أظنه يعود إليها ! فقد قضيت اكثر من ساعة في مؤخرة الدكان ، وقد تمددت تحت كومة من الثياب والأغطية والمخدّات - كي لا أسمع خوار البهيمة ، كان الرحل ، وقد هاجموه من كل الجهات ، ينتزعون منه بكل أسنانهم مزقاً من اللحم الحي ! وعندما عاد أخيراً الصمت ، عزمت على الخروج . كان الرحّل ينامون متعبين حول بقايا الوليمة ، مثل شَرْبٍ حوالى برميل . في تلك اللحظة ، خلت أنني أتميّز الأمبراطور في نافذة القصر . كان ، تبعاً للقاعدة العامة ، لا يتردد أبداً على الأجنحة المطّلة على الخارج ، بل يعيش معتزلاً في جنائنه ، في مركز القصر . لكنّه هذه المرّة ، كما بدا ليّ على الأقل ، كان يتكىء بمرفقيه في هذه النافذة ، وينظر ، وقد خفض رأسه ، إلى المشهد أمام القصر .

كيف يمكن أن ينتهي هذا الأمر ؟ إنه السؤال الذي يطرحه كل على

نفسه . كم من الوقت يطيق هذا الاضطهاد وهذا الغمّ ؟ لقد جذب القصر الأمبراطوري الرحّل ولا يستطيع الخلاص منهم . المدخل يظّل مغلقاً . وحرس العرض الطالع النازل ، وابهته السالفة ، محبوس وراء المصبّعات . وقد أوكلنا نحن الصناع والتجار بمهمة إنقاذ الوطن . لكننا غير أهل لها . وهل ادعينا أبداً القدرة على إنجازها ؟ وليس هنالك سوى سوء تفاهم وحيد ، لكننا نموت منه !

[٣]

بناء سور الصين

انتهى بناء سور الصين في جزئه الشمالي الأقصى . أما في الجزءين الجنوبي الشرقي والجنوبي الغربي ، فقد آل البناء إلى نقطة الاتصال . ولقد طبق أيضاً هذا الطراز في البناء المجزّأ في الداخل على جيشي العمال الكبيرين في الشرق وفي الغرب . وإليكم كيف تم ذلك . هنالك جماعتان ، كل منهما عشرون عاملاً كلفت كل منهما بمهمة ، إذ تبني الأولى حوالى خمسمائة متر من السور ، فيما تتقدّم الجماعة الثانية المجاورة لها للقائها وهي تبني سوراً على نفس الطول . فإذا تم الاتصال ، لا يستمر العمل بعد تلك الألف متر ؛ وانما على العكس ، ترسل جماعات العمال إلى مناطق أخرى . ونجم عن طريقة العمل هذه عدد عظيم من الثغرات الواسعة ، لم يتم سدّها إلاّ قليلاً قليلاً ، وبعد زمن طويل من الإعلان الرسمي عن انتهاء السور . ولربما وجدت ثغرات لم تغلق أبداً ، لأن مثل هذه التأكيدات تتعلّق ولا شك بعديد الأساطير التي أثارها البناء الذي لا يبيح اتساعه للعين ولمستوى الانسان العادي أن يقدّر حقيقته ؟

كان أفضل ولا شك ، من الناحية الأولى ، وفي كل الأحوال أن يستمر البناء ، ولو في الجزءين الرئيسيين على الأقل . لقد صمم السور ، كما يعرف الناس جميعاً ، على أن يكون وسيلة للدفاع ضدّ رحّل الشمال ، لكن ما نفع السدّ إن لم يكن مستمراً ؟ إنه غير ناجع ، والورشة نفسها معرضة أبداً للخطر . إن ترك تلك البقع في المناطق الصحراوية ، يجعلها دائماً تحت رحمة الغزاة . والرحّل ، يبدلون معسكراتهم ، بالقدر الذي تقلقهم فيه الأشغال ، في سرعة عجيبة كأنهم جراد ، ويطلعون هكذا على تقدّم البناء أكثر منّا ، نحن بنائيه ! مع ذلك ما كان بوسعنا أن نفعل غير ما صنعنا . وعلينا ، أن نفكر بالتالي ، كي ندرك السبب ! كان على السّور أن يكوّن سدّاً لعدة قرون ! كما أن مشروعاً على هذه الأهمية يجب أن يتضمّن شروطا لا غنى عنها : بنياناً بالغ الدقة ، واستخداماً

لعلم كل العصور وكل الأمم المعروفة في العمارة ، وشعوراً بالمسؤولية الشخصية المستمّرة لدى كل البنائين ! أما من أجل الأشغال الثانوية ، فقد كان ، والحق ، ممكناً استخدام اليد العاملة العادية : الرجال ، والنساء والأطفال من أبناء الشعب الذي يقدّمون أذرعتهم لقاء بعض المال . لكنه ، كان لا بد للإشراف على كل أربعة مياومين ، من معلم مؤهل ، يكون رجل ثقة قميناً بالإحساس في عمق قلبه بعظمة العمل القائم - لأنه كلما كان الجهد المبذول أكبر ، كلما تعاظمت المتطلبات . ولقد وجد مثل هؤلاء الرجال ، أو على الأقل بالقدر الذي تطلبّه البناء ، أو أنهم وجدوا بأعداد كبيرة .

ولم يبدأ العمل بخفة . فقبل خمسين عاماً ، من بدء الأشغال ، وفي كل الصين التي وجب أن يزنّرها السور ، أعلنت العمارة وبخاصة مهنة البناء ، على أنها العلم الأساسي ؛ وما كان يعترف بما عداها إلا بقدر علائقه مع العلم الأسمى . . . وذات يوم ، كنا فيه أطفالاً صغاراً، ما استقمنا بعد على أفخاذنا - وما زلت أذكر ذلك جيّداً جدّاً -، اجتمعنا في بستان معلّم المدرسة الصغير كي نبني بالرمل نوعاً من السور . وفجأة شمّر المعلم ثوبه ، وركض إلى سورنا فقلبه كلّه طبعاً . ولقد لامنا أعظم اللوم لهشاشة بنائنا ، حتى لقد فررنا ، ونحن نطلق الصياح ، إلى بيوت ذوينا . حادثة تافهة ، لكنها معبّرة عن روح العصر !

لحسن الحظ بدأ بناء السور في الفترة التي نجحت فيها في الفحص النهائي من المدرسة الثانوية ، وكان عمري عشرين عاماً . أقول لحسن الحظ ، لأن كثيرين ممن أكبر منّا وصلوا قمة العلم الممكن دون أن يعلموا ، خلال عديد السنين ، ما يفعلون بمعرفتهم! ولقد عاشوا حياة التسكّع مع أن رؤوسهم امتلأت بخطط البناء العظيمة - جيل حقيقي من الفاشلين ! أمّا الذين وصلوا أخيراً إلى حقول العمل كرؤساء ورشات ، حتى في مراكز ثانوية ، فقد كانوا فعلاً على مستوى مهمتهم . هم ، كانوا البناءين ! ولقد فكروا طويلاً بالبناء وما انفكّوا عن التفكير. كانوا من أولئك الناس الذين، منذ أن وضعت أول حجر ، أحسّوا أنهم ارتبطوا بالسور جسداً وروحاً . والذي كان يحفز هؤلاء البنائين ، عدا عن طموح العمل المتقن ، هو رغبتهم اللاهفة لرؤية البناء وقد انتهى . أما المياوم فإنه لا يعرف هذه اللهفة ، ولا يفكر إلا بالأجر . أما الرؤساء الكبار ، بله الثانويين ، منهم تكفيهم مشاهدة التقدّم بالبناء كي يحافظوا على معنويّاتهم . أما بالنسبة للمستخدمين العاديين ، وهم الأرفع روحيّاً من

مهمّة على هذا المظهر المتواضع ، فقد كان يجب استدراك عزاء آخر . ما كان ممكنا تركهم ، في منطقة جبال موحشة ، على بعد ألف ميل من مسقط رأسهم ، يسوّون خلال شهور وسنين الحجارة واحدة فوق أخرى . وكان من شأن اليأس الكئيب من هذا الجهد المتصل ، الذي لا تأمل أية حياة مهما طالت في رؤية غايته ، أن يجعلهم غير أهل للعمل . ولهذا السبب جرى اختيار البناء الجزئي . فقد كان في المستطاع بناء حوالى خمسمائة متر في خمس سنين ، يغدو بعدها بعامّة الرؤساء ، والحق ، مجهدين وقد فقدوا الثقة بأنفسهم وكل الأمل بالبناء ، وبأشياء هذا العالم . وفيما هم على حماس الأفراح التي تمجّد وصلة الألف متر من السور ، كانوا يرسلون بعيداً ، بعيداً جدّاً . ولقد كانوا يرون عبر رحلتهم أجزاء مكتملة من السور تنبثق في المشهد ، ويمرّون أمام قيادات الزعماء الكبار الذين كانوا يقدّمون لهم الأوسمة ؛ وتترد في آذانهم صيحات الحبور من جيوش العمّال الجديدة التي تتدفّق من أعماق البلاد ؛ كما تقطع الغابات أمام عيونهم من أجل الصقالات، وتختفي الجبال ، فتقطع كتلاً من حجر للبناء ، فيما تتجاوب في الأماكن المقدسة صلوات المؤمنين الضارعة لإتمام السور ! كان هذا كله يهدّىء لواعجهم . كان يعزيهم ويهزّ أوتار روحهم ، وحياة مسقط رؤوسهم الهادئة حيث يقضون بعض الوقت ، والأحترام الذي يشمل عمّال السور ، والإيمان البسيط الذي تستقبل به حكاياتهم ، ويقين المواطن البسيط المتواضع ، الواثق باكتمال البناء المقبل . كانوا ، وهم أشبه بالأطفال بأملهم وإيمانهم الأبديين، يقولون وداعاً إلى مسقط رؤوسهم ، إذا لا يستطيعون مقاومة الرغبة بالعودة إلى العمل الوطني . كانوا يغادرون البيت قبل أن تحين ضرورة المغادرة ، فيرافقهم نصف القرية طويلاً ؛ وعلى الطريق جماعات ، ولافتات ، وأعلام ! إنهم لم يدركوا أبداً من قبل عظمة وغنى بلادهم ، وسحرها وجمالها ! إن الفلاّح هو أخ ، ذاك الذي يبني السدّ من أجله ، ولسوف يشكركم طيلة حياته ، بكل ما لديه ، وكل ما هو ! الوحدة ، وحدة كل القلوب ، كل الأيدي التي التقت في دائرة عظيمة ، والدم الذي تحرّر من حدود الجسد الضيقة ففاض رقيقاً في الصين اللانهائية دون أن يضيع أبداً !

هذا هو ما يفسّر نظام البناء قطعاً ، لكنها ليست الأسباب الوحيدة . وأنا لا أتوقف ، إطلاقاً عن هوس ، طويلاً عند هذه النقطة ، فهي المسألة المركزية ، ولو ظهرت ثانوية للوهلة الأولى ! أما عن نقل وبيان فكر واحداث ذاك

الزمن ، فإنها على وجه الدقة مسألة ، لا يمكن التعمق فيها .

أوّلاً ، يجب أن نقول ، أن الأشغال التي قامت آنئذ ، لا تقلّ إلا شأناً قليلاً عن أشغال برج بابل ، أما عن النظرة الإنسانية ، فإن طابع التقى يجعلها ندّاً لندّ ! وما كنت لألمحّ عن هذا الأمر ، لولا أن عالماً ، في بدء الأشغال بيّن بدّقة هذا التوازي في كتاب . ولقد حاول أن يثبت أن أسباب فشل بناء البرج لا ترجع تماماً للأسباب التي سيقت عامّة ، وإنما لتلك التي لم ترد ، بين ما عرف كثيرا من أسباب ، وهي حقّاً جوهريّة ولم تستند حججه إلى النصوص والتقارير فحسب ، وإنما زعم أنه قام بالتنقيب في المكان نفسه واكتشف بأن ضعف الأساسات كان ، بل وجب أن يكون حتماً ، سبب الفشل . ولقد كان ، من هذه الوجهة ، عصرنا ، والحق ، أشدّ تقدّماً من ذلك العهد القديم . فما من مثقّف معاصر إلا وكانت حرفته بنّاءً لا يخطىء بما يتعلّق بمسألة الأساسات. لكن هذا لم يكن أبداً ما أراد إثباته عالمنا ؛ كان يزعم ، هو ، أن السور الكبير سوف يقدّم للمرّة الأولى في تاريخ الإنسانية القاعدة الصلبة لبرج بابل . وهكذا : السور أوّلاً ، ومن ثم البرج . وتناولت آنئذ كل الأيدي هذا الكتاب ، لكني هل أعترف أني لا أفهم كما ينبغي ، حتى الآن ؟ كيف كان يتخيّل بناء ذلك البرج . فالسور الذي لا يتكوّن حتى من دائرة وإنما من بعض ربع أو نصف الدائرة فحسب هل يؤلّف قاعدة البرج ؟ هذا التأكيد لا يمكن أن يكون إلا رمزيّاً . لكن لم إذن السور وقد كان مع ذلك واقعاً وثمرة جهد وحياة مئات الألوف من البشر ؟ لم إذن مخططات البرج ، السديمية ، التي رسمها في كتابه ؟ وتلك المشاريع التي فصّلها بدقة عن الوسائل القمينة بأن تضع كل القوّة الوطنية في خدمة المهمة الكبرى ؟

وحصل اختلاط عظيم في الأفكار ، ليس هذا الكتاب سوى نموذج عنها ، فهل السبب أن مثل هذا الحشد كان يحاول، بكل الوسائل ، أن يتحدّ من أجل هدف واحد ؟ إن الكائن البشري ، الخفيف في ماهيته ، يشبه الغبار الذي يتطاير وينجو من كل الحواجز . ولو أنّه يقيّد نفسه بنفسه ، فإنه مايلبث حتى يجذب في عنف قيوده ، فتطير مزقاً ، في زوايا السماء الأربع ، السور والسلاسل وهو نفسه !

وربما كانت المقامات العليا ، حين عزمت على البناء المجزّأ ، قد وضعت في اعتبارها هذه الصعوبات التي تعيق العمل . أما عنا نحن ، واتحدّث هنا باسم

العدد العظيم ، فإننا ، والحق ، لم نتوصّل إلى معرفة أنفسنا إلا لكثرة ما ردّدنا في تواضعنا أوامر مجلس الزعماء ، ولمسنا أننا ما كان ليكفينا ، لولاه ، أية معرفة مدرسية وأي عقل إنساني ، للقيام بالوظيفة الصغيرة التي أوكلنا بها في داخل المجموع العظيم . في قاعة المجلس الأعلى - أين توجد ؟ ومن كان يجلس فيها ؟ إن أحداً لا يعرف ، أحداً ممن كان بوسعه أن ينبئني ! - في تلك القاعة كانت تدور كل أفكار وكل آمال البشر ، وفي دائرة معكوسة كل إنجازات واهداف البشر . غير أن بهاء العوالم الإلهية ، كان ينعكس عبر النوافذ على أيدي زعماء المجلس الأعلى الجليلة التي ترسم المخططات . . .

وهذا هو السبب الذي من أجله ، يرفض الشاهد العدل ، القبول بأن مجلس الزعماء ، لم يكن يستطيع قهر كل الحواجز التي تعترض البناء المستمر ودفعة واحدة ، لو أراد ذلك جدّاً . ولقد فرضت خلاصة وحيدة نفسها وهي : أن مجلس الزعماء أراد أن يكون نهج البناء هو الطراز المجزّأ . غير أنّ هذا الطراز قام على فرض الأسوأ ، وكان طريقة غير عملية تماماً . بقي إذن أن المجلس الأعلى أراد شيئاً غير عملي تماماً . استنتاج غريب - أكيداً ! لكنه ، له ما يبّرره من ناحية أخرى بأكثر من حجّة . ولربما كان الحديث عنه اليوم ممكناً دون خطر ؟ لكن كثيرين في زماننا ، حتّى من النخبة ، يدعون لمبدأ سري : استخدم كل ملكاتك لفهم أوامر المجلس الأعلى ، لكن اقبل ببعض الحدود . . . أي ، هدنة التفكير ! لا تفكرّ أبعد من ذلك ! وهي حكمة عاقلة وجدت تفسيراً أوسع في استعارة ردّدت كثيراً ، فيما بعد : توقف عن التفكير ، وليس لأنه يضرّ بك . ولا شيء يثبت أنك ستندم ! إن الأمر لا يتعلق أبداً بالندم أو عدمه ! يحلّ بك ما يحل بالنهر في ربيعه ، يعلو ويتضخمّ ، ويحمل إلى الأرض ، ويحمل للأرض غذاء أعظم ، على طول ضفتيه وقد اتسعتا ، ويحافظ على طابعه الخاص ، حتى الدرجة ، فبوسعك أن تتأمل بأوامر مجلس الزعماء. أما إذا شئت تجاوزها، فإن النهر يتعدّى شاطئيه، ويفقده حناياه وصوره، ويبطىء مجراه، ويجرّب، وهذا يتعدّى شاطئيه ، ويفقد حناياه وصوره ، ويبطىء مجراه ، ويجرّب ، وهذا مخـالف لمصيره ، فيكـوّن بحاراً صغيـرة في داخل الأرض . إنـه يجتاح البراري . . . لكنه إذا طال به الأمر لا يستطيع الثبات في امتداده ، فيرجع إلى حافتيه ، بل يستمّر حتى أوّل حمّارة قيظ فيجفّ بائساً . فاحفظ نفسك عن أن تذهب بعيداً في تأمل أوامر المجلس الأعلى !

لقد استطاعت هذه الصورة ، إبّان بناء السور ، أن تكون ملائمة ، لكنها في التقرير عن الوقت الحاضر ، ليست لها إلاّ قيمة ضئيلة . وبحثي أنا ، هو في الواقع ، تاريخي بحت . إن أيّ برق لا ينبثق الآن ، بعد أن تبعثرت ، منذ عهد طويل غيوم العاصفة ، وبات بوسعي أن أبحث عن تفسير لطراز البناء المجزّأ أعمق من الذي كانوا يكتفون به في ذاك العصر . والحدود التي يمليها عليّ ذكائي هي ضيّقة جدّاً ، مع أن المجال الذي أريد التنقيب فيه ، ليس سوى اللا نهاية !

ضدّ من كان يجب استخدام السور العظيم سدّاً ؟ ضد قبائل الشمال . وأنا قادم من جنوب الصين . وهناك لا تستطيع أن تهددنا أية قبيلة من الشمال . إننا نعرف عنها ما تقوله لنا عنها **الكتب القديمة** : إن الفظاعات التي يرتكب انسجاما مع توحّشها تجعلنا نتأوّه ونحن في حمى أكواخنا الهادئة . إننا نرى في اللوحات الواقعيّة ، تلك الوجوه اللعينة ، والمشافر الفاغرة ، والفكوك المزبئرة أسناناً مشحوذة ، والنظرات التي تطرف كأنمّا ألم بها حول الفريسة التي سوف تطحنها وتمزقها في أشداقها ! حين يؤذي الأطفال ، نريهم تلك الصور ، فيرتمون على أعناقنا باكين . لكنّ هذا هو كل ما نعرف عن بشر الشمال . ونحن لم نرهم ، ولن نراهم أبداً إذا بقينا في قرانا ، حتى ولو انقضّوا علينا وهم على خيلهم المتوحّشة . . . بلادنا أوسع من أن تبيح لهم الوصول إلينا ! وتتبدّد غزوتهم في الهواء .

وما دام الأمر كذلك ، فلم الرحيل إلى المدرسة في الأرض البعيدة ، لماذا ندع مسقط رأسنا ، والنهر وجسوره والأب والأم ، والزوجة باكية ، ومن يجب أن نعلّم من أطفال ـ ونحلم أيضاً بسفر أبعد إلى السور في الشمال العظيم ؟ لماذا ؟ سل عن ذلك المجلس الأعلى ! فالزعماء يعرفوننا . هم الذين يجترّون هموما كثيرة، يعلمون ما نحن ، ويعرفون أشياءنا الصغيرة . إنهم يروننا مجتمعين في كوخنا الصغير المتواضع وقد تعجبهم أو لا تعجبهم الصلاة التي يتفوّه بها أب العائلة مساءً في دائرة ذويه . وإن استطعت أن أبيح لنفسي مثل هذا التلميح ، صرحت بأن **المجلس الأعلى** كان برأيي موجوداً من قبل ؛ ولم يكن يجتمع كما تفعل علية الموظفين ، الذين يدفعهم إلهام حلم صباحي جميل ، إلى الدعوة لجلسة في غاية الضرورة ، واتخاذ قرارات ، وفي نفس المساء ، تدقّ الطبول ، ويوقظون السكان من نومهم كي ينفّذوا المراسيم التي اتخذوها ـ حتى ولو لم يتعدّ الأمر تنظيم إضاءة زينة على شرف إله أظهر ليلة البارحة أنه حفيّ بهؤلاء

السادة ، ولو أنه في الغد ، وما كادت تنطفىء القناديل ، يوسعهم ضرباً في زاوية مظلمة ! لقد وجد مجلس الزعماء منذ الأبد وكذلك القرار ببناء السور . مسكينة قبائل الشمال التي اعتقدت أنها السبب ! وبريء الأمبراطور ، دام جلاله ! الذي اعتقد أنه أعطى الأمر ! أما نحن بشر السور العظيم ، فإننا نعرف عنه كثيراً ، ونصمت . . .

كان التاريخ المقارن ، أيام البناء ، كما هو اليوم ، مهنتي الأساسية . إنه يمنحنا الوسيلة الوحيدة ، للوصول ، إلى قلب بعض المسائل . ولقد توصلت إلى أن اكتشفت ، أننا نحن الصينيين ، نمتلك بعض المؤسسات الشعبية والسياسية الرائعة الوضوح ، كما نمتلك من ناحية أخرى مؤسسات أخرى، غموضها ، ليس أقلّ روعة ! لقد جذبني وما زال يجذبني سر السبب ، وبخاصة في الفصيلة الثانية . وبالتالي المسائل المتعلّقة ، هي أيضاً ، بالسور .

وأشد مؤسساتنا غموضاً هي على كل حال الأمبراطورية بصفتها جهازاً سياسيّاً . توجد في بيكين طبعاً ، وبخاصة في البلاط ، بعض القرائن ، حول هذا الموضوع ، لكنها بالرغم من كل شيء ظاهرية أكثر منها واقعية ! إن اساتذة الحق الدستوري والتاريخ في مدارسنا العليا ، يزعمون المعرفة الكاملة لهذه المسائل ويعتقدون بقدرتهم على نقل تلك المعلومات إلى التلاميذ الذين يصغون إليهم . وكلما نزلنا في مراتب المدارس كلما واجهنا ، بالطبع ، شكوكاً أقلّ ، عند الأساتذة ، بمعرفتهم الخاصة . وتتدفق أمواج البدائية من كل الأنحاء على المسلّمات النادرة التي توطّدت منذ قرون ، ولئن لم تفقد شيئاً من حقيقتها الخالدة ، فإنها تظلّ محجوبة أبديّاً بهذه الغشاوات وكل ذاك الضباب !

وأنا أرى ، أن يصار إلى سؤال الشعب عن المؤسسة الأمبراطورية بالدقة ، أو ليست في الحقّ دعائمها السامية فيه ؟ وهنا أيضاً لا أستطيع ، على كل حال أن أستند إلاّ إلى وضع مسقط رأسي . إن الأمبراطور هو الهدف الوحيد لكل أفكارنا ، إذا استثنينا آلهة الحقول ، التي تملأ عبادتها في لَطَفٍ ، كل السنة . ولا أعني أبداً الأمبراطور المالك . . . أريد أن أقول ، أننا لو عرفناه ، لو كان لدينا عن موضوعه أقلّ قرينة ، لكان هو الهدف ! كنا نبحث باستمرار ، والحق ، وهذا فضولنا الوحيد ، عن الحصول على معلومات . ومهما بدا الأمر غريباً ، فإن معرفة أي شيء لم تكن ممكنة ، أكان ذلك من الحاج الذي رأى بلداناً كثيرة ، أم من سكان القرى القريبة والبعيدة ، أو النوتيّين الذين يمخرون

انهارنا الصغيرة وأنهارنا الكبرى المقدسّة . كنا نجمع كل أنواع الشائعات ، لكن ماذا كنا نستخلص منها ؟

إن أية خرافة ، لا تحدّد اتساع بلادنا ! وتكاد ألاّ تحيط بها السماء ، وبيكين ليست سوى نقطة ، والقصر الأمبراطوري ليس سوى نقطة صغيرة . لكنّ عظمة الأمبراطور تظلّ ثابتة عبر بناء العالم . أما عن شخص الأمبراطور ، فهو إنسان مثلنا ، يضطجع على شاكلتنا ، في كرسي الراحة العريض الأبعاد ، ولو أنه أضيق وأقصر مما كنا نتخيّل . إنه يتمطّى ، أحياناً مثلنا ، وفي ساعات إجهاده العظيم ترسم شفتاه الرقيقتان تثاؤ بة . لكن ما بوسعنا أن نعلم عنه ، ونحن في الجنوب قيد ألف ميل ، نحن الذين نجاور هضبة التيبيت ؟ وفوق ذلك ، كل ما يأتينا من معلومات يصلنا متأخرّاً وقد بات قديماً منذ أمد بعيد . ويلتفّ حول الأمبراطور حشد منْ الحاشية اللامعة الغامضة . الشرّ والعداء يأويان إلى كسوة الخدم وابتسامات الأصدقاء . . . . إنهم يجهدون دائماً بخرق توازن التكافؤ في السلطة وذلك بزحزحة الأمبراطور ، بسهامهم المسمومة ، من كفّة الميزان الأخرى ! إن الأمبراطور بذاته هو خالد ، أما الأمبراطور ـ الإنسان فإنه يهوي ويسقط، وتنتهي العائلات المالكة إلى الانهيار والموت في حشرجة أخيرة. . . والشعب لا يعرف شيئاً أبداً عن هذه المعارك وتلك الآلام . إنما نحن متأخرون وغرباء ! وفيها نأكل في هدوء ما لدينا من مؤ ونة ، في طرف شارع جانبيّ ازدحم بالناس ، يتم في مركز المدينة ، على ساحة السوق ، عذاب سيّدنا ، بعيداً عن عيوننا !

وهنالك اسطورة تترجم لحسن الحظ طبيعة العلائق بين الأمبراطور ورعيّته :

رسالة امبراطورية

لقد قيل ، أنّما إليك ، إليك وحدك ، أنت ، المواطن المسكين ، والظل الحقير الذي شاءت الشمس الأمبراطورية أن تلفظك إلى طرف العالم الآخر ، إليك أنت نفسك ، أرسل الأمبراطور ! من على فراش موته رسالة ! لقد جعل الرسول يركع عند وسادته ، فتمتم الرسالة في أذنه . لقد كان يعلق عليها من الأهمية ما حدا به لأن يأمر الرسول بأن يعيدها عليه في أذنه . وأكد على صحة الرسالة بهزّة من رأسه ، أمام كل الذين حضروا موته ـ لأنهم حطّموا كلّ الحواجز

التي يمكن أن تعيق نظر المشاهدين ، ولقد وقف في دائرة كبار الأمبراطورية على منحنيات الأدراج العريضة المهيبة ، الصاعدة إلى السماء - أسرع بإرسال الرسول أمامهم جميعاً وسار الرجل حالاً على الطريق ، قويّاً ، لا يتعب . وأخذ يمدّ ذراعاً ثم الأخرى فيشق له طريقاً وسط الجموع. وفي حالة المقاومة يظهر شارة الشمس على صدره . وهكذا تقدّم أسهل من أي إنسان آخر . لكن أي جمهور يعيش في القصر ! مساكنه لا تنتهي . آه ! لو أن المجال حرّ أمامه لطار! ولن تلبث أن تسمع صوت قبضتيه الرائع وهو يضرب على بابك . لكنه بدلاً من ذلك ، يالعبث جهوده ! فهو ما زال يشقّ طريقه ، في الشقق الخاصة في قلب القصر نفسه ؛ ولن يخرج منه أبداً ! وعندما يصل إلى ذلك، فإنه لن يربح شيئاً ، يجب عليه أن ينتصر في معركة نزول السلالم ! حتى إذا توصل إلى ذلك ، لن يربح شيئاً أبداً . يجب عليه أن يجتاز الساحات ، وبعد الساحات قصراً آخر يحيط بالأول ، وسلالم أيضاً ، وأيضاً ساحات ، وأيضاً قصر ، وهكذا من ألف عام إلى ألف عام ! ولو أنه يرمي بنفسه خارج الباب الأخير- لكن هذا مستحيل أبداً ، أبداً ! ، لبدأت ساعتئذ تنصب أمامه المدينة الأمبراطورية ، سرّة العالم ، التي تطفح بمستودع القرون ! هنا لا يمرّ أحد ، وبخاصة رسالة ميت!... أما أنت ، وقد جلست إلى نافذتك ، فإنك تحكم إلى ما لا نهاية بهذه الرسالة ، عند حلول المساء ...

تلك هي الرؤ يا اليائسة والتي تغذّي بنفس الوقت الأمل لدى هذا الشعب في امبراطوره ! إنه لا يعلم أي امبراطور يملك وهو غير واثق من اسم العائلة المالكة . والمرء يتعلّم كثيرا عن هذه الناحية في المدارس ، لكن الشكّ عام في هذه النقطة حتى ليفسد أحسن الطلاّب . وفي قرانا يجلس على العرش أباطرة ماتوا منذ زمن طويل ، ويصدر فلان الذي لا يعيش إلاّ في الأسطورة مرسوماً يقرأه الراهب عند قدم المذبح . وهنالك انتصارات من أقدم ماضينا لم تُحرز إلا اليوم ، ويفاجئك الجار ، وقد احمرّ وجهه تأثراً ، كي يزفّ إليك نبأها . والأمبراطورات ما يفتأن يقترفن نفس الجريمة ، وقد جلسن متخمات على أرائك الحرير ، وقد أضلّهن رجال الحاشية ، وانتفخن غروراً ، وبتن ضاريات الطمع ، وولغن في الدعارة . وتتأجج الألوان المخيفة ، على مرور الزمن ، وذات صباح ، تعلم القرية وهي تطلق النحيب ، وبعد آلاف السنين ، إن الأمبراطورة شربت دم زوجها الأمبراطوري في جرعات كبرى ! هذا ما يفعله الشعب بملوك ماضيه ، أما عن ملوك اليوم ، فأنه يخلط بينهم وبين الموتى !

حتى إذا جاءنا، ذات مرّة، مرة واحدة في حياة الانسان، فمر بقريتنا موظف امبراطوري، في جولة له في المقاطعة، فتلّفظ ببعض المطاليب، باسم الحكومة ، وراجع قائمة الضرائب ، وفتش المدرسة ، وسأل الراهب عن سلوكنا ، ثم لخص الكل في عظة طويلة للسكان وقد اجتمعوا على عجل - وتمر ابتسامة على كل الوجوه ، فينظر كل منهم إلى الآخر خلسة وهو ينحني على ابنائه كي لا يفاجئه الموظف الأمبراطوري ! كيف يتكلم عن ميت كأنّه حي ؟ ألم يمت هذا الأمبراطور ويقبر ، ألم تنطفىء عائلته ؟ إن سيادة المفتش يسخر منّا ، لكننا لن نبدي شيئاً خشية إزعاجه ! إننا لا ندين بالطاعة إلا لسيّدنا الحالي ، والتصرّف بطريقة أخرى هو خيانة ! ووراء المحفة الرسميّة التي تبتعد عجلى ، يقف بقدم ثابتة سيّد القرية الجديد ، وقد انبثق باختياره من مرمدة[1] تحطّمت من قبل !

وقلّما أثرت الثورات والحروب في الناس عندنا بوجه عام . ولأذكر هنا حدثاً من أيامَ شبابي ! انفجرت ثورة في مقاطعة مجاورة ، ولو أنها مع ذلك بعيدة جدّاً . وذاكرتي لا تحيط بأسبابها . وهي ليست مهمة ، لأن كل صباح كان يأتي بأسباب للثورة ، والشعب هناك هو شعب رافض . وذات يوم جاء شحاذ ، مرّ بتلك المقاطعة ، إلى بيت أبي ببيان من الثائرين . . . وكان يوم عيد ، والمدعوون في كل الغرف ، والراهب في الوسط ، يحلّ رموز الورقة . وفجأة ، انفجروا جميعاً ضاحكين . ومزّقت الورقة في صخب . وطرد الشحاذ ضرباً بالعصي ، بعد أن كانوا أغدقوا عليه الهدايا ، وتفرّقوا ، وهم لا يفكرّون بشيء . لماذا ؟ إن لهجة المقاطعة المجاورة مختلفة تماماً عن لهجتنا ، ويتم التعبير عن هذا الاختلاف ببعض الأشارات في اللغة المكتوبة التي لها عندنا طابع عتيق . وما تلى الراهب صفحة إلاّ وقد فهموا . قصص قديمة معروفة من زمن طويل ، ونسيناها من زمن طويل ! وبالرغم من انّ - أتصور أنّي أذكره - الحقيقة الرهيبة تكلمت بما لا يردّ بفم الشحاّذ ، فقد هزّوا الرأس ضاحكين ، لا يريدون أن يسمعوا شيئاً . لأن الناس عندنا على غاية الميل إلى إنكار الحقيقة الراهنة ! ولو أننا استنتجنا من هذه الواقائع أننا ليس لنا امبراطور ، لما كنّا بعيدين عن الحقيقية . وأرجع دائماً للأمر التالي : ربّما لم يوجد شعب أشدّ إخلاصاً للأمبراطور منّا نحن شعب الجنوب ،

---

[1] مرمدة: ما يحفظ به رماد الموق.

لكن الأمبراطور لا شأن له بوفاتنا ! ولن يجدي قعود التنين المقدّس على عموده عند مخرج القرية ولا نفخه ، احتراماً ، نفسه الملتهب باتجاه بيكين - وعند أهل القرية ، تظلّ بيكين اكثر غرابة من الآخرة نفسها ! وهل توجد حقّاً قرية يتصل كل بيت منها، على مدّ الرؤ ية بالآخر ، وعلى مسافة من السعة ما لا يستطيع نظرنا أن يحيط به من فوق تلالنا ، وفي ما بين هذه البيوت بشر يشّد بعضهم على بعض ليلاً نهاراً ، رأساً على رأس ؟ وَلَأسهل علينا ، من تخيل مثل هذه القرية ، الاعتقاد بأن بيكين وامبراطورها ليس إلا واحداً كغيمة تندرج ، عبر العصور ، في هدوء تحت الشمس . ونتيجة مثل هذه التصورات هي إلى حدّ ما حياة حرّة ومستقلّة . ولهذا ، لا يعكرّها شيء أبداً ! . . . إنها حياة لا تخضع لأي قانون حالي ، وإنما للدروس والنصائح التي تأتينا من عمق العصور .

وأربأ بنفسي عن التعميم فالتأكيد بأن الأمر ينطبق على عشرات ألوف القرى في مقاطعتنا ، بله الخمسمائة مقاطعة مقاطعة في الصين . غير أني وقد اعتمدت قراءاتي العديدة التي قمت بها حول هذا الموضوع وملاحظاتي الخاصة - إن دراسة المادة الإنسانية ، خلال بناء السور ، تمكن الإنسان النيّر من أن يكتنه روح كل المقاطعات تقريباً - استطيع ولا شك ، القول ، بناء على ذلك ، بأن المفهوم السائد عن موضوع الأمبراطور يتجلى عنه دائماً وابداً عنصرمشترك مع ذلك الذي تنبته مقاطعتنا . ولا أريد أن أزيّن بأن هذا المفهوم فضيلة ، فأنا بعيد عن ذلك ! والحق أن المسؤ ول الرئيسي هو الحكومة ، التي لم تعرف حتى الساعة الراهنة أو أنها أهملت لغاية أخرى ، في أقدم امبراطورية في العالم ، تنمية فكرة الأمبراطور بما يكفي من وضوح كي يصل أثرها المباشر والدائم الى حدود الأمبراطورية . لكن يوجد في الشعب ، من جهة أخرى ضعف في الخيال وفي قوة الإيمان ، تلك الرعية الضعيفة التي لا تتوصل إلى انتشال الأمبراطورية من نسيان بيكين لعلّها تضمّها بكل حياتها وواقعها ، بالرغم من رغبتها الحارّة في أن تحسّ ولو مرّة واحدة ! بذاك العناق ثم تموت منه !

مثل هذا المفهوم لا يمكن أن يعتبر إذن فضيلة . والمدهش في هذا الشأن أن هذا الضعف ذاته يبدو أنه أحد أسباب وحدة شعبنا الرئيسية ، وإذا جازفنا بالتعبير قلنا ، أنه حقاً الأرض التي نعيش عليها . ولومنا صراحة لهذا لا يهز ضمائرنا فحسب، وانما ما هو أسوأ ، أي أفخاذنا نفسها ! ولن أذهب الآن أبعد في دراسة هذه المسألة . . .

إن أعلى موظف في مدينتنا الصغيرة هو جابي الضرائب العام ؛ أما رتبته فعقيد وأما ذاك فهو اللقب الذي يكنّى به . وهو الآن شيخ ، لكني أعرفه منذ سنين . وهو من أيام طفولتي عقيد . ويبدو أن وظيفته التي بدأت سريعة قد توقفت الآن . غير أن رتبته كافية لمدينتنا الصغيرة ، أو كنا غير أهل لاستقبال موظف أعلى منه عندنا . عندما أتذكّره ، أراه وفي فمه غليون ، وقد جلس مرتاحاً في بلكون بيته المطلّ على ساحة السوق . وفوقه يرفرف العلم الأمبراطوري على السطح ، كما يجف غسيل على حواف البلكون ، الذي يتسع أحياناً لبعض التدريبات العسكرية الصغيرة . ويلعب أحفاده حوله في ثياب جميلة من حرير . ولقد منعوا من النزول إلى الساحة ، لأن بقية الأطفال ليسوا من مستواهم ؛ لكن الساحة تجتذبهم فيمدون رؤوسهم من بين قضبان الدربزين ! فإذا اختصم أطفال التحت ، شاركوهم على الأقل من أعلى في معاركهم .

العقيد هو إذن سيّد المدينة . واعتقد أنّه لم يبرز أبداً وثيقة إثبات . إنه ولا شك لا يمتلكها ! ألا يمكن أن يكون هو حقّاً جابي الضرائب العام ؟ لكن أيكفي هذا ؟ وهل يفوّضه هذا بالوصاية أيضاً على كل الإدارات الأخرى ؟ إن منصبه على أهميته عند الدولة ، ليس فيه شيء أساسي لدى جمهور المواطنين . ونحس أن الناس يستطيعون القول تقريباً : « بما أنّك أخذت كلّ ما نملك ، تنازل فخذنا نحن أيضاً على (رأس البيعة)!» والواقع أنه لم يستول أبداً على السلطة بالقوة ، فهو ليس طاغية . ولقد جرت العادة منذ العصور القديمة أن يكون جابي الضرائب العام هو الموظف الأول، والعقيد يخضع مثلنا لهذا التقليد .

وهو ، ولو أنه لا يتميّز أبداً ، في طريقة عيشه عن المواطن البسيط ، فإنه يختلف بعمق عنّا جميعاً . عندما يقدّم له وفد عريضة ، فإنه ينتصب كسور العالم ! ووراءه ، لا وجود لأي شيء . وفيما بعد شخصه يخيّل للمرء أنه يسمع دمدمة أصوات أخرى ، لكنّها وهم لا شك ! والعقيد هو في الواقع مفتاح قبة المجموع ، عندنا نحن على الأقل ! لكم يجب أن يُرى خلال هذه الإستقبالات . ولقد حضرتها مرّة في طفولتي . جاء وفد من المواطنين يطلب عون الحكومة لأبأس حيّ في المدينة بعد أن دمّره الحريق . وقد أخذني أبي معه ، وهو الحدّاد ، الذي كان عضوا في الوفد ، لما له من تقدير عند الناس . وليس غريباً

أن يحتشد الناس لهذا المشهد ، فلا تميّز الوفد من الناس . ومثل هذه الجلسات ، تعقد عادة على البلكون ، وعليه تسلّق عدد من الفضوليين من الساحة على سلالم وشاركوا فيما يجري من وراء الدربزين . وكانوا يخصصون في ذاك الزمن ربع البلكون تقريباً للوفد ويحتل الجمهور الباقي . وكان بعض الجنود يتحلقون حول العقيد في نصف دائرة لحفظ النظام . ولو أن واحداً منهم يكفي ، لما يوحون به من خوف عندنا .

كان العقيد واقفاً ، شأنه في كل مناسبة رسمية ، وقد أمسك بيديه المحدودتين قضيبي خيزران طويلين . وتلك عادة عتيقة تعني تقريباً أنه يدعم القانون كما يدعمه القانون . ولو أن كلّاً يعرف مقدّماً ما سوف يحدث على البلكون ، فإن الخشية هي دائماً نفسها . مرّة أخرى ، لم يستطع الناطق باسم الوفد أن يحزم أمره على الكلام ؛ ولقد كان أمام العقيد ، غير أن الشجاعة خانته ، وبحجة أو أخرى ، رجع إلى مكانه بين الجمهور . وما كان هنالك أي شخص مؤهل ، مستعد للكلام . . . وعرض بعض من غير المؤهلين خدماتهم . . . وسادت فوضى عظيمة . . . أخذوا يرسلون الرسل إلى الموطنين المعروفين كخطباء . . . وبقي العقيد ، خلال كل هذا الوقت ، لا يتحرك ، إلا صدره الذي ينخفض انخفاضاً غريباً ، كما لو أن التنفّس حفره . وليس هذا لأنه يتنفس بصعوبة ، وإنما لأنه بدا عليه أنه لا يتنفّس إلا خارجيّاً ، مثل الضفادع مثلاً ، وهو أمر طبيعي على وجه التقريب عندها ، أما عنده فهو غير طبيعي . . . واندسست بين الأشخاص الكبار ، ولاحظته طويلاً بين جنديين ، حتى آل بأحدهما الأمر لأبعادي بضربة ركبة . وفي هذا الوقت ، تمالك الناطق باسم الوفد نفسه ، وسنده اثنان من المواطنين بقوة فقدم العريضة . ولكم كان مؤثراً وهو يروي في وقار الكارثة ، أن نراه يبتسم بأشدّ ما في العالم من تواضع، يحاول عبثاً أن يوقظ ، ولو انعكاساً شاحباً لابتسامته على وجه العقيد . وخلص، إلى صياغة طلبه ، الذي كان ، على ما أعتقد ، اعفاء الحيّ المنكوب سنة من الضرائب وربما كان تخفيض أسعار خشب البناء من الغابات الأمبراطورية فحسب ! ثم انحنى بعمق وبقي على هذا الوضع هو والآخرون ما عدا العقيد، والجنود وبعض الموظفين الموجودين في الطرف . مشهد مضحك في عيني طفل : الذين صعدوا على السلالم نزلوا درجتين أو ثلاثاً كي لا يروا في تلك اللحظة الحاسمة ، لكنهم كانت ترى بين الفينة والفينة رؤوسهم الفضولية وهي ترتفع إلى

حذاء البلكون ! وجاء بعد هنيهة ، رجل صغير ، هو موظف ولا شكّ ، فوقف أمام العقيد وجرّب أن يرتفع إليه بأن انتصب على رأس قدميه . . . وهمس شيئاً في أذنه العقيد الذي ما زال واقفاً، إلا في فترات تنفّسه الضفدعية . وصفّق الرجل القصير بيديه فانتصب الناس جميعا واقفين وأعلن : « لقد رفض الطلب وردّ . اذهبوا ! » وسرى بين الجمهور شعور حقيقي بالراحة ، وابتعدوا جميعاً على عجل ، دون أن يعير أحد منهم اهتماماً خاصّاً بالعقيد وقد عاد كأي إنسان آخر حرفياً . وترك القضيبين يسقطان أرضاً ، وانهار مجهداً حقّاً في كنبة قدمها له موظف ، ووضع حالاً الغليون في فمه .

هذا الحدث ليس منعزلاً ، فشأن الأمور هو كذلك عادة . وقد يصادف أن يوافق العقيد على بعض الطلبات من هنا وهناك ، لكنه يبدو عليه حينئذ أنه يتصرّف من كونه ، باعتباره فرداً قوياً وربما خبّأ مثل هذه الأعمال عن الحكومة ، على ألاّ توجد أكيداً ! أوامر صريحة في هذا المجال ، وإنما ولا شكّ تبعاً للجوّ العام . وعينا العقيد ، هما في مدينتنا الصغيرة ، وبالقدر الذي نستطيع فيه الحكم ، أيضاً عينا الحكومة ، ما عدا فرق ضئيل لا نحيط به . لكن الشعب . يستطيع أن ينتظر الرفض دائماً في الشؤون الهامة . والغريب أنه ليس بوسعه أن يستغني عن هذا الرفض ، دون أن يكون التحرّك لطلب هذا الرفض إجراءً شكلياً ، مع ذلك . إنهم يذهبون دائماً بنفس الحماس ونفس الوقار ، كما أنهم يرجعون ، دونما عزاء وغير سعداء ، وهم فوق ذلك لا يعانون ، والحق ، أي إجهاد أو أدنى فتور في الهمّة . ولست بحاجة لأن استعلم في هذا الموضوع عند الآخرين ، ولا أحس بأدنى رغبة في البحث عن العلائق القائمة بين تلك الوقائع .

لكن يوجد ، تبعاً لملاحظاتي ، جيل غير راض ، من فتيان جسورين بين السابعة عشرة والعشرين تقريباً ، أي شبان صغار جدّاً ، وبالتالي بعيدين عن إدراك الأخطار التي تنجم عن أتفه فكر ، فكيف بالحريّ عن الفكر الثوري . فيما بين هؤلاء يتغلغل عدم الرضى .

عن معضلة القوانين

يجهل الشعب بمجموعه كل شيء عن القوانين ؛ فهي سرّ جماعة صغيرة من النبلاء ، تحكمنا . ونحن قانعون بأن تلك القوانين القديمة تطبّق بدقّة ، لكن

ياله عذاب عندما تحكمك قوانين تجهلها ! وأنا لا أفكرّ هنا أبداً بمختلف التفاسير التي تؤوّل بها ولا بمحاذير تفسيرها من قبل عدد صغير من أصحاب الأمتيازات من دون البلاد جميعاً . وربما لم تكن تلك المحاذير خطيرة ؟ لقد باتت هذه القوانين في غاية القدم ودأبت قرون على تفسيرها وصار هذا التفسير على قوّة القانون ! ومن الممكن أن توجد بعض الحرّية في التفسير ، إلاّ أنّ خطر هذه الحرّية محدود جدّاً وفوق ذلك ، فإن النبالة في تفسيرها ،ليست لها أية مصلحة أن تستلم للتأثير بها بما يضرّنا ، لأن القوانين لم توجد في الأصل إلا لفائدة النبالة وحدها ، هي التي فوق القوانين ! ولهذا وضع القانون ، على ما يبدو ، إطلاقاً بين أيدي النبالة . تدبير حكيم ولا شكّ (ومن يرتاب بحكمة القوانين القديمة ؟) لكنه قاس علينا ، ولو أنه لا محيص منه ولا ريب .

وليس بوسعنا ، عدا عن ذلك ، إلا أن نفترض وجود أشباه القوانين تلك ! التقليد قضى بأن توجد وبأن يعهد بها ، كسّر ، إلى النبالة ؛ غير أن هذا ليس ، ولا يمكن أن يكون إلا تقليداً عتيقاً ، ولو أن قدمه يمنحه بعض الصدق ، لأن طبع القوانين يقتضي السرية في محتواها . ولو أننا نحن ، ابناء الشعب ، اتبعنا من قلب العصور ، بانتباه ، خلق وتصرّف النبالة، لو أننا امتلكنا في هذا المجال ملاحظات الجدود واستمرينا فيها بنزاهة ، ولو أننا في زحمة الوقائع نعتقد أننا نتعرّف على بعض التوجيهات التي تسمح بأن نوافق على هذه أو تلك الرسالة التاريخية للنبالة ، ولـو أننا حـاولنا أن نستخلص بعـد الإنتقاء والتصنيف الدقيقين ، من استنتاجاتنا التعاليم لحياتنا الحاضرة والمقبلة ـ وهذا كلّه ليس سوى تلمسّ ، وربما لم يكن كله غير لعبة ذهنية : وتلك القوانين التي نجهد في أن نحزرها ، ألا يمكن ألا تكون بذات وجود ؟ وهذا ، واقعياً رأي حزب صغير يحاول أن يثبت أنه ، إذا كان قانون ، فإنه لا يمكن أن يكون إلا ما يلي : « يكون قانوناً ما تصنعه النبالة ». هذا الحزب لا يرى إلاّ أفعالاً كيفيّة من قبل النبالة ويرفض التقليد الشعبي ، الذي لا يعدو نفعه ، إذا آمنا برأيه ، نفع الصدفة الهزيل . وهو ينطوي ، في غالب الأحيان ، على عواقب خطيرة لما يمنح الشعب ، تجاه الأحداث المقبلة ، أمنا كاذباً خداعاً قد يؤدّي به إلى عدم التبصّر ! وليس بوسعنا أن ننكر هذه العاقبة التي تتفق عليها غالبية الشعب حين تتهم ثغرات التقليد ! فهو ما زال فيه شيء كثير للدراسة ؛ فعناصره الأساسية ، على الضخامة التي تظهر فيها ، هي بعيدة عن أن تكون كافية ، ولا بدّ لها من

قرون كي تصل إلى ذلك . هذه التصورات المظلمة عن الزمن الحاضر ، ينيرها الإيمان وحده بأن زمناً سوف يأتي ، يطلق فيه التقليد زفرة عزاء تضع النقطة النهائية في بحثه ! عندها يتضح كل شيء ويصبح القانون ملك الشعب وتختفي النبالة . ولا يداخل هذا الأمل أي حقد على النبالة ، أي حقد أبداً ، ومن قبل أي انسان ! ولربما حقدنا على أنفسنا إذا ظُنّ بنا أننا غير أهل للقانون ! وما بقاء هذا الحزب الذي لا يؤمن بأي قانون ضعيفاً هزيلاً ، بالرغم مما يوحيه من إغراء في بعض النواحي ، إلّا لأنه يقبل بالنبالة ويعترف بحقها في الوجود .

وليس بوسعنا أن نعبر عن كل هذا إلّا في نوع من المفارقة ! إن حزباً يلفظ بنفس الوقت الإيمان بالقوانين والنبالة ، يجد كل الشعب وراءه ، لكن هذا الحزب لن يوجد ولسبب وحيد هو أن أحداً لا يجرؤ على لفظ النبالة ! ونحن نعيش على هذا الحدّ من الموسى . ويلخص كاتب قديم هذا الوضع في الكلمات التالية : إن القانون الوحيد ، الظاهر ، الأكيد وحده ، الذي أملي علينا ، هو النبالة ! فكيف نسلب أنفسنا هذا القانون الوحيد ؟

جنودنا

أجهل من أين يأتي جنودنا بالضبط . من بعيد جدّاً على كل حال! إنهم يشبه بعضهم بعضاً شبها غريباً حتى تخالهم لباساً موحّداً . رجال صغار ، قوتهم أقل من نشاطهم ؛ أبرز ما فيهم ، قوة اسنانهم ، التي تخرج بوضوح من أفواههم ، ونوع القلق المرتعش في عيونهم المائلة . وهذا ما يجعل منهم رعب الأطفال ، وفرحهم أيضاً ، لأنهم لا يتعبون ، والحق ، من الخوف الذي يسببه هذا الفكّ وتلك العيون ، بله إطلاق الساقين للريح فراراً بعد ذلك ! رعب الطفولة هذا لا يضيع ولا شكّ عند البالغين ، فهو يوقظ فيهم صدىً ، على الأقل . لكن يوجد أيضاً ، شيء آخر ؛ فالجنود يتكلمون لهجة لا تفهم إطلاقاً ، ولا يستطيعون التعوّد على لهجتنا ومن هنا أتاهم هذا النوع من التعبير المغلق، والنوع من السلوك الممتنع، اللذين يعبّران عن طبعهم ، فهم صامتون ، وقورون ، متشنجون . وهم لا يسيئون إلى أحد ، لكنهم مع ذلك ، بمعنى الكلمة السيء ، لا يطاقون تقريباً . يدخل، مثلاً، جندي إلى دكان فيشتري سلعة هينة ، ويظلّ متكئاً على الكونتوار يصغي للأحاديث التي لا يفقهها على وجه التقدير ، ولو أنه يتخذ هيئة من يفهم ! وهو لا يفتح فمه ، بل يكتفي بالنظر الثابت إلى من يتكلم ، ويده طيلة الوقت ، على مقبض السكين الطويلة

التي تتدلّى من زنّاره . مخيف هذا ! يفقد معه المرء لذة الكلام ، ويفرغ الدكّان ، غير أن الجندي لا يخرج إلا آخر الخارجين . . . حيث يظهر الجنود ، يصمت شعبنا حالاً ، بالرغم من حيويته .

تجنيد العسكر

إن تجنيد العسكر الذي تمليه كثيراً معارك الحدود ، يتم بالطريقة التالية :

يظهر مرسوم يجب أن يبقى بموجبه في اليوم كذا والحيّ كذا من المدينة ، السكان من رجال ونساء وأطفال في بيوتهم دون تمييز .

تنتظر ، في مدخل الحيّ المومأ إليه مفرزة من الجنود المشاة والخيّالة ، منذ الفجر وصول النبيل الفتى ، المكلف بالتجنيد ، الذي لا يظهر عادة إلّا حوالي الظهر . إنه شاب نحيل ، صغير بعض الشيء ، سقيم ، مهمل الهندام ، متعب العينين ، يرتعش من قلق ، كمريض في حمّاه . يشير بسوطه وهو سلاحه الوحيد ! دون أن ينظر إلى أحد ، فينضم إليه بعض الجنود ويدخل إلى البيت الأوّل . ويقوم جندي ، يعرف شخصياً سكان الحيّ ، بقراءة قائمة المستأجرين . وهم ، يكونون بوجه عام في بيوتهم وقد اجتمعوا واصطفوا في غرفة ؛ وأخذوا يلتهمون النبيل الفتى بعيونهم ، كأنهم جنود من قبل ، وربما صدف أن يتغيب هنا أو هناك رجل عن النداء . في هذه الحال لا يجرؤ رجل على التعلل بعذر أو بالكذب نفسه . إنهم يصمتون ، ويخفضون عيونهم . إنهم يشقّ عليهم احتمال وزن العصيان الذي اقترف في البيت ، غير أن حضور النبيل الصامت يثبّت كلّا في مكانه . يقوم النبيل بإشارة ، ليست حتى بهزّة رأس ، لأنّما يجب أن يقرأ في عينيه ، ويبدأ جندیان البحث . والمهمة سهلة ، لأن الغائب لا يكون أبداً خارج البيت ، وليس التهرب من الخدمة الإحتياطية في نيته فعلاً . لقد ردّه الخجل وحده ، دون الخوف من الخدمة ، عن المجيء ، واكثر من ذلك خوفه من أن يظهر نفسه . والواقع أن الأمر كبير جدّاً عليه ، كبراً مدهشاً له ! فهو لا يستطيع المجيء بوسائله الخاصة . ولهذا السبب ، لا يفرّ ، يختبىء فحسب ، ولربما ترك مخبأه ، حين يسمع أن النبيل في البيت ، فانزلق حتى الباب ، حيث يمسك الجنديان حالا بقبّته ، عند خروجه . ويؤتى به إلى النبيل الذي يقبض على السوط بيديه ـ وما يستطيع بواحدة ؟ ـ ويضرب المجرم . وبعد هذا الذي لا يؤلم كثيراً ، يدع السوط وكانه متعب بقدر ما هو قرف ، فيلتقطه

المضروب ويناوله إيّاه . وعندها فحسب يصطفّ هذا مع الآخرين . وهو يكاد يكون على يقين بأنهم لن يأخذوه .

ولقد يحصل ، وهذا كثير ، أن يوجد من الأشخاص عدد اكبر مما تدلّ عليه القائمة . قد تحضر فتاة غريبة ، مثلاً ، وتنظر إلى النبيل ؛ وقد تكون أتت من الخارج ، ربما من الريف ، لأن تجنيد العسكر اجتذبها ؛ والعديد من النساء لا يعرفن كيف يقاوم إعلان التجنيد خارج قراهن ، فهو يرتدي فيها معنى آخر . والغريب أننا لا نرى عيباً في أن تدع المرأة هذه التجربة تقهرها ؛ بل إن بعضاً يذهب ، إلى أن المرأة يجب أن تمرّ بها ، فتلك ضريبة واجبة عليهنّ لجنسهم . والأمر يجري بالتالي على نفس الصورة تقريباً . تسمع الفتاة أو المرأة ، بأن تجنيداً للعسكر يجري في ناحية ما ، قد تكون جدّاً بعيدة ، عند بعض الأقرباء ، أو الأصدقاء . ترجو أهلها بالأذن لها بالذهاب فتؤذن ، لأنهم لا يستطيعون رفضا له . ويسعدها ذاك اكثر من أي وقت مضى ، فترتدي أجمل زينتها ؛ وتغدو أكثر مرحاً من العادة ، لكنها بنفس الوقت هادئة ولطيفة ، أيّاً كان طبعها ؛ وهي بالرغم من هدوئها ولطفها ، سهلة المنال ، كأنها غريبة ترجع إلى بيتها دون أن تفكرّ بشيء آخر . وهي تستقبل في العائلة التي يجري فيها التجنيد على غير ما يستقبل به الضيف العادي ؛ لها ما لا يناله سواها ، فهي يجب أن تزور غرف البيت جميعاً ، وأن تنحني في كل الشبابيك ؛ حتى إذا وضعت يدها على أحد الرؤوس ، كان لحركتها وزن البركة الأبوية ! وفي يوم التجنيد ، عندما تقوم العائلة باستعداداتها الأخيرة ، يقدّم لها ، عند الباب تماماً ، أفضل مكان ، حيث يراها النبيل على أحسن وجه وتراه هي على أحسن وجه . لكنها لا تكرّم بهذه الصورة إلاّ حتى دخول النبيل . وما تلبث بعدها أن تذبل حرفيّا . فالنبيل لا يراها خيرا من سواها ؛ فهو حتى حين يلتفت بعينيه إلى أحد ما ، يبدو لهذا الأخير أنه لا ينظر إليه . وهي لم تكن تنتظر ذلك . . . أو بالأحرى بلى ! لقد انتظرته أكيداً ، لأن الأمر لا يتم إلا على هذه الشاكلة . وما كان انتظار العكس هو الذي دفعها إلى هناك ، وإنما ما لا أعلم ما ، الذي يصل ، والحق ، إلى نهايته الآن . . . وربما كانت نساؤنا لا يعانين أبداً العار الذي تعانيه هذه الآن . إنها ساعتئذ تشعر شعوراً بيّناً بأنها تقدّمت إلى تجنيد غريب ؛ وعندما ينتهي الجنديّ من قراءة القائمة ، ولا يأتي على اسمها ، وفي لحظة الصمت التي تتلو ، تفرّ راجعة منحنية ، من الباب حيث تطالها في ظهرها لكمة الجندي الذي كان يقرأ النداء .

أما إذا كان الزائر رجلاً ، فإنه ليس له سوى رغبة واحدة ، ولو أنه ليس جزءاً من هذا البيت ، هي أن يؤخذ مع الآخرين . أمل وهمي ! لأن أحداً لم يسجّل أبداً زيادة ، مثل هذا الشيء لم يرَ أبداً ، ولن يرى . . .

نهاية النصوص

شعار المدينة

في البدء ، عندما شرعوا ببناء برج بابل ، سار كل شيء سيرة حسنة ؛ لا بل كان النظام أشدّ مما ينبغي ؛ كانوا يتحدثون عن علامات الإرشاد ، والتراجمة ، وسكن العمال وطرق الاتصال ؛ وكان يبدو أن لديهم قروناً للعمل بفكرته . أما الرأي العام ، فكان يجد أنهم لن يستطيعوا كل هذا الإبطاء ؛ ولو أنه دفع قليلاً أكثر لخافوا من حفر الأساسات .

وإليكم كيف كانوا يحاكمون الأمر ! إن أساس المشروع هو فكرة بناء برج يصل إلى السماء . وما عداها ، هو ثانوي . والفكرة عندما ندركها في عظمتها فإنها لا تستطيع أن تختفي أبداً : فما دام هنالك بشر استمرت الرغبة، الرغبة الحارة في اتمام بناء البرج . لقد وجب، إذن ، ألا ينشغل فكر أحد على المستقبل ، من هذه الناحية ؛ على العكس ، إن العلم الإنساني يزداد ، وقد حققت وسوف تحقق العمارة تقدماً ، وما يتطلب سنة عمل في عصرنا ، يمكن أن ينجز في ستة شهور ، بعد قرن ، وأن يكون أمتن . لماذا إذن نعطي اليوم أقصى طاقتنا ؟ هذا لا معنى له إلاّ إذا استطعنا أن نأمل ببناء البرج في جيل .

وهذا ما لا يجب أن يدخل في الحساب . والأكثر ائتلافا مع المنطق ، هو أن نتخيل بأن الجيل التالي ، سوف يمتلك معرفة أكمل ، ويحكم حكماً سيئاً على ما أنجز من شغل ، فيهدم عمل السلف ، ويبدأ نفقات أخرى .

كانت مثل هذه الأفكار تشلّ القوى ، وكان الأهتمام بناء المدينة العمالية ، اكثر من الأهتمام ببناء البرج . وكانت كل أمّة تريد أجمل حيّ ، مما نجم عنه شجارات انتهت بالدم .

وكانت لا تنقطع المعارك ؛ مما منح الزعيم حجة جديدة يثبت فيها ، أن البرج ، إذا لم يوجد التعاون ، لن يبنى إلا في بطء ، وأن ذلك أفضل عندما يحل السلام . لكنّ الوقت لم ينصرم كله في القتال ؛ فقد كانوا يشتغلون بين حربين في

تجميل المدينة ، وهذا ما كان يثير حسداً جديداً يتمخّض عن معارك جديدة وهكذا مرّ عصر الجيل الأوّل ؛ ولم يختلف منذئذ، شيء، إلا أن الخبرة وحدها كانت تزداد ، ومعها شهوة القتال . يضاف إلى ذلك أن جرى الأعتراف في الجيل الثاني أو الثالث بخطل بناء برج يطال السماء ، لكن علائق كثيرة نشأت في تلك البرهة لا يمكن معها ترك المدينة .

كل ما ولد فيها من أغان وأساطير امتلأ بالحنين إلى يوم نبوءة تسحقها فيه خمس ضربات من قبضة هائلة . خمس ضربات تتتابع متقاربة . ولهذا كان للمدينة قبضة في شعارها .

عن الرموز

كثيرون يشتكون من أن كلمات الحكماء ليست إلا صوراً، لا يمكن استخدامها في الحياة اليومية، ولو أنها الوحيدة التي لدينا. عندما يقول لنا الحكيم: «مرَّ» فإنه لا يريد أن يقول «إذهب من الناحية الأخرى»، وهو أمر بوسعك أن تفعله إذا كانت النتيجة تعدل الطريق؛ إنه يريد أن يتكلم عن آخرة ما خرافية، عن شيء نجهله، ولا يعرف كيف يدلّ عليه بدقة أكثر؛ عن شيء لا يستطيع، بالتالي، أن ينفعنا في الدنيا.

كل هذه الرموز تعني أخيراً أن اللا مدرك لا يمكن إدراكه؛ وكنا نعرف هذا. إن همّنا اليومي ينجم عن أشياء مختلفة جدّاً عن ذلك.

وعند هذا يسأل أحد ما:

- لماذا تقترفون؟ إنكم إذا انسجمتم مع الصور، تصبحون أنتم أنفسكم صوراً، وتتحررون بهذا من الهمّ اليومي.

ويقول آخر:

- أراهن أن هذا أيضاً صورة.

ويجيب الأول:

- لقد ربحت

ويقول الثاني:

ـ نعم لكن يا للأسف ! على مستوى الرمز وحده.

الأول:

ـ لا، في الواقع؛ خسرت رمزياً.

الحقيقة عن سانتشو بانتشا

لقد نجح سانتشو بانتشا، عبر السنين، دون تبجح منه، بالتهامه قصص قطاع الطرق وروايات الفروسية خلال الليالي والسهرات، إلى تحويل شيطانه عنه تماماً. ولقد أحسن تدبر الأمر حتى ان هذا ـ وقد سماه فيما بعد دون كيخوته ـ ارتمى منذئذ دون كابح في أكثر المغامرات جنوناً؛ وما كانت هذه لتضر بأحد ما عدا شيء مقدر ذاك عليه ولقد وجب أن يكون على وجه الدقة سانتشو بانتشا.

سانتشو بانتشا، وقد دفعه بعض شعور بالمسؤولية، سانتشو بانتشا الذي كان رجلاً مستقلاً، تبع بهدوء دون كيخوته في غزواته وحصل منها حتى آخر يوم في حياته على تسلية عظيمة ونافعة.

صمت جنيات البحر

إليكم الدليل على أن بعض ما لا يكفي من وسائل ـ بله الصبياني منها، يمكن أن تساعد في الخلاص:

سدّ أوليس أذنيه بالشمع وأمر بقيده إلى الصاري، كي تبقي جنّيات البحر. وكان بوسع السيّاح جميعاً، منذ الأبد، أن يفعلوا نفس الشيء، إلاّ من نادته الجنيّات من بعيد، لكن الناس كانوا يعرفون في العالم كله أن هذه الوسيلة غير ناجعة. كانت أغاني الجنيّات تنفذ من كل شيء، وكان بمكنة أهواء البشر الذين تغريهم أن تحطّم حواجز أعتى من السلاسل والصاري. لم يفكر بذلك أوليس. لقد وثق تماماً بقبضة الشمع، وبعدة السلاسل التي لديه، وذهب، وقد امتلأ فرحاً بريئاً، للقاء جنيات البحر.

لكن الجنيّات يملكن سلاحاً أفظع من غنائهن: هو صمتهنّ. وبوسعنا أن نتخيّل واقعة لم تحدث، لكنها معقولة، وهي أنّ أحداً ما نجا من غنائهن؛ أما من صمتهن فيقيناً لا. إن أي شيء أرضي لا يمكن أن يقاوم الشعور بأنه قهرهنّ، وبما لا يقاوم من غرور يولد منه.

والذي جرى، أن لما جاء أوليس، لم تغن المغنيات القادرات أبداً، إما لأنهن اعتقدن أن الصمت وحده يمكن أن يقهر مثل هذا الندّ، أو أن منظر الغبطة الذي ارتسم على وجه البطل، الذي كان لا يفكر إلا بشمعه وسلاسله جعلهن ينسين غناءهنّ.

لكن أوليس، لم يسمع صمتهن، بل ظنّ أنهنّ يغنين، وأنه وحده في منجاة من سماعهن. رأى أوّلاً أعناقهن التي تتموج، وصدورهن التي تتنهد، وعيونهن الملأى بالدموع، وأفواههن نصف المفتوحة؛ لكنه اعتقد أن هذا كله جزء من إيماء الأغاني التي لم يكن يسمعها.

وأمحى بعد قليل كل شيء من أمام عينيه اللتين وجههما إلى الأفق واختفت جنيات البحر تماماً في مواجهة قراره، وقبل أن يمرّ من أقرب مكان منهنّ، كان قد نسيهّن.

أمّا هنّ، وقد بتن أجمل من أي وقت مضى، فقد كنّ يتمطينّ، ويتقلبّن، ويدعن شعرهن وقد امتلأ زبداً يتطاير في الريح، ويرحن مخالبهن على الصخر. كن لا يحلمن إلا بالإغراء. كن لا يردن إلا أن يباغتن أطول ما يستطعن بريق عيني أوليس الكبيرتين.

لو أن جنيّات البحر أدركن لاختفين ذلك اليوم، لكنهنّ بقين؛ أوليس وحده نجا منهنّ.

والأسطورة تضيف على كل حال تذييلاً لهذه القصة. فتقول إن أوليس كان على خصب في الأختراعات وعلى مكر، لا يستطيع القدر معهما أن يقرأ ما في قلبه. وربما أن الأمر تجاوز الادراك الانساني، ربما أنه رأى فعلاً أن الجنيات سكتن وما فعل إلا أن تصنّع كي يجابههنّ، والآلهة، بالموقف الذي ذكرنا، وكأنه نوع من الترس.

بروموثيوس

تتحدث عن برموثيوس أربع أساطير:

حسب الأولى، حين خان الآلهة وسلم سرّها إلى البشر، قيّد في القوقاس، وأرسلت الآلهة النسور كي تقضم له كبده، غير أن هذا الكبد كان يولد دائماً.

حسب الثانية، في اختلاجات الألم التي كانت تسببها لبروموثيوس تلك البهائم التي تقضمه، دون وني، انغرز عميقاً في الصخر حتى بات وإياه واحداً.

حسب الثالثة، نُسيت خيانته عبر القرون: الآلهة نسيتها، والنسر، وهو أيضاً نسي.

حسب الرابعة، تعب الجميع من تعذيبٍ صار دون سبب. تعبت الآلهة، تعبت النسور، والجرح انغلق متعباً.

بقيت الصخرة التي لا تفسّر. الأسطورة تحاول تفسير ما لا يفسّر. وبما أنها تنبع من أساس من الحقيقة، فانها ترجع بالضرورة في نهاية المطاف إلى ما لا يفسّر.

الصياد جراكشوس

كان صبيّان جالسين على حائط رصيف يلعبان بالنرد. وكان رجل يقرأ جريدة على درج نصبٍ، في ظل البطل الذي امتشق سيفه. وكانت فتاة تملأ سطلها من السبيل. وكان بائع فواكه، اضطجع حدّ ميزانه، يسرّح نظره على البحيرة. ويرى في عمق خمارة، بابها مفتوح ونوافذها مشرعة، رجلين جلسا إلى طاولة أمام زجاجة خمر. وقد جلس صاحب المقهى إلى طاولة وهو يغفو. ودخل قارب صغير في المرفأ الصغير، خفيف السباحة، حتى لكأن المياه تحمله فوقها. ونزل إلى الأرض رجل في بلوزة زرقاء ومرّر القلس بالحلقة. وكان يتبعه رجلان في معطفين غامقين، زيّنا بأزرار من فضة، وهما يحملان محّفة يجب أن يكون عليها رجل تمدّد وقد غطّاه شال ذو أزهار من حرير ذي أهداب.

لم يهتم على الرصيف أحد بوصول القادمين الجدد؟ حتى بعد أن وضعا المحفة بانتظار الربان الذي ما زال يشتغل بالقلوس، ولم يقترب أحد، لم يسأل أحد، لم ينظر إليهم أحد من قريب.

ولقد أوقف البحار بعض لحظات، امرأة ظهرت على الجسر، شعرها محلول وعلى ثديها طفل. ثم جاء وأشار إلى بيت من طابقين، يميل لونه للصفرة، ويقوم على حافة الماء؛ وأخذ الحمالان حملها كي يدخلا تحت الباب الواطىء الذي يستند إلى عمودين ممشوقين. وفتح صبيّ نافذة، لم يسعفه الوقت إلا بلمح الجماعة وهي تختفي داخل البيت، فأغلق سريعاً. وانغلق الباب الكبير، الذي

كان من سنديان أسود، دقيق الصنعة. وحطّ سرب من الحمام أمام البيت، كان مشغولاً حتى الآن بالطيران حول قبة الناقوس. واستأنف أحدها طيرانه ثم جاء فحل على نافذة الطابق الأول ونقر البلّور بمنقاره. كانت تلك الطيور قاتمة اللون، معتنى بها ونشيطة. ورمت لها امرأة القارب بحركة قوية قبضة من الحبوب، نقرتها سريعاً وجاءت فحطّت حواليها.

ونزل رجل بقبعّة عالية، وساعدة حدادٍ، من أحد الدروب التي تؤدّي بانحدار شديد إلى المرفأ. كان يتطلع بانتباه حواليه؛ كل شيء يقلقه؛ بعض النفايات في زاوية، جعلته يكشّر. ولقد كانت بعض قشور الفواكه مبعثرة على درجات النصب؛ فكنسها في طريقه بعصاه. حين وصل إلى الباب قرعه بيده اليسرى وقد حمل قبعته العالية بيمناه وعليها قفّاز أسود. وانفتح الباب حالاً، وقد كوّن حوالى خمسين طفلاً حرساً انحنى على طول الرواق.

ونزل البحار الدرج، فحيّا السيّد، وقاده إلى الطابق الأوّل. وجعله يقوم بدورة في الباحة، التي تحيط بها مقاصير أنيقة، وتبعهما الأطفال وهم يحتشدون وراءهما على مسافة من حدود الاحترام؛ ودخلا قاعة كبرى باردة، لا يرى منها أي بيت وراء العمارة، إلاّ جدار صخرة عارية أسود. كان العتالان مشغولين بوضع وإيقاد بعض الشموع عند رأس الحفّة؛ لكن هذه العملية لم ينتج عنها أي نور؛ وما كان منها إلاّ أن نفرّت الأشباح النائمة حتى ئذ على الأرض فأرسلتها تتحرك على الحائط. ورفعوا الكفن، فظهر تحته جسد رجل، يمكن أن يتبادر انه صياد، شعره وذقنه أشعثان يحيطان بجلده البرونزي. كان يرقد دون حراك، دون نفس ظاهر، وعيناه مغمضتان؛ ومع ذلك فما كان سوى الجوّ مما ينبىء عنه أنه قد يكون ميتاً.

اقترب السيد من المحفة، فوضع يداً على جبين الرجل، وركع على ركبتيه وصلّى. وأشار البحار إلى الحمّالين بترك الغرفة؛ فخرجا وأغلقا وراءهما بعد أن طردا الأطفال الذين تجمعّوا على العتبة. غير أن السيد ظهر عليه أنه وجد الصمت غير كافٍ، فألقى نظرة على البحار الذي فهمه واختفى في الغرفة المجاورة عبر باب جانبيّ. عندها فتح الرجل الذي على المحفّة عينيه، ودار برأسه ناحية السيد بابتسامة أليمة وسأله:

- من أنت؟

ووقف السيد الذي كان على ركبتيه، دون دهشة وأجاب:

ـ محافظ ريفا.

ووافق رجل المحفّة، وأشار إلى مقعد وهو يمدّ ذراعاً واهنة، حتى إذا لبّى المحافظ دعوته قال:

ـ كنت أعرف ذاك، سيادة المحافظ، لكنّ ذاكرتي تظل دائماً فارغة للوهلة الأولى، ويدور كل شيء في رأسي، فكان من الأفضل أن أسأل، حتى عندما أعرف كل شيء. أنت أيضاً، تعرف ولا شكّ أني الصيّاد جراكشوس.

قال المحافظ: «طبعاً. لقد أتاني نبؤك هذه الليلة. كنا نائمين منذ وقت طويل. ربما كان منتصف الليل عندما نادتني امرأتي: سالفاتور ـ وهذا هو اسمي ـ انظر هذه الحمامة على النافذة. وكانت حقاً حمامة، ولو أنها أكبر من ديك. أتت إلي وقالت لي في أذني: «سوف يصل غداً، الصيّاد جراكشوس، الذي مات، فاستقبله باسم المدينة.»

وحنى الصيّاد رأسه ومرّ بطرف لسانه بين شفتيه. وقال:

ـ نعم. الحمام يتقدّمني. لكن هل تعتقد، سيادة المحافظ، أني يجب أن أبقى في ريفا؟

أجاب المحافظ: «ما زلت لا أستطيع الجواب. هل أنت ميت؟»

قال الصيّاد: «نعم. كما ترى. منذ بعيد، منذ سنين عديدة، لكن يجب أن تكون كميتها هائلة، سقطت من أعلى صخرة وأنا أطارد شامواه في الغابة السوداء ـ الغابة السوداء هي في المانيا ـ ومنذ ذلك الوقت وأنا ميت.

قال المحافظ: «لكنك ألا تعيش أيضاً على كل حال؟»

أجاب الصيّاد: «بصورة ما نعم، بصورة ما نعم، أعيش أيضاً. لقد أخطأ قارب موتي طريقه؛ حركة غلط من الدّفة، نداء ملحّ قليلاً من وطني البهيّ؛ ولا أعرف جيداً ما حصل، فالذي أعرفه، أني بقيت على الأرض، وأن قاربي، يطوف، منذئذ، على مياه أرضيّة. وهكذا، أنا الذي لم أرد أبداً الخروج من جبالي، أطوّف منذ موتي في كل بلاد الأرض.

وسأله المحافظ وقد قطب حاجبيه: «وليس لك أي دخل في الآخرة؟»

أجاب الصيّاد: «أنا دائماً على الدرج الذي يصعد إليها. أقضي وقتي أتسكّع على درجاته العظيمة، مرّة فوق، ومرّة تحت، يميناً، يساراً، دون ونى. لقد حال الصياد إلى فراشة. لا تضحك.

دافع المحافظ عن نفسه قائلاً: «أنا لا أضحك».

قال الصيّاد: «كلام حصيف. ليست لدّي أبداً لحظة راحة. وحينما أندفع بكل قواي، لما أرى الباب الكبير يلمع من أعلى، استيقظ على قاربي العتيق وقد توقف بائساً في أية مياه أرضيّة لا على التعيين. ويجيئني موتي القديم، وهو الفاسد من أساسه، فيتكأكأ علي في قمريتي. عندها تطرق بابي زوجة البحار وتحمل لي إلى محفتيّ شراب البلاد التي نحاذيها. وأنا أرقد على الخشب، مرآي لا يسر، كفني وسخ، شعري وذقني أشعثان، وقد اختلط فيهما الأسود بالأشيب، وغطي فخذاي بشال، شال من حرير أهدابه طويلة، شال ذي أزهار، شال امرأة. وتشتعل عند رأسي شمعة. وأمامي على الحائط، على صورة صغيرة، إفريقي، حسب ما أعلم، يسدّد لي حربة، ويختبىء وراء ترس مزين برسوم عظيمة. وقد نرى على المراكب كثيراً من الصور السخيفة، لكن هذه من أغباها أكيداً. ولولا هذان الشيئان لكان قفصي الخشبي فارغاً. ويدخل من كوة هواء ليالي الجنوب الحار، وأسمع الماء يلطم القارب العجوز.

«هناك أرقد منذ اليوم الذي سقطت فيه وأنا اطارد شامواهاً في بلادي، أنا الصياد جراكشوس الذي ما زلت حيّاً. لقد تم كل شيء بنظام. ركضت، سقطت، ضيعت دمي في مسيل، مت، وكان يجب أن يحملني القارب إلى الآخرة، وما زلت أذكر فرحي لما سمعتني للمرّة الأولى على الخشب. لم تسمعني أبداً الجبال أغني، كما أفعل بين هذه الحواجز المظلمة الأربعة.

«عشت في لذة، ومت بنفس الطريقة. رميت في فرح، قبل أن امتطي القارب، علبة البارود، والبندقية والجعبة التي حملت دائماً بافتخار، وارتديت كفني كما تلبس فتاة ثوب عرسها. ثم جاء الشقاء.

قال المحافظ وهو يرفع يده كأنه يبعد نحساً: «ميت حزين. أليس لك دخل في ذلك.».

قال الصيّاد: «أبداً. كنت صياداً، أهذا خطأ؟ عنيت صيّاداً في الغابة،

وكانت ما تزال فيها ذئاب. كنت أكمن، أطلق، أصيب، أسلخ، أهذا خطأ؟ كان عملي مباركاً. كانوا يدعونني «بصياد الغابة السوداء الكبير.» وأي سوء في هذا؟

قال المحافظ: «لست الذي يحكم في هذا الشأن. ولو أني لا أرى فيه مع ذلك، ما يشين. لكن خطأ من إذن؟

قال الصياد: «خطأ البحّار. إن أحداً لن يقرأ ما أكتب، إن أحداً لن يساعدني؛ وإذا قام أحد بواجب المجيء لمساعدتي بقيت كل البيوت مغلقة، كل الأبواب، كل النوافذ، يرقد كل امرىء في سريره، ورأسه تحت الغطاء؛ وتغدو الأرض جميعاً وليست سوى مهجع.

وهذا لا يحدث دون سبب، لأن أحداً لا يعرف شيئاً عني، ولو عرف أحد شيئاً، لما علم بالمكان الذي أوجد فيه، ولو علم لما استطاع الامساك بي فيه؛ فهو بالتالي لا يعرف كيف يساعدني. إن فكرة مساعدتي هي مرض؛ تجب العناية بها في السرير. وأعرف ذلك، وبما أني أعرفه، أعزف عن الاستنجاد، حتى لوحلمت بذلك بعنف، أنا الذي لا أسيطر على نفسي إلا قليلاً، كما ترى. يكفيني لطرد هذه الفكرة أن انظر حولي، وأن أتصوّر أين أنا، وأين ـ وأستطيع أن أؤكد ـ أسكن منذ مئات السنين.

قال المحافظ: «عجيب. عجيب. والآن هل تنوي البقاء عندنا في ريفا؟»

قال الصياد وهو يبتسم وقد وضع يده على ركبة المحافظ كي يمنعه من الغضب لنكته: «لا أنوي. أنا هنا، ولا أعرف أكثر من ذلك، وليس بوسعي أن أفعل أكثر. قاربي دون دفّة، يسير مع الريح التي تهبّ في أعمق مناطق الموت.».

طرقة على باب دارة[1]

كان ذلك صيفاً. كنت راجعاً إلى البيت وأختي، فمررت أمام باب دارة. ولا أدري عن نزوة أم تسلية، طرقت ذلك الباب، بل ربما أنها لم تفعل غير أن هددته بقبضتها.

وعلى بعد مائة خطوة بدأت القرية على حافة الطريق الذي ينعطف يساراً.

(١) دارة: domaine

لم نكن نعرفها، غير أننا، ما كدنا نتجاوز البيت الأول، حتى رأينا ناساً خائفين يخرجون، وقد انحنت ظهورهم رعباً ووجهوا إلينا إشارات صداقة أو عتاب. كانوا يشيرون إلى الدارة التي مررنا من أمامها ويذكروننا بطرقة الباب: سوف يشتكي المالكون، ويبدأ التحقيق.

كنت في غاية الهدوء وطمأنت أيضاً أختي. إنها لم تطرق على الأرجح، وماذا لو أنها فعلت، فالتحقيق لا يجري في مثل هذه القضية في أي مكان من العالم. هذا ما جربت أن أفهمه للناس، وكانوا يصغون إليّ دون أن يبدوا رأيهم.

بعد هذا، قالوا لنا إن أختي ليست وحدها متهمة، بل أنا أيضاً. وهززت برأسي مبتسماً. كنا ننظر جميعاً إلى وراء، صوب الدارة، كمن يراقب في البعيد غيمة دخان وهو ينتظر اللهب. ولقد رأينا، بالواقع، بعد قليل خيّالة يدخلون الباحة المفتوحة على مصراعيها. كانوا يثيرون غباراً يستر كل شيء، فلا يرى منه غير حديد رماحهم العالية ظاهراً. وما كادت تندفع الجماعة في الباحة حتى بدا لنا أنها دارت بأعنتها: ولقد أخذت تزحف علينا.

وأبعدت أختي حالاً وأنا أقول لها أني سأسوّي الأمر كله. فرفضت أن تتركني وحدي. شرحت لها أن يجب على الأقل أن تبدّل ثيابها كي تتقدم بما يليق أمام هؤلاء السادة. وانتهت إلى أن تصغي إلي وسارت على الطريق إلى بيتنا البعيد.

لقد بات الخيالة فوقنا، واستعلموا عن أختي من فوق خيولهم. قيل لهم في خوف، أنها ليست هنا، وأنها لن تلبث أن تجيء. استقبلوا الجواب بهيئة لا مبالية تقريباً؛ كان يبدو أن الأساسي هو أنهم وجدوني. كان هنالك سيدان، القاضي، وهو شاب حاد الحركات، ومساعده الهادىء الذي يدعى أسمان. أمرت ان أدخل إلى قاعة الدارة. فسلكت الطريق في بطء، وأنا أهز رأسي، وأشد شيّال بنطالي، تحت عيونهم الفاحصة. كنت ما أزال قريباً من التفكير بأن كلمة بسيطة تكفي كي يطلقوا سراحي مع المراسم الحربية، أنا إنسان المدن، سجين تلك العصبة من الفلاحين. لكني عندما اجتزت عتبة الغرفة، قال القاضي الذي تقدم على غيره، وقد كان ينتظرني:

- هذا الرجل يحزنني.

أنه لم يشفق على حالتي الحاضرة، وإنما من أجل المصير الذي يترقبني، وليس لي في ذلك أدنى شك.

كانت الغرفة على هيئة زنزانة أكثر منها قاعة مزرعة. بلاطات كبيرة، وجدران قاتم وعارٍ، وحلقة من حديد وضعت في ناحية ما، وفي الوسط شيء يشبه سرير المعسكر وطاولة العمليات.

أسوف أتنفّس أبداً شيئاً غير هواء السجن؟ ذلك هو السؤال الضخم، أو أنه سوف يصبح كذلك إذا بقي لي أي أمل في إطلاق سراحي.

تصالب

أملك بهيمة عجيبة، نصف قط صغير، ونصف حمل. ورثتها عن أبي. غير أنها لم تكبر إلا في أيامي؛ ولقد كانت من قبل حملاً أكثر منها قطاً. والآن تنتسب إلى الاثنين بالتساوي. لها رأس القط ومخالبه، ومن الخروف قامته وصورته؛ ومن الاثنين العينان، الزائغتان الوحشيتان، والجزّة الناعمة القصيرة، والحركات التي يمكن أن تكون قفزاً أو دبيباً. وهي تخرّ تحت الشمس، على حافة النافذة وتقوس ظهرها، وتعدو في الحقول كمجنونه، حتى ليصعب إدراكها. أمام القط تفرّ، أمام الحمل تهجم. في ضوء القمر تتنزه على المزاريب، فهي طريقها الأثيرة. وهي لا تعرف كيف تموء، وتكرهها الجرذان. وبوسعها أن تضطجع ساعات، في كمين، قرب خمّ الدجاج، لكنها لم تستغل أبداً الفرصة لقتل الطير.

أغذيها بالحليب المحلّى، فهو أفضل (ريجيم) يناسبها. تمرره جرعات طويلة على أنيابها اللاحمة وتلك (فرجة) عظيمة، طبعاً، عند الأطفال. وهم يأتون الأحد صباحاً. فأمسك بالبهيمة الصغيرة على ركبتي، وكل أطفال الجوار حولي في حلقة.

عندها نستطيع أن نسمع أغرب الأسئلة؛ من تلك الأسئلة التي لا يستطيع أحد الجواب عليها: لماذا لا توجد إلا بهيمة واحدة من هذا النوع؟ ولماذا كنت من يمتلكها؟ هل وجد قبلها حيوان من نفس النوع؟ ما سوف يحدث بعد موتها؟ هل تحس بأنها وحيدة؟ لماذا ليست لها صغار؟ ما اسمها؟

ولا أكلف نفسي عناء الجواب، أكتفي بإظهار ما لديّ. وفي بعض الأحيان يأتينا الأطفال بقطط، وذات مرّة جاؤوا بحملين. لكن هذه اللقاءات، لم

تحرك، خلافاً لما كانوا ينتظرون، أي مشهد تعارف. لقد تأملت البهائم بعضها بعضاً بعيونها الحيوانية في أكبر هدوء؛ واعتبرت أن وجود كل منها من مسّلمات الخلق.

على ركبتي، تجهل البهيمة الخوف والعدوان. إنها تحسّ بأنها على أفضل ما تكون وهي معي، تلتصق بي. وهي تتعلق بالعائلة التي ربّتها. وليس هذا عن وفاء خارق، وإنما غريزة حيوان أكيدة، ربما لم يجد رفيقاً واحداً في العالم، بالرغم مما له من عديد الأقرباء، فبات يعتبر، بالتالي، الحماية التي لقيها عندنا مقدّسة.

لا أستطيع أن أدفع نفسي عن الضحك عندما أراها تشمّ أسفل بنطالي، وتتأوّد كي تمرّ من بين فخذي، ولا تستطيع أن تنتزع نفسها منّي. ويبدو أنها ليست مسرورة من كونها حملاً وقطّاً، وتريد أن تكون كلباً! وذات يوم لم أستطع فيه حلّ مشاكلي التجارية والمعضلات التي تتعلّق بها، - أمر يحدث لكل إنسان - وأردت أن أدع كل شيء على هواه، وأخذت أتأرجح في كنبتي والبهيمة على ركبتي، فرأيت، حين خفضت رأسي، الدموع تسيل من شاربها الكبير. هل كانت تلك دموعي؟ أم كانت دموعها؟ ذاك القط الذي له روح حمل، هل كان يمتلك أيضا طموحا انسانياً؟ . . . أنا لم أرث أشياء كثيرة عن أبي، لكن بوسعي أن أعلن عن هذه.

بهيمتي تجمع بين نوعين من القلق، قلق القط وقلق الحمل، رغم الاختلاف بينهما. وهي تجد نفسها في ضيق في جلدها. أحياناً تقفز إلى قربي على كرسي، وتضع قائمتيها الأماميتين على كتفي وتلصق خطمها على أذني. كأنها تكلمني، والواقع، أنها بعد هذه الحركة، تنحني إلى أمام وتلاحظ عيني كأنها تقرأ الأثر الذي نجم عن اتصالها بي. وأتظاهر أنا، كي أفرحها، بأني فهمت وأوافق بهزّ الرأس. عندها تقفز إلى الأرض وترقص حولي.

ربما كانت سكين الجزّار إنقاذاً لها، لكنّي يجب أن أحرمها منها. أليست إرثاً؟ يجب عليها أن تنتظر إذن اليوم الذي تنطفىء فيه، من نفسها، بالرغم من أنها تنظر إلي أحياناً بعينين انسانيتين، عينين ذكيتين، تتضرعان طلباً لذلك العمل المعقول.

الجسر

كنت متصلّباً وبارداً، كنت جسراً، كنت أمرّ من فوق هوّة. رأس قدمي

كان ينغرز من جهة، وفي الأخرى تدخل يداي في الأرض؛ وتعلّقت بكل أسناني بالفخّار الذي كان يتفتّت. وكان يصطفق ذيلا سترتي على جنبيّ. وفي عمق الهاوية يسمع هدير ماء السيل الجليدي الذي تحبه أسماك التروتة. لم يضل أي سائح في تلك الأعالي المستحيلة، ولم تذكر أية خريطة الجسر.

كنت هناك إذن أنتظر، وكنت مكرهاً على الانتظار. إن الجسر إذا قام، ولم ينخسف، لا ينقطع عن أن يظلّ جسراً.

ذات يوم، وقد حلّ المساء ـ كان الأول، أم الألف، لا أدري ـ كان دولاب أفكاري يدور في صخب. عند المساء، في الصيف، في الساعة التي يهدر فيها السيل في قتام أشدّ، سمعت خطى رجل آتية. كان يقترب، صار هنا. مدّ نفسك، يا جسر، تماسك، يا عارضة بلا حاجز، لا تدع للسقوط من عُهِدَ به إليك، وازن خفيةً تعثّر خطوه، أمّا إذا ترنح فأعلن عن نفسك، وأقذفه على الأرض، كأنك إله من آلهة الجبال.

وجاء، فجسّني بعصاه ذات الحديد ورفع ذيلي سترتي برأسها وطواهما على ظهري. وطاف بعصاه الماضية في شعري الكث وتركها فيه طويلاً فيما كان ينظر، على الأرجح، بهيئة وحشية حواليه؛ وكان حلمي يتبع حلمه وراء الجبال والسهول، عندما قفز فجأة وقد ضمّ قدمي على كليتيّ. ارتعدت من ألم فظيع؛ لأني لم أكن أرتاب بشيء. من كان هذا؟ طفلاً؟ حلماً؟ قاطع طريق؟ يائساً؟ غاوياً؟ مدمّراً؟ التفتّ كي أراه.

جسر يلتفت! وما كدت انتهي حتى سقطت، انخسفت، تحطّمت وخوزقتني الحصا الحادّة التي كانت تنظر إليّ دائماً في هدوء حتى الآن من قلب المياه الجامحة.

حكاية صغيرة

قالت الفأرة: «يا للأسف! يزداد العالم ضيقاً كل يوم. كان كبيراً من قبل حتى لقد خفت، وركضت، ركضت، وسررت حين رأيت أخيراً، الجدران تنبثق في الأفق من كل جهة، غير أن هذه الجدران الطويلة تركض سريعاً كي يلتقي بعضها ببعض وإذا بي في آخر غرفة، كما أرى هناك مصيدة سوف أسقط فيها.»

ـ كان عليك أن تبدّلي الاتجاه، قال القطّ وهو يمزّقها.

عائق يومي

إنه حدث يومي: يحمل معه كل يوم نفس الفوضى.

يجب على أ. أن يسوّي قضية هامّة مع ب. الذي يسكن في هـ. يذهب إذن إلى هـ. كي يجري مفاوضات أوّلية، فيقضي في كل من الذهاب والإياب عشر دقائق، ويعتز في بيته بسرعته.

وفي الغد يرجع إلى هـ. من أجل أن يعقد الصفقة هذه المرّة. وهو يغادر البيت في الصباح الباكر، لأنه يتنبأ بمناقشة تطول عدّة ساعات. وبالرغم من أن الظروف لم تتبدل منذ البارحة- وهذا حكم أ. على الأقل- فانه بحاجة، في ذلك اليوم، إلى عشر ساعات لقطع المسافة. وعندما وصل مساء إلى هـ. وهو متعب، قيل له أن ب. وقد غضب لأنه لم يأت، ذهب من نصف ساعة كي يبحث عنه في بيته. ونصح أ. بأن ينتظره. لكن أ. وقد خاف على تجارته، استعجل بالرجوع إلى مسكنه.

هذه المرّة، ودون أن يريد، قطع الطريق بطرفة عين. ولما وصل بيته، علم أن ب. قدم في ساعة مبكّرة، أي تماماً في اللحظة التي ذهب فيها هو أ. نفسه، بل أن ب. التقى به على عتبة الباب، وأنه ذكرّه بتجارتهما، لكن أ. أجابه بأنه لا وقت عنده للحديث فيها لأنه على غاية العجلة للذهاب.

ولقد أضيف له، أنه بالرغم من موقف أ. هذا الذي لا يدرك، فقد بقي ب. ينتظره. وسأل كثيراً إن كان أ. قد رجع، وهو ما زال ينتظر في غرفة أ.

وفرح أ. لتمكنه من الحديث مع ب. وشرح كل القضية له، فصعد الدرج اثنتين اثنتين. وعندما شارف الهدف تعثر، أصيب بالتواء، وكاد يغمى عليه ألماً، وبات غير مستطيع صياحاً، ولا قادراً إلا على إطلاق بعض التنهدات النائحة في العتمة، ثم سمع ب. - قريباً جدّاً؟ بعيداً جدّاً - ينزل الدرج مغضباً ويختفي للأبد.

راكباً على سطل فحم

انتهى الفحم، فالسطل فارغ، والرفش لا يعني شيئاً؛ ويهبّ من المدفأة جليد، وانتفخت الغرفة برداً؛ كما ترى من النافذة الأشجار وقد تصلبت من

صقيع؛ وما السماء غير ترس من فضّة يجابه كل الصلوات. وأنا بحاجة مع ذلك للفحم، لأني ما زلت لا حقّ لي بأن اتجلّد. وورائي المدفأة التي لا ترحم؛ وأمامي السماء التي لا ترحم أيضاً؛ وأنا يجب أن أمرّ على سراط بينهما كي أذهب إلى الفحام طلباً لنجدته. لكنه سئم للأسف التماساتي العادية. يجب أن أثبت له بـ (أ) زائدة (ب) أني ليست لدي أية ذرّة وَقيدٍ، وأنه بوسعه أن يكون عندي الشمس في القبة الزرقاء. يجب أن أصل مثل الشحاذ الذي يريد أن يموت على عتبة الباب وهو يحشرج جوعاً، علّ الطبّاخة تقنع فتلقمه آخر ثفل القهوة؛ أما عنيّ أنا، فيجب على الفحّام المغضب، ولكنه يسحره وضوح الوصية القائلة: «لن تقتل أبداً»، أن يرمي ملءِ الرفش في سطلي.

يجب أن يقرّر منذ أن يراني؛ سوف أذهب إليه راكباً على السطل. راكباً على سطل الفحم، ويدي فوق، على العروة، أسهل الأعنّة، نزلت الدرج بصعوبة؛ لكننا عندما صرنا تحت، ارتفع السطل؛ رائعاً، رائعاً؛ إن الجمال النائمة على الأرض لا ترتفع بمثل هذا البهاء وهي تهتزّ تحت عصا السائق. في الشارع المتجلّد، خبب منتظم؛ وأصعد أحياناً حتى الطابق الأوّل، لكنّي لا أنزل أبداً حتى الأبواب. لم أصعد عمري إلى مثل هذا العلوّ، أمام قبّة قبو الفحّام، الذي كان متربعاً يكتب على طاولته الصغيرة، في طرف كهفه، وقد ترك الباب مفتوحاً كي يطرد زيادة الحرارة.

قلت له صائحاً، في غيمة نفسي، بصوت جعله البرد أجشّ: «يا فحام، اسمح يا فحّام أن تعطيني قليلاً من الفحم. بات سطلي فارغاً حتى لأستطيع استخدامه حصاناً. ارأف بي. سأدفع لك منذ ما أستطيع».

وضع البائع يده كبويق على أذنه. وسأل وهو يلتفت ناحية امرأته التي تحبك على مقعد المدفأة: «هل سمعت جيّداً؟ هل سمعت جيّداً؟ زبون!»

- لم أسمع شيئاً، قالت المرأة وقد تنفّست بهدوء، دون أن تترك صنارتيها، وظهرها إلى المدفأة وقد سخنت بلطف.

قلت صائحاً: «بلى! بلى! إنه أنا؛ زبون قديم، مخلص، أمين؛ لكني دون مال في هذه الفترة.

قال الفحّام: «يا امرأة، يوجد أحد ما أقول لك؛ إني لا يمكن أن أخطىء

إلى هذا الحدّ؛ يجب أن يكون زبوناً قديماً، بل زبوناً قديماً جدّاً حتى يعرف كيف يجد هذه اللهجة.»

قالت امرأته، وهي ترتاح قليلاً وتضغط شغل الحبك على قلبها: «ماذا جرى لك؟ ما من أحد، والشارع خال وقد خدمنا كل زبائننا. ونستطيع أن نغلق أياماً ونرتاح.

قلت صائحاً، وقد حجبت بؤبؤي عينيّ دموع برد قاسية: «ألا ترياني إذن على سطل الفحم؟ ارفعا عينيكما، انظرا اذن من هنا، فسترياني. أطلب منكما ملء رفش بسيط؛ فان أعطيتموني ملأه مرتين، جعلتماني أجنّ فرحاً. ألم يأخذ كل زبائنكم كفايتهم؟ آه! كأني أسمعه يرنّ في أسفل سطلي!

ـ ها أنا قادم، قال الفحّام، وهو يستعد لصعود الدرج على فخذيه القصيرتين، لما لحقت به امرأته، وقبضت على ذراعه فقالت:

ـ سوف تبقى. إذا عاندت سوف، أذهب أنا. اذكر سعالك السيء هذه الليلة. إنك من أجل أدنى قضيّة، بل أكثرها وهماً، تنسى المرأة والولد، وتدوس على رئتيك... أنا ذاهبة إليه.

ـ إذن قولي له كل الأنواع التي لدينا في المخزن. سأصيح لك بالأسعار.

ـ سمعاً، قالت المرأة، وصعدت حتى الشارع. طبعاً، رأتني حالاً.

قلت لها: «خادمك، سيدتي الفحّامة. ملء رفش بسيط من الفحم. هاك سطلي. سوف أحمله أنا إلى بيتي. ملء رفش من أسوأ الفحم... واضح أني سأدفع الثمن، كاملاً، لكن ليس الساعة.

أي صوت ناقوس تخلق هاتان الكلمتان: ليس الساعة! وليختلط بصورة مزعجة بالأصوات التي يتلوها في هذه اللحظة الناقوس القريب!

سأل الفحّام من تحت: «ماذا يريد، إذن؟»

أجابت أمرأته: «لا شيء. إنه لا شيء. لا أرى شيئاً، لا أسمع شيئاً. دقت الساعة السادسة، هذا كل شيء؛ ونغلق الباب. البرد شنيع؛ وغداً عندنا أكيداً شغل كثير.

إنها لا ترى شيئاً. إنها لا تسمع شيئاً؛ لكنها حلّت مع ذلك أربطة وزرتها

ولوحت بها كي تطردني. ولقد توصلت إلى بغيتها، يا للأسف! إن سطلي له كل صفات جيّد الخيل الركوبة؛ تنقصه المقاومة؛ يجد نفسه خفيفاً جدّاً، يكفيه هواء وزرة امرأة كي يغادر الأرض.

اتسع لدي الوقت كي أقذف الفحّامة بقولي: «خبيثة!» فيما كانت تلتفت ناحية الدكّان وتهزّ يدها في الهواء بحركة احتقار ورضى؛ «خبيثة! طلبت منك ملء رفش من أسوأ فحمك، ورفضتيه لي! وعلى هذا أطير إلى بلاد الجبال الثلجية، كي أضيع فيها إلى الأبد.»

الزوجان

التجارة في بوار شديد حتى لأحمل حفظة العيّنات، عندما لا يوجد لدي عمل في المكتب، كي أزور الزبائن بنفسي. ولقد نويت منذ زمن بعيد أن أمرّ بـ (ن) الذي عقدت معه من قبل صلات دائمة ولو أننا شبه انقطعنا عن التراسل في العام الماضي لأسباب لا أعرفها. على كل حال لا تقتضي الحاجة لتفسير هذه التغيرات أسباباً خاصّة. ففي تقلّب الشروط الحالية، يكفي اللاشيء، أو نزوة، لقلب وضع ما، كما أن اللاشيء، أو كلمة بسيطة، لتدارك كل شيء. لكني يشقّ علي للأسف أن أذهب فأقدّم نفسي لـ (ن). فهو شيخ أبلاه المرض بشدة في الأيام الأخيرة، وهو لا يأتي أبداً تقريباً إلى مكتبه، مع أنه ما زال يمسك بعنان تجارته. وعندما تريد أن تتحدث إليه يجب أن تذهب إلى عنده، وفي التجارة نمقتاللجوء إلى مثل هذا الإجراء.

مع ذلك عزمت البارحة مساءً، بعد الساعة السادسة، على أن أذهب لرؤيته. ولم تكن تلك بساعةزيارة، لكن المسألة لا تطرح على المستوى الاجتماعي وإنما تطرح على المستوى التجاري. ولاءمني الحظ. كان (ن) في بيته؛ فقد رجع للتوّ من نزهة مع زوجته، حسب ما قيل لي عند الباب، وكان آنئذ عند وسادة ابنه الذي لزم الفراش. ودعوني للأنضمام إليه. وبعد أن ترددت لحظة، لبيت الرغبة في أن أنجز، وعلى أسرع ما أستطيع، مقابلة، تثقل علي، وأدخلت كما كنت، بمعطفي، وقبعتي، ومحفظة العيّنات، إلى غرفة ضعيفة الإنارة، في طرف رواق معتم، التأم فيها اجتماع صغير.

ووقع نظري، غريزيّاً ولا شك، على عميل تجاري، أعرفه أكثر من اللزوم، لأنه يزاحمني بعض الشيء. وقد نجح هذه المرّة أيضاً بأن يتسلل إلى بيت

السيّد (ن) قبلي. وقد حلّ قريباً من سرير المريض، على أقرب مسافة مواتية، وكأنّه الطبيب. كان يجلس كعظيم في هذا العالم، في معطف رائع، هامّ، محلول الأزرار. إن وقاحة هذا الكائن تفوق الخيال. وقد يكون حكم المريض حكمي عليه؛ كانت الحمّى تلوِّن قليلاً وجهه فيما يلقي من فينة لأخرى نظرة على الزائر. ولم يكن هذا الابن بالفتى، فهو رجل من عمري، وقد أهملت كثيراً ذقنه التي كِعقْدٍ منذ مرضه.

ما زال العجوز (ن) عريضاً وطويلاً، لكن مرضه اللئيم جعل منه، لعظيم دهشتي، شيخاً نحيلاً، راجفاً منحنياً، ما زال العجوز (ن) في البزّة التي كان يلبسها لدى عودته؛ لم يخلع معطف فروه، وهو يتمتم بما لا أدري لابنه. أما زوجته الضئيلة القامة، هشّتها، الشديدة الحيوية ولو أن هذه الحيوية لا تتعلق إلا بزوجها ـ كانت ما تكاد تنظر للآخرين ـ فقد انشغلت بنزع فروته عنه؛ ولو أن مهمتها ما كانت تنتهي دون جهد ـ فهما على قامتين شديدتي التباين ـ غير أنها انتهت إلى نجاح. وربما نجمت أسوأ الصعوبة في الحقيقة عن قلة اصطبار (ن) الذي ما كان ينقطع عن طلب كنبته في حركات من يتلمّسها. وأسرعت السيدة (ن) فأتته بها منذ أن أراحته من معطفه. وأخذت الفروة، وحملتها وقد كادت تختفي جميعاً تحتها.

وخيل لي أن لحظة الكلام جاءت، أو بالأحرى، خيل لي أنها لم تجيء أبداً، وأنها لن تأتي أبداً. ولقد وجب علي أن أبادر للتوّ، إذا أردت أن أجرّب حظّي، لأني أحسست أن المناقشة في الأعمال لا تندرج إلا في شروط أسوأ فأسوأ. أمّا عن الالتصاق هنا إلى الأبد، شأن العميل الذي بدا عليه أنه يميل إلى ذلك، فما كان أبداً من سيرتي. كما أني لم أكنِ أريد أن أحسب له أي حساب. وبدأت اذن دون أية شكليات، بعرض قضيتي الصغيرة، ولو أنه كان واضحاً، أن السيد (ن) يريد التحدّث إلى ابنه.

ولقد جريت على عادة بائسة، وهي أني عندما أتحمس قليلاً في خطابي ـ وهذا ما حدث بأسرع من العادة في غرفة المريض تلك ـ أن أقف وأزرع المكان جيئة وذهاباً. في مكتبي، لا بأس؛ أما عند الآخرين فهو أمر مزعج. لم أستطع أن أمسك نفسي مع ذلك، وبخاصة لأني اشتقت لسيكارتي المعتادة.

دعنا منها. لكل امرىء نقائصه، وإني لأهنىّء نفسي إذا قارنتها بنقائص

ندّي. ماذا أفكر به، مثلاً، عندما أراه يلبس قبعته فجأة. بعد أن قلّبها في بطء على ركبتيه، خلال ساعات؟ وهو يرفعها حالاً ولا شكّ، كما لو أنه ارتداها عن نسيان، مع أنه احتفظ بها لحظة، وتلك حركة يكررها. وأنا لا يزعجني ذلك شخصياً، فإني لا أرى شيئاً؛ ما دمت انصرفت لخطابي. لكن هنالك أشخاص تخرجهم هذه البلهوانية عن طورهم.

والحق أني، في حرارة تظاهرتي، لم تفتني وقاحة رجلي فحسب، بل لم انتبه لأي شيء. ورأيت، بالرغم من كل شيء، ما دمت لم انته ولم اسمع اعتراضاً إيجابياً، أن فكري لا يسجّل. وهكذا لاحظت جيّداً أن السيد (ن) لم يكن قادراً على الاصغاء؛ فقد وضع يديه على ساعدي الكنبة وأخذ يتقلّب يمنة ويسرة، وبدا عليه الضيق، وأخذ، بدلاً من النظر إليّ، يطوّف في الفراغ عينين دون تعبير كأنه لم يسمع أية كلمة من خطابي وأنه يجهل وجودي؛ ولقد تبينت هذا الموقف المريض الذي لم يدع لي كبير أمل، لكني استمريت بالكلام كأني استطيع استدراك أمري بالكلام والعروض المجزية (وكنت أحسّ بي خائفاً مما قمت به من تنازلات لم يطلبها مني أحد). وداخلني أيضاً بعض الرضى حين لاحظت عرضاً أن مزاحمي ترك أخيراً قبعته هادئة، وصالب ذراعيه؛ وبدا لي أن عرضي، وقد ظنّ هو أن بعضه محسوب، أصاب مشاريعه بضربة بالغة. وكان بوسعي، لما واتاني من هناء، أن أخطب طويلاً، لولا أن الابن الذي أهملت حتى ئذ على أنه ثانوي في المناقشة، نهض نصف نهضة في سريره وهددني بقبضته كي يحضّني على الانتهاء من خطابي. كان واضحاً أنه يريد أن يقول شيئاً، أنه يريد أن يدلّ على شيء، لكنّه لم تكن لديه القوّة. وظننت للوهلة الأولى أنه دوار الحمى؛ لكني لما ألقيت، صدفة، نظري على العجوز (ن) فهمت الحالة أفضل.

لقد انهار (ن) على كرسيّه ونظر إلى الفراغ بعينين زجاجيتين اتسعتا وباتتا دون نفع غير دقيقة واحدة. كان يهتز، وقد انحنى ظهره، ومال رأسه كأن أحداً يمسك بنقرته أو يضربه عليها؛ وتدلت شفته السفلى، ما أقول، فكّه كله، كاشفاً عن اللثة، وأخذ ينحلّ الوجه. كان ما يزال يتنفّس ولو بصعوبة؛ ثم سقط بعد ذلك على مسند الكنبة، كأنه تحرّر، وأغلق عينيه، ورأينا على وجهه أن قد مرّ التعبير عن جهد عنيف وكانت الخاتمة.

قفزت إلى جانبه، أخذت يده الرخوة الباردة التي اخترقتني برعشة: لا نبض؛ انتهى كل شيء. كان واضحاً أنه رجل عجوز؛ ولكن نتمنى ألا يكون

موتنا أصعب من موته، لكن كم من أشياء يجب أن نعمل؟ ومن أين نبدأ؟ عيناي كانتا تبحثان عن عون؛ فيما يندّ عن الابن البائس، الذي ردّ الغطاء على رأسه، نحيب طويل؛ أما مزاحمي، البارد كسمكة، فقد ظلّ في كنبة، أمام (ن)، على خطوتين منه، في عزم واضح على ألاّ يفعل شيئاً سوى انتظار مضيّ الوقت. لم يكن من أحد غيري بوسعه أن يحاول شيئاً وقد وجب علي أن أبدأ بما هو أصعب: وهو أن أبلّغ النبأ للأرملة الجديدة، بصورة أجعله محتملاً، أي الصورة التي لم توجد أبداً. ولقد بدأت اسمع خطوها الزاحف المستعجل في الحجرة المجاورة. كانت تحمل، وهي في ثياب الخروج، - لم يتسع لها الوقت لخلع ملابسها، - قميص نوم دفّأته على المدفأة كي تعطيه إلى زوجها.

قالت لنا، لما لاحظت صمتنا: «لقد نام».

وابتسمت في هزة رأس. ثم أخذت بكل طهارة، وكل براءة، نفس اليد التي أمسكت بها بيدي في شيء من التراجع، وقبلتها كما في دعابة حانية. كيف استطعنا أن نرى ذاك!

وتحرك (ن)، وهو يتثاءب في ضجّة، وتركها تلبسه قميصه؛ واحتمل بوجه محنق ساخر لوم زوجته المحبّة. كانت تتهمه بأنه أجهد نفسه في النزهة، وأجاب، وهذا غريب، كي يفسر نومه بشكل آخر، وهو يلمّح إلى ما لا أعلم من أيّ ملل أرهقه فجأة. ورغب في ألاّ يصيبه البرد إذا مرّ للحجرة الأخرى، فنام مؤقتاً قريباً من ابنه. وأتت له امرأته سريعاً بوسادتين وضعتهما تحت رأسه حدّ قدمي المريض. بعد هذا الذي رأيت لم أزدد إلا عجباً.

وطلب (ن) جريدة المساء وأخذها، دون أن يقيم اعتباراً لنا، ولكنه لم يقرأها للتوّ: اكتفى بالمرور بالعناوين الرئيسية وهو يواجه خططنا بأفكار كريهة تماماً، ونفاذ بصر تجاريّ مرموق؛ وما ينقطع عن رفض اقتراحاتنا وهو يجعل لسانه يصطفق كي يعبّر عن الطعم الرديء الذي يخلّفه موقفنا التجاري في عمق حنجرته. ولم يستطع مزاحمي أن يدفع نفسه عن إبداء ملاحظات في غير مكانها، عن هذا الموضوع. كان يحسّ، بالرغم من كل ثقل عقله، أنه يجب أن يستدرك بطريقة أو أخرى، بعد الذي حدث، لكنه، تصرّف بأسوأ طريقة، كما جرى عليه دائماً. انسحبت إذن بأسرع ما أمكنني؛ وأنا شبه معترف بفضله: لولا وجوده ما كانت لي القوة بالذهاب هكذا سريعاً.

والتقيت في المدخل، بالسيدة (ن). فلما رأيت قامتها الضئيلة، لم أتمالك من أن أقول لها أنها تذكرني قليلاً بأمي، وأضفت، لما ظلّت صامتة:

- مهما ذهب الفكر بما أقول، فإن أمي كانت تجترح المعجزات! كانت تصحّح كل حماقاتنا. لقد فقدتها في طفولتي.

وبالغت حين تكلمت بالوضوح والبطء ظنّاً منّي أن السيدة العجوز لا تسمع جيّداً. لكنها يبدو أنها كانت صمّاء تماماً، لأنها قالت لي بغتة:

- وزوجي كيف تجده؟

ولاحظت من بعض كلمات الوداع التي وجهتها إليّ أنها كانت تخلط بيني وبين ندّي؛ أود أن أعتقد أنها لولا ذلك لأظهرت ودّاً أكبر.

عندها استلمت الدرج. كان النزول أصعب من الصعود؛ ولو أن الصعود نفسه لم يكن سهلاً.

يا للأسف! كم من خطى لا نفع فيها! كم من مناورة خطأ في التجارة! مع ذلك يجب أن نستمر في حمل أثقالنا!

الجار

تقوم تجارتي كلها على كاهلي. في المدخل صبيّتان، والآلات الكاتبة ودفاتر الحسابات. وفي مكتبي الطاولة التي أشغلها، وطاولة الاجتماعات، والصندوق، وكنبة إنكليزية كبيرة، والتلفون: تلك هي كل أدوات عملي. نحيط بها بنظرة واحدة، ونستخدمها بسهولة. وأنا شاب، والصفقات تأتيني؛ وأنا لا أشتكي، أنا لا أشتكي.

منذ أول السنة استأجر شاب بشجاعة الشقة الفارغة التي توجد حدّ شقتي والتي ترددت طويلاً في رعونة عن إشغالها أنا. حجرة ومدخل، كما الأمر عندي؛ يضاف إليها مطبخ. كان ممكناً أن تفيدني الحجرة والمدخل: محلّي ضيق غالباً على سكرتيرتي؛ لكن ما كنت أفعل بالمطبخ؟

هذا الهمّ الصغير جعلني أفقد الشقة. والآن يشغلها ذاك الفتى، السيد هارّاس؛ إنه يدعى هارّاس؛ أما ما يفعل هنا فأجهله. يمكن أن نقرأ على بابه «مكتب هارّاس». إستعلمت وأفدت بأنه في فرعي نفسه.

قيل لي انه من غير الممكن التحذير بعدم إقراضه مالاً: هذا الفتى يريد أن يصل، ومنشأته لها مستقبل، لكن الحثّ أيضاً على إقراضه غير ممكن: كل الظواهر تقضي، بأنه دون رأس مال. وباختصار المعلومات الكلاسيكية عندما لا تعرف شيئاً.

ألتقي أحياناً بهارّاس على الدرج. يجب أن يكون دائماً في غاية العجلة: يمرّ إلى جانبي كشبح هارب. لم أستطع أبداً أن أراه حقيقة حتى الآن: فهو في لمح البصر، يكون مفتاح مكتبه في يده، ويفتح الباب، ثم يختفي كذنب جرذ في وجر في حائط وأجدني أمام صفيحة «مكتب هارّاس» التي قرأتها من المرّات أكثر مما تستحق.

ونحن لا يفصلنا غير حواجز رقيقة تفضح الانسان المستقيم وتغطّي المجرم. جهاز هاتفي موضوع حدّ الحائط الذي يفصلنا، وتلك ملاحظة للسخر فحسب، لأن الجهاز، يسمع في الشقة المجاورة، حتى ولو كان في الطرف الآخر. وتعودت إذن ألاّ ألفظ اسم زبائني على التلفون. لكن حذرهم لم يكن يتطلب ويا للأسف كثيراً من ثاقب الذكاء، عبر مجريّات الحديث التي لا يستطاع تجنب التميّز فيها. ويحدث لي أمام هذا الضعف أن أقفز من فراغ الصبر حول الجهاز والسماعة على أذني دون أن أستطيع دفع بعض الأسرار عن الافلات مني.

ويجعل طبعاً، هذا الوضع، قراراتي مترددة؛ ويرتجف صوتي. ماذا يفعل هارّاس حين أتكلم على الجهاز؟ إذا بالغت ـ لكن ألا يجب أن نبالغ غالباً كي نرى بوضوح؟ ـ استطعت القول: بوسع هارّاس أن يستغني عن الهاتف؛ عنده هاتفي. إنه يجلس على الديوان، الذي دفعه إلى الحائط، يتلصّص؛ وأنا، عندما يرن الجهاز، يجب أن أجيب، وأن أصغي لرغبات الزبون، واتخذ قرارات خطيرة، وأقنع كليمي بخطب لا تنتهي، وإعطاء المعلومات، رغماً عني، أثناء هذا الوقت لهارّاسي عبر الحاجز.

ربما لا ينتظر نهاية حديثي كي ينهض، منذ أن تفيده جملة عن صفقة، وينزلق، خفيفاً، كشبح يمرّ، عبر شوارع المدينة. وربما يكون، قبل أن أعلّق السمّاعة، في سبيله إلى العمل ضدّي.

بوزيدون[1]

جلس بوزييدون إلى مكتبه يعمل، مستغرقاً في حساباته. كانت إدارة مياه العالم تملي عليه عملاً مجنوناً. كان بوسعه أن يأتي بالقدر الذي يريد من محاسبين ومعاونين- وكان عنده منهم عدد عظيم - لكنه لجدّه في وظيفته كان يتحقق شخصياً من كلّ الحسابات، فما كانت لتغني عنه كثيراً مساعدتهم له. وما كان بوسعنا أن نقول إن هذا العمل كان يعجبه. وما كان والحق ليقوم به، لو لم يمل عليه. ولقد طلب كثيراً ما كان يسميه بعمل أفرح، لكنه كلما عرض عليه عرض، اتضح أن شيئاً لا يلائمه مثل عمله الحالّي. وكان صعباً جدّاً على كل حال أن يوجد له شيء آخر. كان مستحيلاً أن يسند إليه، مثلاً، هذا أو ذاك البحر فحسب، لأن العمل الاداري هنا هو على نفس الضخامة، إلاّ أن موضوعه أقلّ اتساعاً، وفيما عدا ذلك فإن بوزييدون العظيم لا يمكن له أن يحتلّ إلاّ مكاناً أسمى. ولو أنه قدّم له مركز غريب على حكومة المياه، فإنّ مجرّد الفكرة تثير فيه الغثيان، ويتشوش نفسه الإلهي، ويلهث قفصه الصدري. وفوق ذلك، ما كانت تؤخذ جدّاً شكاواه: عندما تطلب شخصية كبيرة، يجب أن نظهر لها أننا نرضيها، حتى ولو كانت المسألة غير قابلة للتنفيذ! أمّا عن عزل بوزييدون من وظائفه فما كان يخطر ببال أحد. لقد جعله قدره، منذ الحقب الأولى إله البحار، ولسوف يبقاه إلى نهاية الزمان!

والذي كان يحنقه أكثر - وهو سبب رئيسي لما يمنحه إياه عمله من سواد!- هو ما يسمعه عن الفكرة التي تكوّنها العامة عن حياته - جوّال في البحار سلاحه مذراته الثلاثية! فيما يكون هو في عمق البحار، وقد انصرف إلى حساباته التي لا تنتهي، تتخلل ذاك من وقت لآخر، سفرة إلى عند جوبان[2]، التسلية الوحيدة في وجوده الرتيب. سفرة كان يرجع، على كل حال، منها في غالب الأحيان غاضباً. وهكذا فإنه لم يلمح البحار إلا لمحاً، وعلى جناح السرعة فقط، خلال صعدة عجلى إلى الأولمب؛ إنه لم يزرها زيارة حقيقيّة أبداً. لقد اعتاد أن يقول إنه يرجيء ذلك حتى نهاية العالم، لأنها سوف تدع له ولا شك لحظة راحة صغيرة.

---

(١) اسم إله البحر في اليونان القديمة

(٢) الاسم الذي يطلقه الآلهة فيما بينهم على جوبيتير

ولربّما استطاع تماماً قبل النهاية، وبعد تدقيق آخر حساب، أن يقوم أيضاً، على عجلٍ، بدورة قصيرة...

النسر

كان نسر يضرب بمنقاره قدميّ ضربات عظيمة. مزّق حذائيّ وجوربيّ، وهوذا ينقّب الآن في اللحم نفسه. بعد عدّة ضربات منقار، أخذ يرفرف حواليّ قلقاً، ثم عاود عمله من جديد. ومرّ سيّد. نظر إليّ هنيهة ثم سألني كيف استطيع احتمال النسر.

قلت له: «لكنيّ دون دفاع. أتى وبدأ يضربني بمنقاره؛ ولقد أردت طبعاً، أن أطرده، بل حاولت أن أخنقه، غير أن هذه البهيمة الرائعة قوية جدّاً. همّ بأن يقفز إلى وجهي. فضّلت التضحية بقدميّ. ولقد تمزّقتا تقريباً.

قال السيد: «وتسلم نفسك هكذا للتعذيب! طلقة من بندقية وينتهي أمره!»

قلت: «أتعتقد بذلك؟ ألا تريد أن تتولّج أمره؟»

قال السيّد: «على الرحب. أنا راجع كي آتي ببندقيتي. أليس لك أن تصبر بعض نصف ساعة؟

أجبت: «لست أدري... وبعد لحظة تلوّيت فيها عذاباً، أضفت: أرجوك حاول على كل حال.»

قال السيّد: «حسناً. سوف أسرع.»

كان النسر يصغي في هدوء، خلال الحديث، وينقّل نظره بيني وبين السيّد. وتبيّنت أنه فهم كل شيء. وارتفع بضربة جناح، ثم ارتدّ بكل قواه كي يزيد في اندفاعه، كما يفعل رامي الحربة، وغرز منقاره في فمي، حتى أعمق ذاتي. وأحسست، وأنا انهار ـ ويا له من عزاء ـ بالنسر يغرق، دون رحمة، في هوى دمي اللانهائية.

الرحيل

أردت أن يخرجوا لي حصاني من الاسطبل.

لم يفهم الخادم. دخلت أنا وأسرجت الحيوان وركبته. وسمعت في البعيد صوت بوق.

قلت له: لم هذا البوق؟

لكنّه لم يعرف شيئاً ولم يسمع شيئاً. أوقفني عند البوّابة وسألني:

ـ إلى أين يذهب السيد؟

ـ لا أعرف، بعيداً من هنا فحسب! بعيداً من هنا، ثم أبعد، تلك هي الطريقة الوحيدة التي أصل بها إلى هدفي.

قال هذا الرجل: «وتعرف هدفك؟»

أجبت: «نعم. ما دمت قلته لك: بعيداً من هنا. هذا هو هدفي!»

التخلّي

كان ذلك في الصباح الباكر. الشوارع نظيفة وفارغة، وكنت ذاهباً إلى المحطة حين قارنت بين الوقت على ساعتي وذات ساعة جدارية، رأيت أنه تأخر بي أكثر مما قدّرت؛ وجب عليّ أن أسرع! وفي خوف هذا الاكتشاف، نسيت طريقي، لأني لم أكن أعرف جيّداً تلك المدينة. ولمحت لحسن حظي، شرطياً في الجوار؛ ركضت إليه، وسألته، مبهور النفس، أية طريق أسلك. قال لي وهو يبتسم:

ـ مني أنا تريد أن تعرف الطريق؟

قلت: «نعم، ما دمت لا أستطيع العثور عليها بنفسي.»

ـ تخلّ عنها! تخلّ عنها! قال، وهو يدور قطعة واحدة، فعل الذين يريدون أن يضحكوا وحيدين.

ليليّة

غارقاً في الليل. أن تغرق عميقاً في الليل، هو كما يحني المرء رأسه أحياناً من أجل التفكير. البشر ينامون حواليك. مهزلة صغيرة، وهمٌ بريء أنهم ينامون في بيوت، في سرر متينة، تحت سقوف قوية، وقد تمددوا أو تكوّروا على فرش،

في شراشف وتحت أغطية! لقد تجمّعوا في الواقع كما من قبل وكما بعد في الصحراء، معسكر في الخلاء، عدد لا يحصى من البشر، جيش، شعب تحت سماء باردة، فوق الأرض الباردة؛ بشر ألقاهم النوم أرضاً في نفس المكان الذي وجدوا فيه، وقد انضغط الجبين على الذراع، والوجه على الأرض، وهم يتنفّسون بهدوء. . وأنت، تسهر، أنت من الساهرين، تلمح أقرب ما يمكن من نور المشعل الذي ترفع من النار الحارقة عند قدميك. . . لماذا تسهر؟ يقولون، يجب أن يسهر الواحد! لا بد من واحد!

الربّان

صحت: «أنا الرّبان أم لا؟».

ـ أنت؟ أجاب رجل فخم قاتم وقد مرّ بيده على عينيه كأنه يطرد حلمًا بهذه الحركة. قدت السفينة في الليل البهيم على نور قنديل ضئيل فوق رأسي. ثم جاء هذا الرجل الذي أراد أن يزيحني. وحين أردت المقاومة وضع قدمه على صدري وقلبني بدفعة بطيئة. وظللت أتشبّث بقضبان الدولاب الذي جعلته يقوم بدورة كاملة في سقطتي. وأمسك به الرجل فأعاده إلى مكانه وهو يدفعني. وسريعاً ما ثاب إلي رشدي، فركضت إلى الكوّة التي تشرف على غرفة البحارة:

ـ أسرعوا، يا رفاقي، يا بحارة! تعالوا سريعاً! انتزع الدفة مني مجهول! . . .

ارتقوا في بطء سلّم الفتحة، هيئات قادرة، تترنّح تعباً.

صحت: «ألست أنا الرّبان؟»

هزّوا برؤوسهم، لكنّ عيونهم كانت على الغريب، الذي تحلّقوا حوله في دائرة، حتى إذا انتهرهم في قسوة:

ـ لا تزعجوني!

تفرّقت صفوفهم ووجهوا إليّ إشارة بالرأس ونزلوا السلّم.

أي شعب هذا؟ هل يفكرون أم أنهم لا يفعلون غير التسكعّ دون وعي في هذا العالم؟

الخذروف

كان يفضّل فيلسوف التسكّع حيث يلعب الأطفال. فإذا لعب أحد هؤلاء بالخذروف نهد إلى ترّصده. وما أن يقذف الخذروف، حتى يعدو رجلنا وراءه! ومَا كان ليضطرب من صياح الأطفال كي يبعدوه عنه، بل يسعده أن يستطيع الامساك بالخذروف إبّان شوطه. فرح قصير، لأنه كان يرميه حالاً ويذهب. كان يعتقد أن معرفة واقعة مهما كانت تافهة، معرفة كاملة ـ ولتكن مثلاً حركة الخذروف ـ تكفي لأن تفتح له معرفة الكليّ. وعلى هذا، أهمل دراسة المعضلات الكبرى التي كانت تبدو له قليلة الفائدة. إن معرفة الجزء تكشف عن الكل. ولهذا كان يهتم بحركة الخذروف وحدها. وكانت إعدادات قذفه توقظ فيه الأمل بأنه واصل أخيراً. فإذا دار الخذروف، ولاحقه حتى انبهار النفس، انقلب الأمل عنده إلى يقين، لكنه ما أن يمسك بيده بتلك القطعة التافهة من الخشب، حتى يأخذه الغثيان،وتـمزّق صيحات الأطفال، التي لم يسمعها أبداً حتى ئذ، أذنيه، وتطرده سريعاً؛ فيترنّح مثل خذروف تحت سوط لاعب أرعن!

الامتحان

أنا خادم، لكني خادم دون شغل. أنا خجول ولا أضع نفسي في المقدّمة. لا أجرؤ حتى على وضع نفسي في صفّ الآخرين، ولربما لم يكن هذا غير أحد أسباب العطالة التي يتركونني فيها. بل الذي لا شكّ فيه، أنه لا توجد أية علاقة بين هذه وذاك... ومهما كان من أمر فان أحداً لا يدعوني لخدمة ما. هنالك آخرون يُدعون دون أن يجهدوا أنفسهم أكثر مني، بل دون الرغبة في أن يُدعوا، بينما أعانيها أنا، أحياناً على الأقل، وبكثافة شديدة!

هأنذا إذن وقد تمددت على مقعد الخدم، اسرّح نظري على عوارض السقف، وأنام فأستيقظ كي أعاود النوم حالاً. أحياناً أذهب إلى المقهى المقابل؛ الذي تباع فيه بيرة حادّة، ولقد حدث لي أن أفرغت كأسي على الأرض من قرف، ثم شربت، مع ذلك، منها ثانية. أؤثر هذا المكان، لأني حين أختبىء وراء النافذة الصغيرة، أستطيع تأمل نوافذ البيت دون أن يراني أحد. أوه! إننا لا نرى فيها شيئاً هاماً ـ لا تطلّ على الشارع، على ما أظن غير نوافذ الأروقة، دون الأروقة التي تؤدي إلى عند السادة! هل أنا مخطىء؟ أكد لي أحدهم ذلك، ذات يوم من غير أن أسأله ـ لكن الانطباع العام الذي تخلّفه الواجهة يؤكد فكرتي.

نادراً ما تفتح النوافذ، فاذا صدف، كان أمر خادم ما يتكىء أحياناً على البلكون كي ينظر لحظة إلى الشارع. ثم إلى الأروقة حيث يكون في منجاة من المفاجآت. وبعد، فأنا لا أعرف هؤلاء الخدم. خدم المقاصير ينامون في غير غرفتي...

ذات يوم، وجدت، حين وصلت المقهى، مكاني مشغولاً. لم أجرؤ على النظر، وعوّلت على أن أدور من الباب وأرحل. غير أن شاغل مكاني المعتاد، أشار لي بأن أقترب؛ كان خادماً آخر، رأيته من قبل ولم تتح لي فرصة الكلام معه أبداً.

ـ لماذا تهرب؟ اجلس واشرب! إني أدعوك!

أطعت. ألقى علي عدة أسئلة، لكني لم أعرف بماذا أجيب، بله أني لم أفهمه.

قلت له: «إنك ولا شك نادم على دعوتي؟ إني ذاهب إذن.

وكدت أقف. لكنه مدّ يده من فوق الطاولة وجعلني أجلس من جديد:

قال: «إبق. هذا ليس سوى امتحان. ينجح فيه ذلك الذي لا يجيب عن الأسئلة.»

حماة

أكان لي حماة؟ لم يكن شيء أقل يقيناً من هذا، وما كان بوسعي الحصول على أية دقة في هذا المجال؛ كل الوجوه كانت تنغلق؛ ولقد كان أكثر الناس الذين يأتون لاستقبالي أو ألتقي بهم هنا وهناك في الأروقة يشبهون العجائز السمان؛ كانوا يلبسون وزرات ذات خطوط زرق غامقة وبيضاء تغطي كل أجسامهم، ويداعبون بطونهم وهم يتمايلون في ثقل من يمين ومن يسار. ولم أكن استطيع حتى أن أعرف إذا كنا في **قصر العدالة**.

كانت تؤيد هذا الفرض دلائل عديدة وتكذبه أخرى. والذي كان يذكرني بالمحكمة أكثر من أي تفصيل آخر الدويّ المستمر الذي كان يسمع من البعيد والذي يخرج ممّا لا أدري من أين؛ كان يملأ كل الحجرات لدرجة يبدو معها آتياً من كل مكان، أو بالأحرى أن المكان الذي كنا فيه هو مطرح هذا الدويّ، لكن هذا كان أكيداً خطأ، لأنه كان يأتي من بعيد. هذه الأروقة الضيقة بقبابها

العارية، وخطوطها البطيئة الانحناء، وتلك الأبواب العالية القاسية التزيين كانت تبدو مخلوقة من أجل صمت عميق؛ كانت أروقة متحف أو مكتبة. لكن هذا ليس قصر عدل؛ فلماذا نبحث فيه عن محام؟ لأني كنت أبحث في كل مكان عن حام؛ في كل مكان أنا بحاجة لواحد، - في المحكمة، أقل من سواها، والحق (هذا ما بوسعنا أن نفترضه على الأقل) لأن المحكمة تحكم بالقانون. لأننا إذا فكرّنا بأن إجراءاتها ظالمة أو تصدر عن خفّة، فإن الحياة تغدو مستحيلة؛ يجب أن نمنح **المحكمة** الثقة فنعتقد بأنها تبيح المرور لجلال القانون. وفي هذا واجبها الوحيد! والواقع أن القانون نفسه يختلط فيه الاتهام، بالدفاع فالحكم؛ وتدخل الانسان الحر يعدّ هنا دنساً. والأمر مختلف بالنسبة للملفّ الذي هو في أساس الحكم، وهذا يتكون من تحقيقات عند الأهل والغرباء، والأصدقاء والأعداء، في الحياة الخاصة كما في الحياة العامّة، في المدينة وفي البّرية، وباختصار في كل الأمكنة. هنا تقضي الضرورة القصوى أن يكون لك حماة، أفضلهم، يتصل أحدهم بالآخر حتى ليؤلفوا جداراً حيّاً - لأن طبيعة الحماة أن يكونوا قليلي الحركة، بينما يشبه المتّهمون ثعالب رهيفة، ابناء عرس سريعة، فئراناً صغيرة لا ترى، تنزلق من أصغر الفجوات وتمر خلسة من بين أفخاذ الحماة! انتبه، إذن! من أجل ماذا بالضبط أنا هنا، بحثاً عن الحماة. لكنّي لم أجد حتى الآن، النساء العجائز وحدهن يذهبن ويجئن دون نهاية ولا انقطاع، ولو لم أكن أبحث عن حام، لكنت نمت من ذلك! ولست قائماً في المكان المناسب، للأسف! ولا يفيد شيء العمى عن هذه النقطة أي أني لست في المحلّ المناسب. يجب أن أكون في غيره، حيث تجتمع كل أنواع الناس من كل البلدان، من كل المهن، من كل الحرف، وأكثر الأعمار اختلافاً؛ يجب أن تكون لدي إمكانية الانتقاء في عناية من بين جمهور أولئك الذين هم أهل، الشخصيات الخيّرة، أولئك الذين يبدون لي بعض الاهتمام وأفضل مكان ولا شك هو بازارٌ كبير. لكن لا، على العكس! إني أضلّ حقّاً في تلك الأروقة التي لا يرى فيها سوى تلك النساء العجائز - وهن فوق ذلك نادرات، ثم هنّ دائماً أنفسهنّ لا يتبدلن! وعلى ندرتهنّ، لا أصل إلى جعلهن يصغين إليّ، إنهن يفلتن منيّ دائماً، يتطايرن كغيوم مطر، وقد استغرقن بمشاغل خفيّة. لكن كيف ألقي بنفسي على العمياء في بيت دون أن أقرأ الخطّ فوق المدخل - كي أجدني حالاً في هذه الأروقة. لكن لماذا أستبسل على الاقامة فيه حتى لأنسى تقريباً أني وجدتني قدّام هذه الدار أو أني صعدت أدراجها راكضاً؟ ممنوع علي، مع ذلك، أن أرجع إلى وراء، ومثل إضاعة هذا الوقت،

مثل هذا التصريح لا يطاقان عندي. كيف في هذه الحياة القصيرة، العجلى، التي يرافقها دون انقطاع دويّ قلق، كيف ننزل درجاً؟ أمر مستحيل! إن الزمن الذي قدّر لك قصير، إذا ضيعت منه ثانية واحدة، فقد ضيّعت حياتك كلّها، لأنها ليست أطول، ولا تدوم إلاّ الوقت الذي تفقده فحسب! لقد دلفت إلى طريق، فثابر عليه بأي ثمن، ولن تكون إلا رابحاً، ولن تتعرض لأي خطر؛ ربما كانت تنتظرك في طرفه الكارثة؛ لكنك إذا رجعت منذ الخطوات الأولى ونزلت الدرَج، فقد فشلت منذ البدء، هذا شيء محتمل، بل إنه لأكيد. وهكذا، إن لم تجد شيئاً وراء هذه الأبواب، فإنك لم تخسر شيئاً، اندفع إلى أدراج أخرى! وما دمت لا تنقطع عن الصعود، فإن الدرجات لن تنقطع؛ إنها تحت قدميك اللتين تصعدان، تتضاعف حتى اللانهاية!

العودة

لقد رجعت؛ عبرت البوابة ونظرت حولي. إنها مزرعة أبي العتيقة. الرامة في الوسط. وكومة أشياء قديمة بطل استعمالها بعض فوق بعض حدّ الدرج الذي يؤدّي إلى الهري[1]. وعلى الدربزين قطّ يترصّد. وخرقة تنتصب في الريح، علقناها ذات يوم على عصاً كي نلعب. هأنذا! من سوف يستقبلني؟ من ينتظرني وراء باب المطبخ؟ المدخنة تدخّن؛ وتحضّر القهوة لوجبة المساء. هل كل هذا مألوف لديك؟ أتحسّ أنك في بيتك؟ ربما؟... لست تماماً على يقين. إنه بيت أبي، لكن كم تبدو أجزاؤه دون اهتمام، بارد بعضها تجاه بعضها الآخر. كل منها يبدو نهباً لهموم خاصة، إما نسيتها، أو تجاهلتها دائماً. ماذا استطيع من أجلها؟ ما أنا بالنسبة إليها، ولو أني ابن المزارع العجوز، أبي؟ إني لا أجرؤ على قرع باب المطبخ، أصغي من بعيد، واقفاً! خشية أن أفاجأ وأنا أصغي على الأبواب. وبما أني أصغي من بعيد، فإني لا أميّز شيئاً، لا أسمع إلاّ دقّة ساعة جدار خفيفة - أو، ربما، لا أزيد على أن أعتقد أني اسمعها من وراء كل يوم من أيام الطفولة؟ وما يحدث، سوى ذلك، في المطبخ، هو سرّ الموجودين فيه، السر الذي يكتمونه أمامي. كلّما تأخرت أمام الباب، كلما غدوت غريباً. ما يكون الأمر لو أن أحداً - في هذه اللحظة - فتح الباب واستُجوِبْت؟ عندها الذي يريد أن يكتم السر - ألن أكون أنا هو؟

(1) مفرد أهراء.

نحن خمسة أصدقاء. ذات يوم، كنا نخرج واحد بعد الآخر من بيت، عند الخروج اتخذ الأوّل مكانه حدّ المدخل، ثم خرج الثاني، أو انسلّ بالأحرى على العتبة أسرع من نقطة زئبق ثم وقف حدّ الأول، ثم الثالث، فالرابع، والخامس. أخيراً كنا نحن الخمسة صفاً واحداً. كان المارّون يروننا، يشيرون إلينا بأصابعهم، يقولون: «خرج الخمسة الآن من هذا البيت.» منذئذ ونحن نعيش معاً، وكانت تنقضي حياتنا في هدوء، لو لم يأت سادس فيتدخلّ فيها باستمرار. وهو لا يؤذينا أبداً، لكنه يضايقنا وهذا كافٍ - لماذا يملي نفسه بهذه الطريقة عندما لا نريده؟ نحن لا نعرفه ولا نريده بيننا. ونحن الخمسة لا نعرف، والحق، بعضنا بعضاً من عهد بعيد، وأضيف أننا لا نعرف اليوم بعضنا بعضاً بصورة أفضل، لكنه الممكن والذي نحتمله بيننا نحن الخمسة، هو مستحيل لا يحتمل لدى ستة. وزيادة على ذلك، نحن خمسة ولا نريد أن نكون ستة. وما معنى أن نبقى هكذا باستمرار معاً، بعد كل حساب؟ وهذا ليس له أي معنى، بالنسبة لنا نحن الخمسة، لكننا ما دمنا مجتمعين، ليس لنا إلا أن نبقى مجتمعين - أما شريك آخر فأبداً! إننا لا نريده. والسبب هو بالضبط هذه الحياة المشتركة. لكن كيف نفهم هذا للسادس؟ إن التفسير الطويل يعادل تقريباً قبوله بيننا. والأفضل هو ألا نفسّر شيئاً وألاّ نقبله. وليقلب شفتيه ما شاء، فسندفعه بالمرفق! لكننا مهما عنفنا في دفعه، فإنه يعود دائماً.

الكهل العازب

عاد بريفلوري ذات مساء إلى بيته - في بعض الجهد، لأنه يسكن في السادس. كان وهو يصعد، يجترّ مرّة أخرى، كما جزى عليه في الأيام الأخيرة أكثر من أي وقت مضى، كل ما هو شاق في حياته المتوحّدة؛ أما كان عليه أن يرقى، وكأنه يختبىء، هذه الطوابق الستة كي يصل إلى المسكن المقفر، وهناك يرتدي مبذله، دائماً في نفس الكتمان، ثم يشعل غليونه، ويتصفّح الدورية الفرنسية التي اشترك فيها منذ سنين، فيما يتمزّز كأساً من الكيرش الذي صنعه، ثم ينام أخيراً بعد نصف ساعة، وذلك بعد أن يعيد ترتيب سريره الذي تعاند خادمته فتجعله كما يعنّ لها دون اعتبار لتعليماته؟ إن أتفه الرفاق شأناً، وأكثر الشهداء تواضعاً، هو عنده بركة! ولقد سبق له أن فكر بكلب صغير. إنه حيوان مسلٍّ، عارف للجميل، وبخاصة أمين! أحد زملائه كان عنده واحد. إن

الكلب، مهما كان أمد غيابه قصيراً، يستقبل عودة سيده بنباح عظيم، كي يظهر، ولا شك، سروره بلقيا مثل هذه العناية السماوية الثمينة! كلب! لكن هذا يتضمّن بعض المشاكل. مهما نظّفته، لا بدّ له من أن يوسّخ أحياناً، فما يفعل؟ لا يمكن، قبل أن يفتح له الباب، أن يغسله كل مرّة بالماء الساخن. فصّحته لا تحتمل هذا الأمر... وبريفلوري لا يطيق، من جهته، إلا النظافة المطلقة. وهو لهوسه بالنظام البالغ في دُقته يتخاصم عشر مرّات أسبوعياً مع خادمته التي لا تهتم بهذه النقطة. وبما أنها صمّاء، اعتاد أن يجرّها من ذراعها إلى الأمكنة التي لم تنظفها جيّداً في الغرفة. ولقد نجح بصرامته إلى الحصول، على نظام يكاد يتجاوب مع رغباته في الحجرة. لكنّ قبول كلب في بيته ألا يعني احتمال تلك القذارة التي نجا منها حتى الآن بعنايته؟ سوف توجد البراغيث، رفيقة الكلاب الخالدة! البراغيث! تلك التي تقرّب اللحظة التي يترك فيها بريفلوري بيته المريح للكلب، ويبحث عن آخر. غير أن الفوضى والقذارة ليستا الهمّ الوحيد الذي تقتضيه الكلاب. إنها معرّضة لأمراض، وأمراض الكلاب تلك لا يفهم فيها أحد شيئاً! تلطو البهيمة المسكينة في زاوية أو تجرّ قوائمها، وتتأوّه، وتسعل وتختنق نهباً لعناء خفيّ. وندثّرها بغطاء، نصفر لها لحناً صغيراً، نحمل لها حليباً، وباختصار، نعنى بها على أمل ألا يتجاوز الأمر، كما هو ممكن جدّاً، مرضاً عابراً، غير أنه قد يكون أيضاً مرضاً خطيراً منفّراً، بل معدياً. بل لو ظلّ صحيحاً الحيوان، لشاخ حتماً؛ وليس بوسع المرء أن يقرر الخلاص في الوقت المناسب من حيوان على هذا الوفاء و... ذات يوم، تطلّ عليك شيخوختك نفسها، من عمق عيني الكلب، فتنظر إليك وتدمع! والكلب وقد غدا نصف أعمى، مبهور النفس، سميناً، مكلف أنت بنفقته فيجعلك تدفع غالياً ثمن ما منحك من فرح. ومهما كانت كبيرة تلك السعادة المؤقتة، فإن بريفلوري يفضّل أن يصعد وحيداً، ثلاثين سنة أخرى! درجه بدلاً من أن يحتمل فيما بعد هذا الكلب العجوز الذي ينفخ ويتأوّه أقوى منه كي يرفع نفسه من درجة إلى درجة، وهو إلى جانبه.

سوف يبقى إذن بريفلوري وحيداً؛ فهو لا يعرف نزوات العانس التي تريد بأي ثمن شيئاً حيّاً، بالقرب منها، دون دفاع تستطيع حمايته ومداعبته وتدليله دون ونىً، حتى ليكفيها ،تماماً قط، أو نغر[1]، بل أسماك حمراء! فإن لم

(١) طائر صغير.

يكن لها اكتفت ببعض الأزهار في نافذتها. أما هو بريفلوري فلا يطلب غير رفيق، حيوان لا يكلفه كبير مشقة، يحتمل بالمناسبة رفة قدم، ويقضي عند الحاجة الليل خارج البيت. حيوان يبدأ بالنباح عند أقلّ رغبة من معلمه، والقفز ولحس يديه. هذا ما يلزم بريغلوري. لكنه عندما يفكّر بقفا هذه العملة، فإنه يتراجع. غير أن، وسواس عقله، يدفعه بين الحين والحين، كما في هذا المساء مثلاً، إلى الرجوع لنفس الأفكار.

في أعلى الدرج، وفي اللحظة التي أخرج فيها من جيبه المفتاح أمام بابه، فاجأه صوت خفيف في مسكنه. تكّة غريبة، سريعة جداً، منتظمة جدّاً! وبما أنه كان يفكر بالكلاب، تصور بريفلوري أنها قوائم تضرب الأرض بالتناوب. غير أن القوائم لا تحدث هذا الصوت؛ لا ليس هذا دعساً! فتح سريعاً وأنار. رؤيا غير منتظرة! إن ما تحت عينيه هو لعبة سحر حقيقيّة؛ كرتان صغيرتان من السيلولييد، بيضاوان، مخططتان بالأزرق تقفزان على الأرضية إلى جانب بعضهما! عندما تكون إحداهما على الأرض، تكون الثانية في الهواء. وتستمر لعبتهما، دون تعب. لقد رأى بريفلوري، من قبل في الكلية، خلال إحدى تجارب الكهرباء دحلاً صغيرة تقفز؛ أما الآن فإنهما طابتان كبيرتان نوعاً ما تقفزان بحرّية في الحجرة - وليس الأمر أمر تجربة فيزيائية! وانحنى بريفلوري كي يلاحظهما جيّداً. إنهما، دون شك، كرتان عاديّتان؛ وهما تحويان كرات أصغر منهما كي تحدثا هذا الصوت. مدّ يده فوقهما كي يتأكد من أنهما ليستا معلقتين إلى خيط ما لا يرى. لكن لا، إنهما تقفزان من كونهما! خسارة، أن بريفلوري لم يعد طفلاً، طابتان على هذا الشكل، يا للمفاجأة! إنهما لا تحملان له اليوم غير إحساس كريه. لقد جهد عبثاً في أن يعيش، متكتماً، حياة العازب، لكن أحداً ما - غير مهم من هو! - كشف تخفيه وأرسل إليه هذه اللعبة الطريفة. جرّب أن يمسك بإحداهما، تراجعتا، وجرّتاه وراءهما إلى الغرفة. فكر بريفلوري قائلاً: «هل أنا مجنون فأركض وراء هاتين الطابتين!» توقف وتبعهما بنظره. وتوقفتا هما كذلك، حين تبّينتا أن الملاحقة انتهت! قال في نفسه: «فلنجرّب أيضاً، على كل حال!» وركض وراءهما من جديد! وفرّتا حالاً، غير أن بريفلوري، باعد بين فخذيه، وحصرهما في زاوية وتوصل، أمام محفظته التي كانت هناك، إلى القبض على إحداهما. إنها كرة صغيرة غضة، تدور في كفّه، وقد وضح نفاد الصبر عليها كي تفرّ. وأخذت الثانية، وكأنها أحست ببؤس رفيقتها، تقفز أعلى مما في الساعة السابقة، وأطالت قفزاتها حتى وصلت يد الكهل العازب. وصدمتها، صدمتها

أيضاً بقفزات تتقارب أكثر فأكثر، وغيرت نقط هجومها، وحين فشلت أمام اليد التي تمسك بالكرة، قفزت أعلى كأنها تريد أن تضرب الوجه. وكان بوسع بريفلوري أن يقبض على الثانية أيضاً ويحبسهما معاً، لكن اتخاذ هذا الإجراء القاسي ضد كرتين صغيرتين تبدّى له، في تلك اللحظة، أنه لا يليق به. غير أن امتلاك هاتين الكرتين هو ضربة حظ على كل حال! إنهما سوف تتعبان قريباً وتتدحرجان تحت خزانة ما وتدعانه في سلام. غيرأن بريفلوري، غضب، بالرغم من هذه الأسباب الحسنة، وقذف بالطابة على الأرض. إنها لمعجزة ألا تنكسر قشرة السيلولوييد الرقيقة الشفافة... وأستأنفتا حالاً كما في السابق نطنطتهما الصغيرة المتناوبة.

وخلع بريفلوري في هدوء ثيابه ورتبها في الخزانة. وكان من عادته أن يتأكد بدقة من أن الخادمة وضعت كل شيء في مكانه. وألقى من فوق كتفه مرّة أو مرتين نظرة ناحية الكرتين، اللتين لا يبدو عليهما، بعد أن تركهما الآن هادئتين، إنهما تريدان معاملته بالمثل. لقد تقاربتا، وأخذتا تقفزان تماماً في ظهره، فارتدى بريفلوري مبذله واستعدَّ لنزع أحد غلايين الرف الذي على الحاجز المقابل. وقبل أن يلتفت ضرب، دون إرادة منه، ضربة قدم وراءه. غير أن الكرتين تفاديتاها على قيد شعرة، حتى إذا قام يأخذ غليونه، رافقتاه؛ وجرّ شحاطته، بخطى غير متساوية؛ ولو أن كلًّا منها انتظم في توقيته مع وثبة إحداهما. تقدمتا معه، رافقتا خطوه. فالتفت بغتة كي يدرك حيلتهما. لكنه ما أن دار نصف دورة، حتى كانتا في ظهره! ويتكرر الأمر نفسه بالقدر الذي يدور فيه. كأنهما حرس: تريدان أن تجتنبا التقدم عليه. ويبدو عليهما أنهما لم تجرؤا على ذلك حتى الساعة إلا من أجل تقديم أنفسهما، وهما الآن تقومان بخدمتهما!

لقد جرى بريفلوري عبر حياته، حين لا يستطيع، خلافاً للعادة، السيطرة على الوضع، على التظاهر بأنه لم يلاحظ. وهكذا نجح غالباً، على الأقل، بتعديل الموقف. والآن يفعل نفس الشيء. فقد وقف أمام رفّ الغلايين واختار أحدها، وعمد دون أن يهتم بالكرتين، وقد قلب شفتيه، إلى حشوه بعناية غيور. تحاشى فقط العودة إلى الطاولة، فقد كره أن يواكب خطوه مع إيقاع القافزتين. بقي إذن هناك، واقفاً يحشو غليونه في بطء لا نفع منه - فيما يقيس المسافة التي تفرّق بينه وبين الطاولة. وأخيراً هيمن على ضعفه وذهب فجلس وهو يدق خطاه بقوّة لم يسمع معها الكرتين. مجهداً بات! وما أن جلس، حتى سمعهما

مرّة ثانية وراء الكنبة.

فوق الطاولة، ثبتت في الحائط خزانة صغيرة على مرمى يده: تتصدرها قنينة الكيرش، وقد أحاطت بها أقداح صغيرة. وإلى جانبها عرمة ملازم الدورية الفرنسية. (ولقد وصل اليوم بالذات عدد جديد أخذه بريفلوري عن الخزانة. ونسي الكيرش تماماً، فهو يعرف جيّداً أنه لا ينصرف إلى مشاغله العادية إلاّ كي يخدع نفسه؛ وبالتالي فهو ليس بحاجة حقيقية للقراءة. وخلافاً لعادته في تصفح الدورية صفحة صفحة، فتحها كيفما اتفق، فإذا به يقع على رسم اضطر للنظر إليه عن قرب. كان يمثل لقاء القيصر ورئيس الجمهورية الفرنسية على مركب حربي. وفي كل مكان، حتى الأفق، لا توجد إلا سفن يضيع دخانها في سماء دون غيوم. ولقد تقدّم القيصر ورئيس الجمهورية بخطى واسعة أحدهما تجاه الآخر، وتصافحا باليدين. ووراء القيصر كما وراء الرئيس، يقف سيّدان، يبدووجهاهما متجهمين، يناقضان الفرح الظاهر على وجهي الزعيمين. وتتركز نظرات الحرسين، كل منهما على سيده. في الأسفل، يبدو المشهد واضحاً على ظهر السفينة؛ وقد وقف صفّان طويلان من البّحارة استعداداً، قصّهما هامش الرسم. ويتأمل بريفلوري الرسم باهتمام متزايد، فيبعده قليلاً وهو يطرف بعينيه، ثم يقرّبه . . . لقد أحبّ دائماً المشاهد التاريخية. أن تتصافح الشخصيّات الكبرى، بكل تلك العفوية، والمودة، والمرح - هذا يبدو صحيحاً بعمق. وصحيح جدّاً أن يتسم سلوك الحاشية، التي تتكوّن من الضباط الأعلين، وأسماؤهم في أدنى الصفحة، بوقار اللحظة التاريخية!

وبدلاً من أن يأخذ عن الخزانة كل ما هو بحاجة إليه، بقي بريفلوري جامداً على كرسيّه يتأمل غليونه الذي ما أشعله بعد. وغير فجأة وضعه وأدار كنبته. لكنّ الكرتين كانتا مثله على أهبة، أو هل تخضعان ميكانيكيّاً إلى القوانين التي تهيمن عليهما؟ ما أن استدار بريفلوري حتى بدّلتا مكانهما وأصبحتا وراءه! وهوذا رجلنا جالساً وظهره إلى الطاولة، وغليونه في يده - دون أن يشعله حتى ئذ! والكرتان تقفزان الآن تحت الطاولة، غير أن بساطاً هناك، يجعلهما ما تكادان تسمعان. ربح ضخم! لأنك لا تلم إلا بصوت ضئيل، خفتت ثلاثة أرباعه؛ وعليك، إذا شئت أن تسمعه، أن تعيره أذناً صاغية. غير أن بريفلوري، وقد صار كله آذاناً، يسمعه بوضوح! لكن هذا لا يدوم إلا لحظة؛ وبعد دقيقة يتوقف ولا شكّ كل صوت. إن إحداثهما، مثل هذا الصوت الضئيل، حتى ولو على

بساط، يبدو له علامة ضعف بالغ. فإذا نضّد اثنين أو ثلاثة بسط ردّهما إلى أكمل عجز. وبالتالي فإن هذا لن يدوم طويلاً: وجودهما هو الذي يكرّس سلطتهما!

وهنا يغدو الكلب ثميناً! إنه يقهرهما سريعاً بشبابه ونـزقه. يتخيله بريفلوري وهو يحاول القبض عليهما بقوائمه، يطردهما من مكانهما، يطاردهما في أربع زوايا الغرفة كي يمسك بهما أخيراً بين أسنانه. ومن المحتمل أن يمتلك واحداً في فترة قصيرة!

وبانتظار ذلك، يرجع إليه وحده فرض احترامه. وهو لا يحسّ في هذه اللحظة بأية رغبة في تحطيمهما، لكن أليست تلك عنده نقص في الهمة؟ يرجع مساءً، متعباً من عمله، وفي الساعة التي لا يعنى بها بغير الراحة، تحضرّ له هذه المفاجأة! وهو لا يعاني إلّا الآن تعب النهار. آه! نعم، سوف ينتهي من هذا الأمر وبأسرع مما يظنّ! وليس حالاً، مع ذلك، ليس قبل غد ولا شكّ! وفوق ذلك، عندما نلاخظ الكرتين بتجرد، نجدهما يتصرّفان بتحفظ نسبي. كان بوسعهما، مثلاً، أن يغادرا من وقت لآخر تحت الطاولة، تقفزان إلى ذقن بريفلوري، ثم ترجعان بهدوء إلى مكانهما - أو تقفزان أعلى حتى الطاولة، مثلاً، كي تعوضا قليلاً عن ضعف الصوت الذي تحدثانه بسبب البساط! إنهما لا تفعلان، لأنهما لا تبغيان إثارة ضحيتهما دون فائدة، ولقد التزمتا فعلاً وبدقة بأدنى حدّ.

لكن هذا الحد الأدنى يكفي لنفور بريفلوري من البقاء إلى الطاولة. وما يظلّ بضع دقائق إلا ويفكّر بأن يقوم كي ينام. ومن الأسباب التي دفعته لذلك أنه لا يستطيع التدخين في مكانه، لأن أعواد الثقاب هي على طاولة الليل. وقد وجب عليه أن ينهض كي يأتي بها. حتى إذا وصل إلى هناك يحسن به البقاء والاضطجاع في السرير! كما أن لديه قصداً خفيّاً؛ إن الكرتين بعنادهما الغبي في البقاء وراءه، سوف تقفزان إلى السرير، كما يأمل، فإذا نام، سحقهما شاء أم أبى! ولم يتوقف عند فكرة أن شظاياهما تستطيع الاستمرار بالقفز، لأن المعجزة لها حدود. إن الكرات السليمة تقفز، حتى ولو لم يكن ذاك مستمراً. أما الشظايا فهي لا تقفز أبداً - لا هنا ولا في مكان آخر!

وهتف: «قف!» - لقد أرجعته هذه الفكرة تقريباً إلى رائق مزاجه - واتجه إلى السرير، وهو يدقّ خطواته، وحرسه يتبعه. وبدا له أن فكرته تتأكّد: بما أنه اهتم بالوقوف قريباً من السرير، قفزت حالاً إليه كرة. ثم حدث ما لم يكن

منتظراً لأن الأخرى ذهبت إلى تحت السرير. وما كان يتخيل بريفلوري أن الطابتين تستطيعان القفز تحت سريره. ومثل هذا السلوك يغيظه، بالرغم من إحساسه بظلم غضبه، لأن الكرة تستطيع القيام بمهمتها أفضل مما فوقه. والآن، يتعلق كل شيء بالمكان الذي تقرّره الطابتان، لأن بريفلوري لا يؤمن، بأنهما تستطيعان العمل طويلاً منفصلتين. والواقع أن طابة تحت السرير، قفزت حالاً فوقه. قال بريفلوري في نفسه: «الآن، أسيطر عليهما!» ونضى عنه، في أوج فرحه، مبذله كي يرتمي في السرير. لكن الطابة نفسها تقفز مباشرة إلى تحت السرير. كانت خيبة بريفلوري أبعد من كل تعبير، وأنهار بكل معنى الكلمة. والذي لا شك فيه أن الكرة لم تكن تريد غير إلقاء نظرة، ولم يعجبها المكان. وتبعتها الثانية، طبعاً دون تفكير بالرجوع. والإقامة تحت السرير هي حتماً أفضل. وفكر بريفلوري وهو يعضّ على شفتيه ويهزّ رأسه قائلاً: «سوف أقضي الليل كله مع هذه الطرطقة!» وشغله الهمّ دون أن يعرف بالضبط ما يمكن أن تأتيه به الكرتان من مزعج خلال الليل. إن نومه ممتاز، ولسوف ينتصر بسهولة على الصوت الخفيف الذي تحدثه الراقصتان. ودفع، كي يتأكد تماماً، بساطين تحت السرير، طبقاً للتجربة السالفة، كما أنه منح نفسه الوهم بأنه يعدّ للكلب فراشاً ناعماً! وأخذت الكرتان، وكأنهما تعبتا، أو أثقل عليهما النعاس، تقفزان أقل علوّاً، أو أقل سرعة. وركع بريغلوري، ولمبة السرير بيده، كي يرى أفضل تحته، فتبادر إليه إحساس بأن الطابتين تتوقفان قليلاً قليلاً... لكن لا، إنهما تقفزان من جديد، كما ينبغي لهما. ومن الممكن أيضاً، أنه لن يجد صباحاً حين يراقبهما إلا كرتي طفل صغيرتين، ثابتتين ولا تؤذيان.

على كل حال، يبدو عليهما، أنهما لا تستطيعان أن تنشطا حتى الصباح، لأن بريفلوري لم يسمعهما، منذ أن اضطجع. حاول مع ذلك، وقد انحنى خارج الأغطية، أن يقبض على شيء، لكن، بالرغم من كل انتباهه، صمت، لا صوت! إن علاج البسط لا يمكن أن يكون جذرياً لهذا الحدّ، وليس هنالك غير تفسير وحيد: أو أنهما باتتا لا ترقصان أو أنّ ليونة البسط لا تسمح لهما بالحصول على الاندفاع كي تقفزا. وقد تكونان أقلعتا مؤقتاً، بل ربّما لن تقفزا أبداً! وكان بوسع بريفلوري أن ينهض كي يرى جليّة الأمر، لكنه، وقد بلغ منه السرور كل مبلغ لوصوله إلى السلام، فضل أن يبقى مضطجعاً. فهو لا يريد أن يلامسهما حتى بنظره، أثناء راحتهما. وتخلّى حتى عن غليونه، من كل قلبه، واستدار على جانبه فنام حالاً.

لكنه لم يرقد بهدوء؛ نومه، كان كالعادة، دون أحلام، لكنّه ظلّ مضطرباً. استيقظ مذعوراً، عشرين مرّة، وهو قانع أن الباب يطرق. وهو يعرف جيّداً أن أحداً لا يقرع. من بوسعه أن يطرق ليلاً باب عازب كهل وحيد؟ لكنّه على تأكدّه، ما ينفكّ ينتفض كل مرّة ويلقي نظرة طويلة محمومة ناحية الباب، وقد فتح فاه، وحملق بعينيه، ووقف شعره فوق جبينه النديّ. وجرّب أن يعدّ المرّات التي استيقظ فيها، لكنه غلبته ضخامة الرقم، فسقط ثانية نائماً. ظن أنه يتميّز المكان الذي تأتي منه الطرقات؛ إنها ليست على الباب، بل بعيدة، بعيدة جدّاً عن هنا. . . لكنه لم يستطع مع ذلك، تحت هيمنة النعاس أن يتحقق في عقله من أسباب فرضيّاته. وهو يعرف بعد كل حساب أن كمية من الأشياء الصغيرة الكريهة تتجمع قبل أن تحدث أخيراً الضربة الكبرى التي توقظه. ولقد كان بوسعه أن ينتصر على عذاب الصدمات الصغيرة، لو أنه يستطيع تجنب الضربة الكبرى التي تأتي في النهاية، لكنه لسبب ما يرى أن الوقت مضى، وأنه بات لا يتمكّن من التدخّل؛ خسر المعركة، فهو لا يقدر على النطق ولو بكلمة واحدة، ولا ينفتح فمه، إلا في تثاؤبة خرساء وغضبى، ثم دفن وجهه في الوسادة. وقضى هكذا ليلته.

وأيقظته الخادمة صباحاً، لما طرقت الباب. فحيّا بتنهّدة ارتياح الصوت الخفيف الذي ما انفك يشكو أنه لا يستطيع سماعه بوضوح، والذي أثاره دائماً لأنه صعب إدراكه. وفي اللحظة التي أجاب فيها: «ادخلي!» سمع تكتكة أخرى، حية جدّاً، وهي بالرغم من ضعفها، شرسة بمعنى الكلمة الصحيح. فكرّ قائلاً: «آه! الكرتان!» هل استيقظتا؟ هل جددتا، أفضل منه، قواهما تحت جنح الظلام؟ صاح بريفلوري بالمرأة: «لحظة!» ثم قفز من السرير في بعض الحكمة كي يدع الكرتين وراءه. وألقى عليهما نظرة، بفتلة من عنقه، دون أن يلتفت كله. منظر يجعلك تجدّف! لقد دفعت الكرتان بفعل الاهتزاز البسط قليلاً إلى وراء فلا يكون تحتهما إلا الأرضيّة برنينها، وكأنهما طفلان ينضوان عنهما ليلاً، أغطيتهما المزعجة. صاح بهما بصوت قاس: «إلى البساط!» ولم يصرخ للخادمة كي تدخل، إلا حين خفت الصوت (بفضل البسط). وتقدمت هذه، على فخذيها الخالدي التصلّب، وهي المرأة القذرة الضخمة، ذات الوجه الأبله، فوضعت الفطور على الطاولة وهي تقوم بكل الحركات الدقيقة والترتيبات الضرورية. وبقي بريفلوري ، خلال هذا الوقت، في مبذله، قريباً من السرير، لا يتحرك، كي تثبت الكرتان، وذلك دون أن تغفل عينه عن الخادمة، كي يتأكد

أنها لم تلاحظ شيئاً. وهو أمر غير محتمل، ما دامت على صممها - غير أن بريفلوري يضع في حساب إثارته طيلة ليلة بيضاء تقريباً، الظن بأن خادمته قد توقف شغلها في بعض اللحظات، وتتعلق بقطعة أثاث ما، ثم تتنصت وقد فغرت عينيها. وكان يسعده لو أنها تسرع قليلاً بشغلها، لكنها تبدو أبطأ من العادة. كوّمت بدقة على ذراعيها ثياب وحذاء بريفلوري قبل أن تعود إلى الرواق، وغابت مدّة طويلة؛ وكانت تسمع ضربات الفرشاة على الثياب، من الخارج متباعدة، رتيبة. طيلة هذا الوقت، يجب أن يصبر بريفلوري على سريره! كان غير قادر على الحركة، كي لا يجذب الكرتين وراءه، وترك قهوته تبرد وهو الذي يحب شربها لاهبة؛ وما كان يقدر إلا على النظر إلى السجف وقد جذبت عن النوافذ التي أطل وراءها صباح متجهم... أخيراً انتهت المرأة من عملها قالت يوماً سعيداً وذهبت. ولكنها قبل أن تبتعد نهائياً، وقفت على الباب وألقت، وهي تحرّك قليلاً شفتيها، نظرة طويلة على سيّدها الذي كاد يسألها تفسيراً، ثم ذهبت، مع ذلك أخيراً. آه! كم يجب أن يحطمّ الباب ويصيح بها أنها عجوز حمقاء. لكن، ماذا يأخذ عليها، في الحقيقة؟ إنه عند التفكير لا يجد في نفسه غير اللامنطق والتناقض؛ فهي لم تلاحظ شيئاً بالتأكيد، حتى حين حاولت أن تتظاهر بذلك!... كم هي مختلطة هذه الأفكار! وليس السبب سوى ليلة سيئة! واكتشف أن سبب نومه المضطرب هو أنه حرم نفسه من التدخين ومن شرب كأسه الصغير، فقد خرج ليلة البارحة عن عاداته. «منذ أن تلم بي تعاسة (وتلك نتيجة تأملاته) الاستغناء عن الكيرش والتبغ، فإني متأكد أني لا أنام!».

سوف يسهر منذ الآن سهراً أفضل على صحته وانتقل حالاً إلى العمل فحشا أذنيه بسدّادتين من القطن المندوف أتى بهما من صيدلية البيت التي فوق طاولة الليل. ثم نهض ومشى بضع خطوات. فتبعته للتو الكرتان ولو أنه لم يسمعها إلا لماماً. بعض القطن المندوف أيضاً، ثم لا يسمع شيئاً! بعض خطوات أخرى، فلا يحدث شيء خاص! كل يعيش الآن حياته الخاصة، شأنه شأن الكرتين. لقد ارتبط كل منهم بالآخر، دون أن يزعج أحد أحداً في شيء، إلا مرّة واحدة دار فيها بسرعة لم تستطع معها إحدى الطابتين أن تتكفىء بالوقت المناسب، فصدمها بريفلوري بركبته. إنها الحادثة الوحيدة. أمّا سوى ذلك، فقد شرب بريفلوري بهدوء قهوته، وجاع كما لو أنه مشى طوال الليل، واغتسل بالماء البارد، الماء المنشّط، وارتدى ثيابه. ولم يجذب الستائر فقد فضّل احتياطاً،

البقاء في الظليل وإبقاء الكرتين في منأى عن الأنظار الفضولية. أما الآن، وقد استعدّ للخروج، فقد أحسّ أنه مضطر للتنبيه... لو أن الكرتين تبعتاه في الطريق؟ إنه لا يتصوّر هذا الأمر، لكن، مع ذلك يجب الاحتياط - يا لها فكرة حسنة تلك التي أتت إلى ذهنه، يفتح خزانته على مصراعيها، ويتظاهر بأنها يدخلها من ظهره. غير أن الطابتين تحدسان ما يراد بهما وتمتنعان عن القفز إلى داخلها. إنهما تستخدمان أصغر مسافة بين بريفلوري والخزانة، بل تدخلانها لحظة، حين لا تستطيعان سوى ذلك، لكنهما ما تلبثان أن تفرّا خارج الظلام. ولا يستطيع بريفلوري أن يجعلهما تعبران حافة الخزانة، فهما تفضّلان الانتقاص من واجبهما بالوقوف إلى جانبه. غير أن الحيل الصغيرة تظلّ عبثاً، لأن بريفلوري نفسه، يدخل متراجعاً إلى الخزانة، وقد وجب أن تتبعاه. لقد مهرتا هكذا قدرهما؛ ولقد ازدهم قعر الخزانة بكل أنواع الأشياء: الأحذية، والعلب، وبعض الحقائب الصغيرة... التي، على حسن ترتيبها! (وبريفلوري يأسف لذلك الآن!) تزعج لعبة الكرتين. بعد أن أغلق بريفلوري، في هذه الفترة، باب الخزانة تقريباً، اندفع خارجاً بقفزة هي أكبر ما قفز منذ سنين، ثم ردّ الباب وأدار المفتاح. وهكذا سجنت الكرتان! وتنهّد وهو يجفف جبينه: «أخيراً، توصلنا!» أي صخب ذاك الذي تصنعان لقد هاجتا كالكلب أمّا بريفلوري فانه سعد بذلك؛ وترك الغرفة؛ فاذا رؤية الممر المقفر وحدها تحمل له العزاء. وأخرج القطن من أذنيه، فملأته آلاف أصوات الدار التي استيقظت بالراحة. الناس قليلون على الدرج، فما زال الوقت باكراً جدّاً.

تحت، عند طرف الممر، أمام الباب الصغير الذي يؤدي إلى قبو الخادمة، يقف ابنها الذي في العاشرة من عمره. صورة أمّه البحت! لا تنقص أية واحدة من بشاعات الأم لهذا الوجه الطفولي. كانت يداه في جيبيه، وقد وقف على فخذيه المعوجين وهو يشخر ويلهث، لأنه مصاب بالسلعة[1]، يختنق نصف اختناق لدى كل شهيق. ولقد تعوّد بريفلوري، أن يسرع في خطوه، لمجرّد رؤيته، كي يتفادى، قدر استطاعته، هذا الظهور البشع. أما اليوم، فانه يكاد يرغب بالتوقف. إنه بالرغم من أن تلك المرأة ولدته، ومن أنه يحمل كل عقابيل منشئه؛ إنه مع ذلك طفل؛ وتدور في هذا الرأس المشوّه أفكار طفل. إنك إذا اقتربت منه بتمهل وسألته بتعقل، أجاب ولا شك بصوت واضح، في براءة

(١) تضخّم الغدّة الدرقية.

واحترام، وكان بوسعك دون جهد كبير أن تداعب وجنته. عبرت هذه الفكرة ذهن بريفلوري، لكنّه مرّ مع ذلك دون أن يتوقّف. ولاحظ في الشارع أن الجوّ كان أقلّ قبحاً ممّا ظنّ وهو في غرفته. انقشع الضباب الصباحي، وتراءت أبعاد كبرى من السماء الزرقاء، كنستها الريح. كان بريفلوري يعترف بجميل الكرتين اللتين جعلتاه يغادر غرفته قبل العادة؛ حتى أنه لم يفكر بفتح جريدته التي نسيها على الطاولة. ولقد ربح هكذا، على كل حال كثيراً من الوقت، فلا داعي للعجلة. وهو يعجب لأنه لا يفكرّ إلا في هدوء بالكرتين، منذ أن نجح بالانفصال عنهما. لقد كانتا دائماً معه، حتى ليظنّهما الآخرون جزءاً منه، بعضاً يجب أن يحسب حسابه من يحكم عليه، أما الآن فليستا سوى لعبة في قعر خزانة. وشرع بريفلوري بالتفكير بأن أفضل طريقة لتهدئتهما هي ردّهما إلى عنوانهما الأصلي. ما زال ابن الخادمة في الممر، ولسوف يعطيهما بريفلوري إليه، لا إعارة، وإنما يقدّمهما هدّية خالصة، وهذا يعني تحطيمهما. حتى إذا بقيتا على قيد الحياة، كانتا بين يدي الطفل أقل أذيّة، مما لو حبستا في الخزانة. سوف تراه الدار جميعاً يلعب بهما، وسينضم إليه أطفال آخرون، ويتعمم الشعور الذي لا يمارى فيه أنهما لعبة وليستا حرساً فرض إلى الأبد على البائس بريفلوري. ورجع إلى بيته على جناح السرعة. كان الولد قد نزل درج القبو وبات على أهبة فتح الباب السفلي. ولقد بات من واجب بريفلوري أن يدعوه باسمه، زيادة في الأمر! ـ أمر سخيف ككل ما له علاقة به.

صاح بريفلوري: «ألفرد، يا ألفرد! تردد الطفل طويلاً تعال، تعال إذن إلي. عندي شيء لك!

وخرجت بنتا البوّاب من الباب المقابل، الفضوليتان كعقعق[1]، فالتصقتا به من يمين ويسار. إنهما أكثر بما لا يقاس حيوية من ألفرد الذي لا تفهمان بطأه في المجيء. وتشيران إليه دون أن تدع عيونهما بريفلوري، ودن أن تستطيعا حزر نوع الهدية المقدّرة لألفرد. وأخذتا، وقد قتلهما الفضول تقفزان من قدم إلى أخرى. ولا يستطيع بريغلوري أن يدفع نفسه عن الضحك، فيتسلى بنفس القدر بهما وبالصبي. الذي بدا عليه أخيراً أنه فهم ما ينتظر منه فقرّر الصعود ثقيل المشية أخرقها. إنه لا يستطيع، حتى في سيره أن ينكر أمه، التي ظهرت في

---

(١) طائر صغير ثرثار.

مدخل القبو. وصاح بريفلوري، عن تصميم، بصوت عال، لعلّها تسمع أيضاً وتراقب، عند الاقتضاء، تنفيذ مشروعه. قال:

ـ عندي في الأعلى، في غرفتي كرتان جميلتان. ألا تريدهما؟

واكتفى الولد بفتل فمه دون أن يدري ما يفعل، والتفت فأرسل إلى أمه التي في أسفل الدرج، نظرات يائسة. غير أن البنتين الصغيرتين أخذتا تقفزان حالاً حول بريفلوري وتطالبانه بالكرتين.

قال لهما وهو ينتظر جواب الولد: «بوسعكما أيضاً أن تلعبا بهما!»

كان بوسعه أن يعطيهما للتوّ الكرتين، لكنهما تبدّتا له طائشتين وله، الساعة، ثقة أكبر بالولد. وطلب هذا الأخير، في هذه الفترة، النصح من أمّه. وحين وجه إليه بريفلوري سؤالاً جديداً، وافق بإشارة من رأسه.

قال بريفلوري دون أدنى كدر من فكرة أن أحداً لن يشكره لهديته: «انتبه إذن جيّداً. أمك معها مفتاح الغرفة، فخذه منها. وبالانتظار، هاك مفتاح الخزانة التي فيها الكرتان. أعد إغلاق الخزانة والغرفة بعناية! وبوسعك أن تصنع ما شئت بالكرتين ـ ما عدا ردّهما طبعاً! هل فهمت؟

يا للأسف! لم يفهم الطفل شيئاً بالضبط! لقد أعطى بريفلوري من الشروح أكثر مما يجب إلى هذا الكائن المحدود البليد إلى درجة لا تصدّق. لقد ألح كثيراً وتكلّم كثيراً تارة عن المفتاح، وأخرى عن الغرفة وثالثة عن الخزانة. وجحظ الولد بعينيه، وكأنه يرى فيه لا محسناً إليه، بل الشيطان. وفهمت الصغيرتان حالاً، فتحلقتا حول بريفلوري، وأيديهما ممدودة إلى المفتاح.

صاح: «انتظرا إذن!» لأنه بدأ يغضب من الصيغة التي اتخذتها الحادثة.

كان الوقت يمضي على كل حال. وما كان بوسع بريفلوري أن يتأخر أكثر. لو أن المرأة تقرّر أن تقول أنها فهمت وأنها سوف تهتم بالأمر! لكنها كانت بعيدة عن ذلك! ظلّت ملتصقة بالباب تبتسم في تكلف على طريقة الطرشان الخجولين. إنها تعتقد ولا شك في هبّة حماس منها لابنها، أن بريفلوري يسمّع له جدول الضرب! لكن بريفلوري لا يستطيع أبداً النزول على درج القبو، كي يصيح في أذن تلك الصمّاء أنّ على ابنها بحق السماء أن يحرّره من الكرتين! ألا يكفيه أن يعهد بمفتاح خزانة ثيابه يوماً كاملاً لهذه العائلة. ولئن ناول الولد المفتاح

بدلاً من أن يقوده هو إلى الطابق السادس كي يسلّمه الكرتين، فليس لأنه يتجنب صعود الدرج. لا! إنه لا يستطيع أن يبدأ بإعطائه الكرتين في الأعلى كي يستردهما حالاً، وهو ما يجب أن يحسب حسابه في حال الإتيان بهما وراءه.

ـ لم تفهمني إذن حتى الآن؟

سأله بريفلوري وهو يكاد يكون ضارعاً بعد أن حاول شرحاً جديداً ثم ما فتىء أن اضطر لوقفه تحت نظرة الطفل الخلو من التعَبير.

إنك لتهمد أمام مثل هذه النظرة ـ إلا إذا دفعتك للقول أكثر مما تريد قوله مستهدفاً سدّ فراغ هذا الدماغ المسكين فحسب.

صاحت الصغيرتان: «نذهب نحن كي نأتيه بالكرتين.»

خبيثتان هاتان الصغيرتان! لقد فهمتا أنهما لا تستطيعان امتلاك الكرتين إلاّ بواسطة الولد، وأنه يجب عليهما أولاً جعل هذه الوسيلة ممكنة. ودقّت ساعة في حجرة البواب كأنها تنذر بريغلوري بأن عليه أن يسرع.

ـ إذن، خذا المفتاح، أنتما الأخريان!

وانتزعتاه منه أكثر من أنه أعطاهما إياه. آه، كم كان يفضّل أن يعهد به للولد!

وأضاف: «اطلبا، مفتاح الشقة، من الأم، تحت. وبعد أن ترجعا من أخذ الكرتين، أعيدا إليها المفتاحين!».

صاحت الصغيرتان وهما تسرعان على الدرج: «طبعاً! طبعاً».

إنهما تعرفان كل شيء، كل شيء إطلاقاً، وبما أن بريفلوري كان مصاباً بعدوى غباء الولد الذي لا يسبر، فإنه لم يفهم السرعة التي أدركتا فيها شروحه.

لقد صارتا تحت، وهما تشدان الخادمة من خراطتها. لكن بريفلوري لا يستطيع، مهما كانت رغبته، الانتظار أطول مما فعل، وعليه أن يقلع عن معرفة ما تفعلان بأوامره. لقد تأخرّ فعلاً؛ وهو بعد، لا يتمسّك بأن يكون هنا عند وصول الكرتين. إنه يفّضل أن يفصله عنهما بعض الشوارع بطولها، في اللحظة التي تفتح فيها الصغيرتان باب شقته أعلاه. والله يعلم أية حيل يمكن أن تقوم بها

الكرتان معه! وها هو يترك البيت للمرّة الثانية. عندها رأى الخادمة وقد اضطرت فعلاً لمواجهة هجوم البنتين والولد يطير على فخذيه المعوجينّ لنجدة أمه. إنه لم يتوصل إلى الادراك أن كائنات مثل تلك النساء تستطيع أن تعيش وأن تنجب!

انتصرت فكرة عمله قليلاً قليلاً على ما عداها، وهو في طريقه إلى مخزن البياضات الذي يعمل مستخدماً فيه. أسرع الخطى، فإذا هو الأوّل في المكتب، بالرغم من التأخير الذي سببه الولد له. هذا المكتب هو حجرة لها حواجز من زجاج، ترى فيه طاولة عمل ومقرئـان للكتابة، واقفاً، خصّصا للمتمرنين عنده. وبالرغم من أن هذين المقرئين هما على صغر مقاريء مدارس الأمومة، فإنه لا يبقى مكان شاغر في المكتب؛ ولو أن المتمرنين يجلسان لما بقي مكان لكتبة بريفلوري. فهما إذن محكوم عليهما بالمكوث واقفين دائماً على مقرئيهما. وضع من أشقّ الأوضاع، يجعل فوق ذلك مراقبة بريفلوري عسيرة. وهما غالباً ما كانا ينحنيان في حماس على مقرئيهما، لولا أن ذاك لم يكن إطلاقاً للعمل، وإنما كي يتهامسا، ببساطة، فيما بينهما، أو كي يغفوا. إنهما مصدر غمّ عنده، فهما يجب أن يساعداه في العمل الضخم الذي أملي عليه. ويقتضيه هذا العمل مراقبة المبادلات التجارية وبنفس الوقت، الدفع للعاملات اللائي كلفتهن الإدارة بصنع الأدوات الكمالية في بيوتهن. وإذا شئنا أن ننصف في حكمنا على اتساع عمل بريفلوري، وجب أن نكون مطلّعين على الوضع العام للمنشأة كلّها. لكنّ أحداً لا يمتلك هذه الأهلية، منذ موت رئيسه المباشر، ولهذا ينكر بريفلوري على أي إنسان في العالم الحق في تقدير عمله. إن ربّ العمل، طبعاً، وهوذات أوتومار يسيء تقييمه بشكل ظاهر. إنّه يعترف أكيداً بمؤهلاته، التي اكتسبها بإخلاصه للدار، عبر عشرين سنة من الخدمات الحسنة المستقيمة، وهو يعترف بها لا لأن ذلك واجب، وإنما لأنه يرى في بريفلوري خادماً لا قرين له، ورجل ثقة... لكنه على ذلك يبخس العمل الذي يقدّمه حقه، لاقتناعه بأن هذا العمل، يمكن تنظيمه بصورة أبسط، أي بطريقة أكثر نفعاً من كل الجهات، من طريقة بريفلوري. ويقال، وهذا ليس تماماً خطأ، ان أوتومار إذا كان لا يظهر إلاّ نادراً في قسم بريفلوري، فإنما ليوفّر على نفسه الضيق الذي تسببه له أساليب مستخدمه القديم. هذا الجحود لا حيلة فيه! كيف يجبر أوتومار على أن يقضي شهراً بطوله في قسمه وأن يدرس الطرق العديدة التي خرج منها بريفلوري بعد جهد مضنٍ، بتطبيق ما يزعم أنه طرقه الخاصة الأفضل، ثم يستسلم للقناعة التي

تتلو انهياراً لا محيص عنه، أنّ بريفلوري كان على حق؟ وهكذا لم يهن، بريفلوري واستمر على القيام بشجاعة بمهمته الطويلة، الثقيلة! مع ذلك فإنه دائماً يخاف قليلاً حين يظهر عنده أوتومار لوقت قصير، بعد مدة طويلة. عندها يشرع، وقد دفعه الإحساس بواجب المرؤوس الحميد، بمحاولة شرح غامضة لهذا أو ذاك الترتيب في قسمه. ويجيب ربّ العمل، دون أن ينظر إليه، بإشارة تأييد ذاهلة ثم يمرّ إلى قسم آخر. ويتألم بريفلوري، بالتالي، من الجحود أقل من فكرته، عن الفوضى المحتومة، التي لا يستطيع أحد سواه تدبير أمرها، لو اضطر لترك عمله. من، من بوسعه في الدار أن يحلّ محلّه، من يستطيع أن يحتال على الصعوبات التي تنجم عن رحيله؟ إن المدير إذا بخس مستخدماً حقّه، فإن زملاء هذا يزايدون طبعاً على حكم ذاك. سوف يوكل إذن الأمر لمن يقدح في عمل بريفلوري، لأن أحداً لا يرى ضرورة لأقل تدريب في قسمه. وإذا طرأ مستخدمون جدد فإن أحداً لا يطلب أن يلحق به. ولهذا كانت تنقص القسم القوى الجديدة، وحين طلب بريفلوري مساعداً، مع أنه اكتفى حتى ئذ بشاب واحد، اضطر للصراع أسابيع طويلة كي يحصل عليه. كان يبرز بريفلوري كل يوم أو يكاد، في مكتب الإدارة كي يشرح تفصيلاً وموضوعياً الأسباب التي تقضي بوجود مساعد إلى جانبه. وهو لا يريد من وراء ذلك أن يداري نفسه، لا، الأمر ليس وارداً! إنه يقوم، أكيداً، بأكثر من نصيبه، لكنه لا يريد أن يتحلل من التزامه! فليفكر سيادة المدير فحسب باتساع المنشأة خلال السنين: لقد كبرت كل الأقسام بالتبعيّة، باستثناء وحيد، هو قسمه، المنسي دائماً، مع أن العمل ما فتىء يزداد فيه! عندما دخل بريفلوري إلى الدار ـ إن السيد المدير لا يستطيع أن يتذكر، ولا شك!ـ كان لا يوجد إلا عشرة عمّال... فيما يتراوح عددهم الآن بين خمسين وستين! مثل هذه المهمة تتطلب يداً عاملة! وبوسع بريفلوري أن يؤكد أنه يبذل قصاراه في واجبه، أما عن انجازه كاملاً بعد الآن، فإنه لا يستطيع أن يضمنه! والحق، أن، أوتومار لم يرفض له أبداً طلبه (وهو شيء مستحيل بالنسبة لمستخدم قديم)، لكن طريقته بعدم الإصغاء إلا باذن شاردة، وهو يتحدث مع الآخرين، وكأنه يتجاهله، هو وطلبه، فيما يعطيه وعوداً غامضة ـ مع العلم أنه ينسى كل شيء منذ الغد! ـ هذه الأساليب كانت أكثر من جارحة. ولو أنها ليست يقيناً كذلك عند بريفلوري! وبريفلوري ليس حالماً! ومهما كان التكريم ثميناً، مهما كان الاعتراف بكفاءاته محبباً لديه، فإن بوسع بريفلوري أن يستغني عنهما! ولسوف يبقى في مركزه ما استطاع! على كل حال،

هو الذي على حق، والعقل يؤول إلى النصر، ذات يوم، حتى ولو لم يكن غداً!
ولقد توصل بريفلوري، على كل حال، إلى أن يلتحق به مساعدان، لا واحد.
يا للأسف! أي مساعدين! إن المرء ليعتقد أنّ أوتومار لم يستطع التعبير عن احتقاره لقسم بريفلوري بوضوح أشد من موافقته له عليهما! وربما لم يجعل أوتومار بريغلوري يصبر كل هذه المدّة إلا من أجل أن يجد له مثل هاتين الدابتين، وهو أمر لم يكن طبعاً بالقضية السهلة! والآن لم يعد لدى بريفلوري سبب لشكاواه. ألم يتلق متدربين بدل واحد كان يطالب به؟ آه! يا للمناورة الحاذقة. ودأب بريفلوري، طبعاً على الشكوى، من أنهما عبء عليه، لا أملاً بمساعدة فعلية. وهو لم يكن يشكو، صراحة، وإنما مروراً، بالمناسبة! وما فتىء أن سرى خبر، رغم كل شيء، بين الزملاء الأشرار أن أحداً ما سأل أوتومار، كيف يستمر بريفلوري على الشكوى، مع أنه حصل على مثل هذه المساعدة الاستثنائية. وأن أوتومار أجاب بأن تلك هي الحقيقة الدقيقة، فبريفلوري يشكو دائماً لكنه على حق! أما، أتومار فإنه آل إلى إدراك ذلك، وعزم على أن يلحق بمستخدمه من المساعدين، واحدٍ بعد الآخر، عدد ما يشغّل من عاملات، أي حوالى ستين تقريباً! فإذا لم يكفه ذلك، أمدّه بآخرين حتى يكتمل مستشفى المجانين الذي ينوي التحوّل إليه، منذ سنين، قسم بريفلوري! ولئن كان هذا القول من شيمة أوتومار، فإن بريفلوري كان على قناعة، بأنه بعيد عن الإفصاح عنه حوله هو. وما كانت تلك غير اختراعات من تنابل الطابق الأول. وما كان بريفلوري ليتوقف عند هذا ـ لكن من أين له أن يستطيع التصرّف نفسه بالنسبة لمساعديه؟ كانا دائماً هنا، لا يمكن اقتلاعهما أبداً! طفلان نحيلان وشاحبان! كانت شهادة ميلادهما تعطيهما حوالى أربعة عشر عاماً، لكن من يصدّق؟ كان يبدو أن مقامهما الحقيقي ليس في التدريب وإنما في حضني أمهما. ما كانا يعرفان كيف يقفان، بخاصة في الأيام الأولى؛ كان يضنيهما الوقوف طويلاً. فإذا تركهما دون مراقبة انهارا حالاً، لأنهما ذهبت قوتهما، وتكوّما في زاوية ما. وكان بريفلوري يحاول أن يفهمهما بأنهما سوف يمسيان عاجزين مدى الحياة إذا استسلما لهذه الشاكلة. كان تكليفهما بأية مهمة خطلاً؛ فلقد طلب من أحدهما ذات مرّة أن ينقل شيئاً صغيراً ناحية، فاندفع في حماس شديد، جرح معه ركبته على المقرأ. وكانت الحجرة ملأى بالعاملات، والمقرأ بالبضاعة، لكن بريفلوري اضطر لترك كل شيء كي يذهب. فيضمّد تلميذه الباكي. غير أن هذا الحماس لم يكن إلا خارجياً. كانا أحياناً يريدان لفت النظر، كطفلين حقيقيين، وفي غالب الوقت ما

كانا يبغيان غير غش مراقبة رئيسهما والاحتيال عليه. وفي ذات يوم، ولحظة ملّحة جدّاً، انتقل بريفلوري، وهو ينضح عرقاً، إلى العدو إليهما، ففاجأهما يتبادلان الطوابع وراء البالات. كان بودّه لو يقضي عليهما! وهل من عقاب آخر لمثل هذا السلوك؟ لكنهما طفلان، وما كان رجلنا ليجيز لنفسه ضرب الأطفال! واستمر على احتمالهما حين طلب متدرباً، وعد نفسه ببعض المساعدة في الساعة التي يتطلب فيها منه توزيع العمل كثيراً من الجهد والنشاط. كان يرى نفسه وراء مقرئه، في وسط الغرفة، يوجه مجموع العمليات، فيما يركض المتدربون، على إشارة بسيطة منه، إليّ هنا وهناك للقيام بالتوزيعات. وفكرّ بأن مراقبته، مهما كانت دقّتها، غير كافية، في مثل هذا الفيض، وأن سيدعمها المتدربون الذين يكتسبون قليلاً قليلاً التجربة والمبادرة، ويفضي بهم الأمر إلى التمييز بأنفسهم، بين العاملات وما يحتجن من تموين بالمواد الأولية ودرجة الثقة التي يمكن أن يمنحن. أوهام عبث! لقد فهم بريغلوري سريعاً أنه لا ينبغي له أن يدع هذين الطفلين يتحدّثان مع العاملات. فهما منذ بداياتهما لم يريدا، أو لم يجرؤا، على إقامة علاقات مع بعض منهنّ، فيما كانا يفضّلان بعضاً آخر، ويركضان لاستقبالهنّ حتى باب المكتب. وكانا يحملان للأخيرات كل ما يردن، ويدسّانه كأنما خفية بين ايديهن، حتى عندما يكون لهنّ الحق فيه، أو أنهما يجمّعان للآئي يفضّلان كل أنواع فضلات القماش على رفّ فارغ، وهي بقايا لا قيمة لها، وغير ذلك من الترّهات التي قد تستخدم أحياناً، فيلوحان بها لدى وصولهن، من وراء ظهر رئيسهما، وهما يشعّان فرحاً. وكنّ، مقابل ذلك، يدسسن لهما الملبّس في فيهما. لكن بريفلوري ما لبث أن أوقف كل هذه التجاوزات، فكان يدفع معاونيه، عند وصول العاملات، إلى وراء الباب الزجاجي. ولقد وجد الأخيران أن هذا التصرّف لا مبرّر له فكانا يزعلان، ويكسران عمداً ريشهما، ويضربان على الزجاج، دون أن يتجرّآ على رفع رأسيهما، كي يلفتا انتباه العاملات، فيشهدن، على ما يعتقدان، أنهما ضحيته من اضطهاد.

أما عن تقصيرهما، فإنهما ما كانا ليستطيعا إدراكه. مثلاً، إنهما يصلان دائماً متأخرّين. وبريفلوري معلمهما الذي فرض على نفسه واجب الوصول، منذ مطلع شبابه، إلى المكاتب قبل افتتاحها بنصف ساعة ـ لا عن فيض في الحماس أو مبالغة بالدقة ـ وإنما ببساطة عن تهذيب ـ بريفلوري نفسه، يضطر لانتظارهما أحياناً ساعة أو أكثر! والمشهد هو التالي، عامّة: يجلس، في الحجرة، وراء

مقرئه، يأكل الكرواسّان، وهو يخرج دفاتر حسابات العاملات، وبعد قليل يستغرق في عمله، فإذا هو ينتزع فجأة منه بصورة عنيفة تجعل الريشة ترتجف بعد ذلك مدّة طويلة في يده؛ إنه أحد المتدربين وقد دخل كأنه هبوب ريح! تكاد تظن أنه سوف يغمى عليه، فهو يتعلّق بيد بشيء ما، وبالثانية يضغط على صدره اللاهث. . ، وما كل هذا الإعياء إلا كي يعتذر عن التأخر، عذراً من الغلظة يتصنّع معها بريفلوري أنه لم يسمع، أو كان مضطراً لضرب هذا الدخيل كما يستحق! وهو يكتفي بالتحديق لحظة إليه ثم يشير بيده إلى مكانه ويعاود عمله. والطبيعي أن يسرع الطفل إلى مكانه، نظراً لطيب رئيسه. لكن لا! إنه ينطنط على رأسي قدميه ويضع في تكلّف قدماً أمام أخرى. هل يهزأ به؟ حتى ولا هذا! إنه لا يعدو اختلاط الخوف بالوقاحة عنده، حتى لتنشده! وإلّا فكيف يصلان بهدوء، ذراعاً بذراع، في هذا اليوم بالذات الذي وصل فيه بريفلوري نفسه متأخراً؟ وما كانت به أدنى رغبة لمراجعة دفاتر العاملات، ولقد لمحهما، لكن بعد انتظار طويل، في الشارع، عبر غيمة من الغبار أثاره، في غباء، خادم المكتب بمكنسته. وكان يبدو عليهما أنهما يتبادلان أسراراً هامّة، علاقتهما الوحيدة بالمكتب أنها ولا شك، مما لا يجوز فيه! وكان خطوهما يتباطأ بالقدر الذي يقتربان فيه من الباب الزجاجي، وأخيراً يمسك أحدهما بالمزلاج دون أن يديره. إنهما لم ينتهيا، ولا غرو، من ضحكهما وبوحهما!

ويصيح بريفلوري وهو يمرّ ذراعه: «افتحا إذن أيها السيدان المتدربان!» لكنه منذ أن يدخلا، يذهب غضبه، ويقلع عن الزعل، ويتجاهل تحيتهما ويذهب فيجلس إلى مكتبه. ويستأنف حساباته وهو يوجه لهما في بعض الأحيان نظرة. أحدهما يبدو متعباً جدّاً، يفرك عينيه، وحين يعلّق معطفه، يستغلّ المناسبة فيستند لحظة إلى الحائط. لقد كان في الشارع، مع ذلك نشيطاً، غير أن مجرد اقترابه من العمل يتعبه. أما الآخر فله، على عكسه، رغبة في العمل، لكن فيما يعجبه فحسب. إنه يحلم منذ زمن طويل، بأن يكنّس. وهذا ليس عمله، لأن خادم المكتب خصص لذلك! والحقّ أن بريفلوري ما كان ليعترض، وبوسع المتدرب أن يكنّس، لأن عمله لن يكون أسوأ من المولّج به. لكن إذا كان السيّد يرغب في التكنيس، فقد وجب عليه أن يأتي قبل أن يبدأ شغله الكنّاس المكلّف. وهو لا يجوز له، في أية حال، أن يكرّس له الوقت، الذي ألزم به حصراً في أعمال المكتب. لكن ما دام هذا الولد لا ينفع فيه المنطق، فإن خادم المكتب،

العجوز، نصف الأعمى الذي لا يطيقه المذير أكيداً، في قسم غير قسم بريفلوري، والذي حياته ليست إلا نتيجة لفضل الله وربّ العمل - بوسعه على الأقلّ أن يتسامح ويتنازل لحظة عن المكنسة للمرشّح الذي يسترق إليه النظر لقلة خبرته. ولن يلبث هذا الأخير حتى يفقد الرغبة في التكنيس فيركض بمكنسته وراء صاحب اللقب فيتضرّع إليه كي يستمر. غير أن المولّج يبدو عليه الاحساس الحادّ بمسؤولية الكنّاس؛ فما أن يقترب منه المتدرّب حتى يرى وقد ثبّت المكنسة بين يديه الراجفتين، وفضّل ألا يعمل شيئاً ويقلع عن مهمته كي يركزّ كل انتباهه على امتلاك المكنسة. ويضرع إليه المتدرب، لكن دون أن يقول كلمة، لأنه يخاف بريفلوري، وهو لا يخفى عليه تظاهره بالانصراف لحساباته. كما أن الكلام لا يفيده، لأن المكلف أطرش كقدر. وغيّر الوبش تكتيكه فبدأ يشده بلطف من كمّه. وأدرك الكنّاس نيته، فنظر إلى يده بوجه قاتم وهزّ برأسه وهو يضغط مكنسته بشدّة على قلبه. عندها يضمّ المهاجم يديه ويسقط على ركبتيه، دون أن يكون لديه أيّ نوع من الأمل في تقبّل رجائه، لكن الحركة تسلّيه. ويتابع المتدرب الثاني المشهد في ابتسامة خفيفة، ويبدو عليه الظن، خلافاً لكل منطق، أن بريفلوري لا يرتاب بشيء. غير أن إيماءة التضرّع لم تؤثر أبداً بالذي وجهت إليه، فقد استدار، وهو يتصور أن باستطاعته استئناف عمله بسلام. غير أن الآخر تبعه وهو ينطنط على رأس القدم ويلوي يديه، ويتوسل إليه الآن، من الجهة المقابلة. واستدار العجوز - وتكررت اللعبة عدّة مرّات. ويحسّ العجوز أخيراً أنه محاصر، وتبينّ ما كان بوسعه أن يتبين منذ البدء، في بعض البساطة، من أنه سوف يتعب قبل مضطهده. وبحث عن عون، فهدد بأصبعه مشيراً إلى بريفلوري، الذي سوف يشكوهما، إذا استمرّا. ويدرك الآخر، أن عليه، إذا أراد أن يستولي على المكنسة، أن يتحرّك سريعاً، فمدّ يده بشجاعة، كي يقبض على المكنسة. ويعلن المتدرب الثاني، بصرخة لا إرادية، أن الخاتمة قريبة. وينقذ المكلّف، هذه المرّة، أداته بأن قام بخطوة إلى وراء وردّ المكنسة إليه. ولم يسلّم الآخر، بل قفز وفمه مفتوح وعيناه تقدحان. وفرّ الكنّاس، غير أن فخذيه العجوزان ارتجفا أكثر من أنهما ركضا. وشدّ الولد على المكنسة... ولئن لم يستطع الامساك بالذراع، فقد توصل على الأقل إلى إسقاطه وانتزاعه من المدافع عنه. نصر عبث! تسمّر الثلاثة... لأن بريفلوري بات الآن على وشك اكتشاف كل شيء. وقد نظر بالواقع من كوّته الصغيرة، كما لو أنه أنذر الساعة، وتفرّس في كل منهم بنظرة محقق قاسية. المكنسة، نفسها، وهي على الأرض، لم تنج من

نظرته. ولربما طال الصمت كثيراً، ربما لم يستطع المذنب أن يكبح رغبته بالتكنيس، فانحنى، في كثير من الحكمة، كما لو أنه يريد أن يقبض على حيوان لا على مكنسة، والتقط الأداة ولمس بها الأرضيّة، لكنه رماها حالاً في حركة رعب. وانبثق بريفلوري من مكمنه فمدّ يده يعيّن لكل من مساعديه مكانه على مقرئه، وقد صاح قائلاً:

- هيّا كلاكما إلى العمل، دون أية حركة!

وأطاعا حالاً، ومرّا أمامه، حائرين مرتبكين وهما يتمايلان ويحدّقان إلى عينيه كي يمنعاه عن ضربهما. ولو أنهما كان ينبغي أن تعلمهما التجربة أن بريفلوري لا يضرب عن مبدأ. لكنهما وجلان يحاولان دائماً، دون أية لياقة، الحفاظ على حقوقهما أو ما يريان فيه كذلك...

انتهى النصّ

البلاغ

ذات صباح شتائي من برد وضباب ورع البلاغ أدناه في دار الأجرة المخيفة، التي ترصّعها خرائب قروسطيّة، لا تبلى - الدار التي نسكنها في الأرباض:

إلى كل مؤاجريّ

أملك خمس بنادق أطفال. وهي معلقة في خزانتي، كل بعلاقتها. الأولى تخصّني، أمّا الأخريات فهي لمن يقدم نفسه. فإذا سجل أكثر من أربعة أشخاص أنفسهم، وجب على الزائدين أن يأتوا ببنادقهم فيضعوها في الخزانة. لأن الاتحاد يجب أن يكون قاعدتنا. دون قاعدة ودون اتحاد، لا نستطيع فعل شيء حسن! هذا وبعد، فليست عندي غير بنادق لا تصلح لأي شيء، آلتها معطّلة، سداداتها انتزعت، وبقي الزناد وحده يتحرك. ولن يكون صعباً، عند الحاجة، الحصول على بنادق أخرى مشابهة. لكني في الأيام الأولى أقبل أن يأتي بعض دون بندقية. نحن الذين نملك البنادق، سوف نحيط، في الوقت المناسب بالذين لا يملكون. مثل هذا التكتيك، أثبت فعاليته عند مزارعي أمريكا تجاه الهنود، فلم لا يفعل هنا ما دامت الشروط هي نفسها؟ وبوسعنا مع طول المدّة أن نتخلّى عن البنادق، حتى الخمسة ليست دون غنى عنها، فهي لا يجب أن نستعملها إلا

لأنها هنا. إذا كانوا لا يريدون الأربعة الأخرى، فعلى مراقهم! في هذه الحال، أغدو الوحيد الذي يحمل واحدة، بصفتي زعيماً... لكنهم يمنعوننا من أن يكون لنا زعيم! سوف أكسر إذن أنا أيضاً بندقيتي أو أهملها.

كان هذا هو البلاغ الأول. إنّ أحداً في بيتنا، ليس لديه الوقت، ولا الرغبة في قراءة البلاغات، وأقلّ من ذلك التفكير فيها! وأسرعت الأوراق للسباحة في موج القذارات الذي خرج من مخزن الغلال وضخمته الممرات جميعاً وانحدر على الأدراج فاصطدم هناك بتيار مضاد صعد فتضخّم من تحت. غير أن بياناً ثانياً وزع في الأسبوع التالي:

أيها المؤاجرون

لم يتقدّم إليّ أحد حتى الآن. ولقد بقيت باستمرار في بيتي، بالقدر الذي يسمح لي فيه عملي، وبقي بابي في غيابي دوماً مفتوحاً، وعلى طاولتي ورقة يستطيع من شاء أن يسجّل نفسه عليها. لم يفعل أحد!

العوسجة اللاهبة

سقطت في عوسجة تيهيّة[1]. ناديت حارس الجنينة في صيحات عظيمة. هرع، لكنه لم يستطع الوصول إلي.

صاح: «كيف استطعت أن تندسّ في داخلها؟ إرجع بنفس الطريق!»

أجبته: «مستحيل، لات طريق. كنت أتنزه بهدوء غارقاً في الأفكار وفجأة وجدتني هنا! كأنّ العوسجة نبتت حولي. لن أخرج منها، لقد ضعت!

قال الحارس: «أيها الولد! لقد بدأت بأن سلكت طريقاً حراماً، فدخلت في هذه العوسجة المخيفة، ثم أخذت تشكو... مع أنك لست في غابة عذراء! إنها جنينة عامّة. سوف تُنتشل منها.

- جنينة عامة! لكن هذه العوسجة الكريهة ليست في مكانها في جنينة عامّة... وكيف أُنتشل - من هنا إذا كان لا يستطيع دخولها أحد؟ إن كانت هنالك رغبة في المحاولة، فلتبدأ حالاً. ها قد حلّ المساء، ولن أقضي الليل أبداً

---

(١) من تيه.

في هذا المكان. لقد خدشت جميعاً، وفقدت نظّارتي؛ مستحيل أن أجدها، وأنا دون نظّارة شبه أعمى!

قال الحارس: «كل هذا، حسن جدّاً، لكن يجب أن تصبر قليلاً، يجب أوّلاً أن أبحث عن العمّال كي أشقّ طريقي، وقبل ذلك يجب أن أطلب إذن المدير. فقليلاً من الصبر والشجاعة، أرجوك!

في كنيسنا

يعيش في كنيسنا حيوان يبدو على قدّ السمّور تقريباً. كثيراً ما نلمحه، لكن على مسافة مترين أو تكاد؛ فهو لا يدع أحداً يقترب منه أكثر. لونه أخضر أزرق كاشف، ولم يلمس فروه أحد. فكان اذن مستحيلاً قول أي شيء عنه؛ وبوسعنا أن نؤكّد أنّ لونه الحقيقي مجهول. أولاً يمكن أن يكون هذا الأخضر ـ الأزرق نتيجة للغبار والجبس اللذين أشبع فروه منهما؟ هذا اللون يذكّرنا بالحقيقة بكمخة الكنيس الداخلية، غير أنها أكشف قليلاً. ولكنه فيما عدا غريزته الخائفة، حيوان هادىء ومقيم. ولو أن إزعاجه يقلّ، لما بدّل مكانه إلا نادراً. ومكانه المفضل شبكة جناح النساء؛ وهو يتعلّق بسرور ظاهر بحلقات الشعرية، ويتمطّى وينظر من هناك إلى المؤمنين. ويبدو أن هذا الوضع الخطر يلائمه، لكن الخادم لديه تعليمات بألاّ يدعه أبداً في سلام، فالحيوان يتعرّض إلى التعوّد على هذا المكان، وهو أمر مرفوض، نظراً لأن النساء يخفن منه! وأسبابهن ليست شديدة الوضوح. والبهيمة تبدو للوهلة الأولى على منظر مخيف فعلاً: رقبة طويلة، ووجه مثلث، وقواطع عليا شبه أفقية، ولبدة كاشفة اللون طويلة، مظهرها قاس جدّاً تطفو على الأسنان بدءاً من الشفة العليا... هذا كله وجد كي يرعب! لكن سريعاً ما اعُترِفَ بأنّ هذا الكائن الراعب، قليلاً جدّاً ما يرعب في الحقيقة. إنه قبل كل شيء يتمسّك بالبقاء بعيداً عن الانسان، فهو أشد خوفاً من بهيمة في غابة، ويبدو عليه أنه لم يتعلق إلا بهذا البناء، الذي هو، لبؤسه، كنيس، يزدحم كثيراً في بعض الأحيان. ولو أنه أمكن التفاهم معه، لكانت تعزيته على الأقلّ ممكنة، بأن نظهر له أن مجتمع ضيعتنا الجبلية ينقص من سنة إلى سنة وأنه بات يلاقي صعوبة في تأمين نفقات صيانة الكنيس. وليس مستحيلاً أن يغدو الكنيس بعد وقت قليل أهراء أو مايشبهها، وعندها يجد السلام، الذي يفوته الآن في قسوة. ـ وإنه لصحيح أن النساء وحدهنّ يخفن منه، مع أنه منذ زمن بعيد لا يوحي غير عدم الاهتمام للرجال. لقد دلّ عليه جيل لآخر، ورأوه

يعود دائماً للظهور، حتى باتوا لا يعيرونه أدنى اهتمام. حتى ولا الأطفال الذين ملأهم، مع ذلك، في المرّة الأولى دهشة! لقد غدا حيوان الكنيس الداجن. ولم لا يحق للكنيس أن يكون له حيوانه، تلك البهيمة التي لا توجد في سواه؟ ولولا أنّهن النساء، لما تكلم أحد في شأنه أبداً. لكن حتى النساء لا يخشينه حقاً. وإنه ليكون أمراً عجباً أن تخاف مثل هذا الحيوان، على مدى الأيام، خلال سنوات بل عشرات السنين! إنهنّ يتعلّلن، في الحقيقة، أن الحيوان يبقى عادة أكثر قرباً إليهن من الرجال. وهذا صحيح. إنه لا يجرؤ في الواقع على النزول إلى ناحية الرجال، وهو لم يرَ أبداً على الأرض. حتى إذا دفع عن الوصول إلى شعرية النساء، حاول عندها، أن يقبع على الأقل على الجدار المقابل، على نتوء صغير، عرضه لا يتجاوز إصبعين، يمتد على جهات الكنيس الثلاث، ويروح الحيوان ويغدو خلسة، أمّا في العادة فهو يقعى هادئاً على نقطة مواجهة للرجال. إننا لا نصل أبداً إلى أن نفهم كيف يستطيع استخدام طريق على هذا الضيق استخداماً جيّداً، والطريقة التي يدور بها على عقبيه عندما يصل إلى طرف الإفريز هي غريبة جداً: إنه بالواقع حيوان جدّ عجوز، لكنه لا يتردد عن القيام بأصعب قفزة خطرة، دون أن يخطىء فيها أبداً. وهو يبدّل في الهواء اتجاهه ويراجع طريقه! لكن المرء بعد أن يشاهده عدة مرات، يتعب من هذه اللعبة ويلتفت عنها بعينيه. وعدا عن ذلك فإن سبب اضطراب النساء ليس الخوف ولا الفضول؛ ولو أنهن فكرّن أكثر بالصلاة، لنسين الحيوان تماماً. هذا كان يغدو، أكيداً، سلوك النساء التقيّات، لو أن الأخريات يوافقن، لكنّ أولاء الأخيرات يتمسكن دائماً بأن يلفتن الأنظار، والحيوان يمنحهنّ أفضل الحجج. ولو أنهنّ استطعن أو تجرأن لجذبنه أقرب إليهن، لغاية وحيدة هي أن يظهرن أنهن أشدّ رعباً. لكنه في الحقيقة، لا يبحث عن وجودهن؛ ولو أن أحداً لا يهاجمه، لما اهتم بالنساء أو الرجال إلا قليلاً، ولفضّل ولا شك البقاء في مخبئه الذي يعيش فيه خلال فترات ما بين إقامة الشعائر، وهو على ما يبدو وجر في حائط لمّا نكتشفه. وهو لا يظهر إلا في بداية الصلوات، مرعوباً من خريرها. هل يريد رؤية ما يجري؟ أن يأخذ حذره؟ أو أن يستعدّ للفرار بكلّ حرية؟... إن الخوف هو الذي يدفعه للخروج، إن الخوف هو الذي يجعله يقوم بشقلباته ويجبره على البقاء حتى نهاية الصلاة. وهو يفضّل، حرصاً على أمنه، الأجزاء العالية في المعبد، كما يتحرك أسهل حركة على الشعرية والأفريز. لكنه لا يبقى فيهما طيلة الوقت، فهو ينزل أحياناً إلى أدنى في جهة الرجال، ويبدو أنه تجذبه انعكاسات الحمالة النحاسية

التي تمسك سجف التابوت؛ وهو ينسلّ غالباً إلى هناك، لكنه يبقى هادئاً؛ وهو، كما يبدو، لا يعكّر الاحتفال حتى عندما يلمس التابوت. وهو يعطي انطباعاً بأنه يرمق الجماعة بعينيه الصافيتين المفتوحتين دائماً (واللتين ربما كانتا بلا جنون) لكنه لا ينظر، أكيداً، إلى أحد وإنما يترصد فحسب، كل الأخطار التي يحس أنه مهدّد بها.

وهو، في هذا المجال لا يظهر أكثر عقلاً من نسائنا، وذلك حتى الأيام الأخيرة على الأقلّ. وأي خطر يخشى، ومن يريد به شرّاً؟ ألم يترك منذ سنين طويلة إلى نفسه تماماً؟ فالرجال لا يهتمّون به أبداً، وغالبية النساء العظمى تغدو تاعسة لو رأته يختفي. وبما أنه حيوان الدار الوحيد، فإنه ليس له أدنى عدوّ. وكان بوسعه، على كل حال، أن يدرك هذا، عبر السنين! وقد تخيفه ضجة التعبّد، لكنه ألا يسمع كل يوم تلك الهمهمة الخفيفة، التي ترتفع قليلاً في أيام الأعياد وحدها، ألا يسمعها، في نفس الساعة دائماً، يوماً بعد يوم؟ إن أشدّ الحيوانات خوفاً، كان يتعوّدها أفضل منه، منذ أمد طويل، فلا يجد فيها ضوضاء اضطهاد، بل ضجة لا تعنيه أبداً. لكن هذا الخوف! هل هو ذكرىٰ أزمنة مضت، أم حدس بأزمنة مقبلة؟ هذا الحيوان العجوز يعرف عنها، بالصدفة، أكثر مما تعرفه ثلاثة أجيال توجد مجتمعة أحياناً في داخل الكنيس.

يبدو، أنهم، منذ سنين طويلة، جرّبوا طرده. ربما! لكن الأرجح، أن تلك حكايات. بوسعنا أن نبرهن أن قد درست المسألة، من وجهة نظر تلمودية، أي معرفة إمكان قبول مثل هذا الحيوان في بيت الله. وجمعت تقارير حاخامين مشهورين. كانت الآراء موزّعة، وقد طالبت الأكثرية بطرد الحيوان وبتكريس جديد لبيت الله. غير أن إصدار مرسوم من بعيد شيء ـ والقبض على الحيوان ثم طرده شيء أصعب وربما مستحيل. مع أن القبض عليه فحسب ونقله إلى بعيد كانا يقدّمان الضمانة النسبية بالخلاص منه...

نهاية النصّ

قناديل جديدة

البارحة، ذهبت للمرّة الأولى، إلى الإدارة. فلقد اختارني فريقنا الليلي رجل ثقته. وكانت ميكانيكية وتعبئة قناديلنا غير مرضية، فوجب علي أن أحاول تداركها وأغامر بمسعى في الأعلى. ودلّوني على المكتب المختص فطرقت الباب

ودخلت. واستقبلني بالابتسامة شاب شاحب جدّاً ونحيل، وراء مكتب كبير. كان يحني رأسه - أكثر مما ينبغي. لكن هل وجب أن أجلس؟ كانت توجد هنالك كنبة، لكني قلت في نفسي، ربما كان أفضل في الزيارة الأولى ألّا استعملها مباشرة. وظللت واقفاً كي أعرض القضيّة. غير أن تواضعي كان يفاقم بالضبط جهد الفتى العسير. كان عليه في الوقت نفسه أن يلتفت ويرفع عينيه إلى وجهي، كي لا يحرك كنبته، وهو أمر جهد في أن يتحاشاه. وفوق ذلك وأيّاً كان فضله، ما كان بوسعه أن يخلع تماماً رقبته! ولقد كان إذن ملزماً، فيما أتكلّم أن ينظر إليّ جانبيّاً، وأن يوقف عينيه على نصف الطريق من السقف، وأن أقلّده أنا لا إراديّاً. عندما انتهيت، قام ببطء، وربّت على كتفي!

- لكن نعم، لكن نعم! أكيداً! واصل قوله وهو يدفعني في الحجرة المجاورة.

كان واضحاً، أن سيّداً كبير الذقن أشعثها، ينتظرنا فيها. لم يكن على طاولته أي أثر للعمل. كان هنالك على العكس باب زجاجي يظلّ مفتوحاً على بستان امتلأ زهراً وجنبات. ولقد كفت السيد عدة كلمات همس بها الشاب كي يحيطه بالأمر، فهم منها طلبي المعقّد. ووقف حالاً، وقال لي:

- هكذا يا عزيزي . . . ثم توقف.

ظننت أنه يريد معرفة اسمي. وفتحت فمي كي أقدّم نفسي، لكنه قاطع كلامي:

- حسناً، حسناً، أنا أعرفك جيّداً. الطلب مبّرر أكيداً، وزملائي في الادارة وأنا آخر من لا يعترف بذلك، يقيناً. إننا نهتم بسعادة رجالنا، صدقني، أكثر من مصلحة المنشأة. ولم لا يكون الأمر كذلك؟ بوسعنا دائماً أن نعيد المنشأة، فهي لا تكلف إلا المال، وإلى الشيطان المال! أما إذا سقط فيها رجل، فهو رجل مات؛ وهنالك الأرملة والأطفال. آه، يالله! إننا نرحب إذن بكل مشروع، بكل زيادة في الأمان، بكل تحسين، بكل سبب جديد للراحة، حتى ولو كان رفاهاً بحتاً! كل من جاء بهذه النيّة هو رجلنا. دع لنا إذن اقتراحاتك. سوف ندرسها بعناية؛ فإذا وجد ما يضاف إليها من بعض جديد صغير، فإننا لن نلغيه حتماً. وعندما ينتهي كل شيء، كانت لكم القناديل الجديدة. لكن قل لرجالك الذين هم هناك، تحت: لن نتوانى حتى نجعل من رواقكم صالوناً،

وفوق ذلك كله كي لا تهلكوا فيها من فاقة! عواطفي . . .

السيف

اتفقت وصديقين على نزهة يوم الأحد، لكنيّ لم استيقظ، وتركت خلافاً لعاداتي، ساعة الموعد تمرّ. وعجب صديقاي، اللذان يعرفان دقتي، من غيابي. جاءا إلى البيت، وانتظرا بعض الوقت، ثم صعدا الدرج، وقرعا بأبي. انتفضت، وقفزت خارج السرير، ولم أفكر إلا بالاستعداد في أسرع ما يمكن. ولم أفتح الباب إلاّ بعد أن لبست، لكن صديقاي تراجعا من منظري. وقد وضح أنهما خافا. صاحا بي:

ـ ماذا في قفا رأسك؟

عندما استيقظت أحسست بشيء يمنعني عن الانحناء إلى وراء. وتلمست نقرتي. في هذه اللحظة التي استرد فيها صديقاي جأشهما، صاحابي:

ـ انتبه! لا تجرح نفسك!

أمسكت بقبضة سيف في قفا رأسي! اقترب صديقاي وفحصاني وقاداني الى الغرفة أمام الخزانة ذات المرآة، ونزعا عني ثيابي حتى نصف الجسد. سيف كبير، عتيق من عهد الفروسية، بقبضة على صورة صليب، أنشب حتى المقبض في ظهري! غير أن الحد انغرز تماماً بين اللحم والجلد، فلم يسبب جرحاً. ولم يكن من أثر في المكان الذي دخل منه رقبتي فقد ظل سليماً جافّاً، وأكد لي صديقاي أن الفتحة الضرورية لمرور الحدّ كانت مفتوحة، دون أية نقطة دم. ثم وقفا على كنبة، وسحبا السيف ببطء، مليمتراً، بعد ميليمتر ؛ ولم تندّ أية نقطة دم وانغلقت فتحة العنق باستثناء صدع لا يرى في الجلد.

قال صديقاي وقد ناولاني السيف ضاحكين: «هوذا سيفك!»

رزته باليدين ؛ سلاح قيمته عالية، ربما استعمله بعض الصليبيين!

من يسمح لفرسان قدماء أن يضلّوا في أحلامنا وهم يلّوحون على هواهم بسيوفهم، ويطعنون النائمين المسالمين؟ ولئن لم يجرحوهم جروحاً خطرة، فإنما ذلك ولا شكّ لأن سيوفهم تنزلق عن الأحياء. . . ولأن أصدقاء مخلصين أيضاً يوجدون وراء الباب كي يقرعوه إحساناً!

بحوث كلب[1]

لكم تبدّلت حياتي، ولكم كان، مع ذلك، قليلاً ما تبدلته! لو أن فكري يرجع إلى الأزمنة التي كنت أعيش فيها في وسط مجتمع كلبي وأشارك بكل همومه - كلب بين كلاب - فإني أجد، إذا أنعمت فيها النظر، صدعاً صغيراً: شيء ما كان يعرج فيها دائماً، نوع من الضيق كان يرافقني فيها دائماً. إن بين أكثر مؤسسات شعبي جلالاً، وأحياناً في نطاق الحميمين عندي، لا أحياناً، بل غالباً جداً، كانت مجرد رؤية أحد أشباهي الغالين عليّ، ولو أني ألاحظه، ولأقل، من زاوية جديدة، تجعلني حائراً، قلقاً، تحزنني حتى لتصل بي إلى اليأس. كنت أحاول أن أصغي إلى العقل، وساعدني أصدقاء بَحت لهم؛ ورجعت أوقات أكثر هدوءاً . . . أوقات أستقبلهم فيها بصفاء أشدّ، ولو أني لم أكن فيها بمنجاة من مثل تلك المفاجآت، وكنت بصفاء أشدّ، أدخلهم إلى حياتي! ولربما كانت تحمل لي التعب والاجهاد، لكن، إذا أخذنا كل شيء باعتبارنا، فإني بقيت كلباً ليقاً، على بعض البرود، متحفّظاً، قلقاً، حريصاً. وكيف كنت أستطيع، دون فترات الاسترخاء هذه أن أصل إلى العمر المتقدم الذي اتمتع به الآن؟ كيف كنت أستطيع، عبر كل تلك المعارك، أن أصل إلى الهدوء الذي أتأمل فيه كل آلام شبابي وأحتمل آلام العمر؟ كيف كنت أصل أبداً إلى استخلاص نتائج طبع بائس، أوافق على ذلك (أو كي أحترس أكثر بالتعبير، غير سعيد جداً)، وأن ألائم حياتي معه تماماً تقريباً؟ أنا المعتزل، المتوحدّ الذي ليس له من شاغل غير تجاربه الصغيرة التي لا جدوى منها، والتي لا أستطيع أن أعدل عنها، فهي حياتي! لكنيّ في قلب وحدتي، حافظت على نظرة شعبي، كما تصلني منه الأصداء. وأنا أوافيه من وقت لآخر بأخباري. إنهم يعاملونني باحترام؛ لا يفهمون طريقتي في الحياة؛ ولكنهم لا يعترضون عليها؛ بل إن بعض الكلاب الفتيان الذين أراهم يمرّون بين الفنية والفينة من بعيد، وهم الجيل الجديد الذي لا أذكر طفولته إلا في غموض، لا يرفضون أن يحيوني بإجلال.

يجب ألّا يغيب عن الذهن بأني بالرغم من شواذي، أصرّح أني لا أخون أبداً جنسي، أكاد! وعندما أفكر جيّداً بذلك - وعندي لذلك الوقت والسرور

---

(١) تعاملنا مع الضمائر في السياق على أن الكلاب أشخاص تارة وأخرى على انها كلاب بما لا يخفى على القارىء.

واللذّة - فإن المجتمع الكلبي شيء غريب. توجد حوالينا نحن الكلاب، كل أنواع المخلوقات، كائنات مسكينة وهزيلة، خرساء، اقتصرت على بعض الصياح...، ولقد كرّس كثير منا نحن الكلاب نفسه لدراستها فأعطوها أسماء، وحاولوا مساعدتها، وتثقيفها، وتحسين أمرها إلخ... أما عنّي أنا، فهي عندي لا أهمية لها، ما دامت لا تزعجني، فأنا لا أتميّزها، ولا أتوقف عندها! لكنها لها صفة أبرز من أن تفلت منّي، فهي، بالمقارنة معنا نحن الكلاب، ينقصها التعاون، والطريقة التي تلتقي بها، كأنها غريبه وخرساء، بل عدوانية...؛ المصلحة الخسيسة، وحدها يمكن أن تعطيها مظهر الاتحاد، عندما لا تولد الأحقاد والنزاعات بالضبط من هذه المصلحة نفسها! بينما نحن الكلاب! نستطيع أن نقول حقّاً أننا نعيش جميعاً كومة واحدة، جميعاً، مهما جعلتنا متباينين، التبدلات التي لا تحصى والعميقة التي جلبتها مسيرة القرون! كلنا في كومة واحدة! إننا ننجذب بعض إلى بعض، وما من شيء يستطيع دفعنا عن الاستجابة لهذا الانجذاب، كل قوانيننا وكل مؤسساتنا السياسية، من نادرها الذي ما زلت أعرفه، وما نسيت مما لا يحصى منها، تنبع من الطموح إلى أكبر سعادة نستطيع تصورها وهي: أن ندفأ، وبعضنا حدّ البعض الآخر! لكن هنالك النقيض! لا توجد، حسب معرفتي، كائنات تعيش مبعثرة مثلنا، نحن الكلاب! ليس بينها من يمثل هذا التعدد اللانهائي بالفصائل، والأنواع، والمشاغل! نحن الذين نريد هذا الاتحاد - وبالرغم من كل شيء نظهر دائماً أننا أهل له في ساعات الحماس! - نرانا نعيش مفترقين، وقد استغرقنا في مهن غريبة لا يستطيع الجار - الكلب أن يفهم فيها شيئاً، وأخلصنا دائماً لأوامر ليست أوامر المجتمع الكلبي، بل هي، بالأحرى موجهة ضدّه! وأنا أفهم أيضاً أن تلك مسائل صعبة يفضّل عدم تحريكها! بل أنا أفضل فهماً لوجهة النظر هذه من وجهة نظري، أنا الذي كرست، مع ذلك، لها جسدي وروحي. ولماذا لا أعيش متفقاً مع شعبي، وأقبل في صمت ما يعكر هذا الانسجام، وأهمله وكأنه خطأ بسيط في المعضلة الواسعة؟ ولماذا لا أظل متجهاً إلى ما يوحدّنا، لا إلى ما ينتزعنا دائماً قهراً من الجماعة الشعبية؟

أذكر مغامرة من شبابي؛ كنت يومئذ في إحدى تلك الحالات السعيدة من الحماس الخفيّ التي يعانيها ولا شكّ كل الأطفال، كنت ما أزال كلباً صغيراً، يعجبني كل شيء، وأتعاطف مع كل شيء؛ أعتقد أن أحداثاً كبرى تقع حولي

وأني زعيمها، وأن عليّ أن أعيرها صوتي، وأنها سوف تجهض في بؤس إن لم أركض كي أضع نفسي في خدمتها، أولم أتحرك، من أجل ذلك، بجنون في جسدي. خيالات طفل تمضي مع السنين! لكنها كانت أيامئذ حيّة جدّاً؛ وكنت كلي تحت سحرها. وعندها طرأت واقعة خارقة (ولقد رأيت فيها بعد، الكثير من أسبابها، بل أكثر إدهاشاً!). لكن هذه ضربتني بكل قوّة الانطباع الأول، الذي يبقى من غير أن يمحي ويوجه ما يتلوه من انطباعات. وتلك هي: التقيت بعصبة صغيرة من الكلاب، أو بالأحرى، لم ألتق بها، هي التي جاءت للقياي. ولقد كنت جريت طويلاً في الظلمات، وأنا أحدس بأحداث كبرى - حدس، يخدع بسهولة، لأني، في الحق، كنت أعانيه باستمرار. كنت ركضت طويلاً في كل اتجاه في الظلمات، كأعمى أطرش، وليس من دليل غير رغبة غامضة... وفجأة توقفت وبي شعور أني أجدني في المكان المناسب، ورفعت عيني فـ... إذا هو الضحى، في ضباب خفيف، محمَّلٌ بكل عطور العالم المسكرة. وحييت الفجر بتمتمات مختلطة؛ وظهرت وكأنها تستجيب لدعوتي، وقد خرجت من الظلمات الخفيّة، سبعة كلاب يرافقها صخب راعب لم أسمع أبداً له مثيلاً! ولو أني لم أر بوضوح أنها كلاب وأنها تحدث هذه الضجة، دون أن أعرف كيف، لفررت حالاً. بقيت إذن، وأنا لا أعلم تقريباً شيئاً عن القدرة الموسيقية التي منحت لجنس الكلاب وحدها؛ لقد فاتت حتى الآن بشكل طبيعي، طاقتي على الملاحظة وهي البطيئة النموّ؛ أولم تحط بي الموسيقى، في الواقع، منذ المهد وكأنها عنصر طبيعي لا غنى عنه للحياة، وأن شيئاً لا يضطرني على تمييزها عن سواها؟ ولقد حاولوا، بالأوهام وحدها التي يستطيع إدراكها عقل الطفل، أن يجعلوني مرهفاً فيها. وعلى هذا كان مدهشاً، بل ساحقاً لي انطباعي عن السبعة موسيقيين العظام! كانوا لا يتكلمون، ولا يغنّون، صمتوا طيلة الوقت تقريباً في نوع من العناد الفظيع؛ لكنهم كانوا يجعلون الموسيقى تنبثق بأعجوبة من العدم. كل شيء كان موسيقي: طريقتها في رفع ووضع قوائمها، بعض حركات رؤوسها، عدوها وتوقفها، المواقف التي يتخذها بعضها تجاه بعضها الآخر، وتشكيلات تذكّر برقص كانت تنفذه بنظام حسن، بأن يضع أحدها قوائمه الأمامية على ظهر الآخر، ثم يأخذ بعدها وضعاً يحتمل فيه الأول، واقفاً، كلّ وزن الآخرين، أو أن تزحف جميعاً على الأرض وأجسامها تكوّن تشكيلات متشابكة؛ وكل هذا دون أن تخطىء أبداً! حتى ولا الأخير، الذي ما كان بعد ثابتاً، فهو لا يعرف دائماً، كيف ينسّق حالاً، ويتعثر أحياناً قليلاً في الإعادات، لكنه لم يكن قليل

الثبات إلا بالنسبة لثبات الآخرين الرائع؛ لكنه حتى ولو كان أسوأ ثباتاً، حتى لو كان دون تجربة تماماً، لما استطاع أن يفسد المجموعة فالآخرون، هؤلاء المعلمون الكبار، كانوا يضبطون الإيقاع دون هوادة. لكنهم كنّا نراهم لماماً، ما كنّا نراهم إلا لماماً. لقد انبثقوا. وبالرغم من أني اضطربت من الضوضاء التي رافقتهم، فقد حييناهم ككلاب، لأنهم حقّاً كلاب مثلك ومثلي؛ وكنّا ننظر إليهم كما نفعل عادة بالنسبة للكلاب التي نلتقي بها في الطريق. أردنا لو نقترب منها، وأن نتبادل التحيّات، فقد كانت دانية جدّاً؛ كلاب أكبر عمراً مني بكثير، إذا قلت الحق، وليست صوفاء من نوعي، بل ذات شعر طويل - لكنها ليست جدّ غريبة لا بقدّها ولا بشكلها، إنها على العكس أليفة جدّاً (وأعرف كثيراً من هذا النوع أو من نوع قريب)؛ وفيما استسلمنا إلى هذه الاستنتاجات، اجتاحت الموسيقى قليلاً قليلاً كل شيء. كانت تقبض عليك حرفيّاً فتجذبك بعيداً عن هذه الكلاب الصغيرة الحقيقية، وبالرغم، ومهما كان دفاعك، بالرغم من عواء الألم الحقيقي، كنت كلّك فريسة هذه الموسيقى! كانت وهي تنيخ من كل الجهات، من فوق، من تحت، من كل مكان، على المشاهد، تغرقه، تسحقه، تزهقه، بأبواقها القريبة بقدر ما هي بعيدة! ومن ثم تغدو أيضاً حرّاً من شدّة ما أرهقت وسحقت، وصرت أضعف من أن تستمع أيضاً، لكنّك حتى وانت حرّ، كنت ترى الكلاب السبعة الصغيرة تنفّذ تشكيلاتها وقفزاتها؛ وكنا نريد بالرغم من تحفّظها، أن نستفهم منها، أن نحصل على تفاسير، أن نسألها عما كانت تفعل - كنت صغيراً أظنني مفوضاً بسؤال من شئت - لكني ما أن هيأت نفسي، ما أن أحسست بالاتصال الطيب الأليف بالكلاب، حتى أنفجرت موسيقاها من جديد، فانتزعت مني كل شعور، وجعلتني أدور، كما لو كنت أنا نفسي أحد الموسيقيين، مع أني لم أكن سوى ضحيتهم، فكانت ترميني هنا وهناك، بالرغم من كلّ تضرّعي لها، لعلّها ترميني، كي أتخلّص أخيراً من سلطتها الخاصّة، في دائرة مسيّجة بأوتاد لم يحط بها انتباهي حتّى الساعة، وهي الآن تسجنني! كنت لا أستطيع رفع رأسي، من ضيق المكان، لكني كانت لديّ القدرة على التنفّس قليلاً، ولو أن الموسيقى استمرّت تعصف بحرّية بعيداً! والحق أني كانت تدهشني أكثر من فنّ الكلاب السبعة، وهو عندي لا يفهم ولا يفّسر ولا يدرك، شجاعتها في منح أنفسها، كلّياً وعلناً للمهمّة التي اضطلعت بها، واحتمالها هادئة ما هو فوق قواها، دون أن ينكسر العمود الفقري. ولقد اكتشفت، في الحقيقة، وأنا ألاحظها أفضل من ملجأي أنها لا تعمل هادئة وإنما في توتّر أقصى؛ وتلك

القوائم التي حكمت بأنها تتحرك بكل ذاك الثبات، ما كانت تكفّ عن الارتجاف، في قلق، لدى كلّ خطوة؛ وكان كلّ منها يحدِّق إلى الآخرين وكأنه ضربه اليأس، وما تنفكّ تسيطر من جديد على ألسنتها، التي تخرج ثانية للتوّ فتتدلىّ، رخوة خارج أشداقها. ربما كان الجزع للنجاح هو الذي يبلبلها هكذا؛ لكنّ منّ يجرؤ على الاندفاع في مثل هذه المغامرة، من ينجح فيها، لا يمكن أن يخاف أبداً. . . ، لكنّ ممّ تخاف؟ من كان يكرهها على أن تفعل ما كانت تفعل؟ لم أستطع أن أكبح نفسي أكثر؛ وكانت تظهر لي الآن ساكنة سكوناً خفيّاً جدّاً، وعلى هذا صحت بها، من قلب الضوضاء، بأعلى صوتي، ألحّ بأسئلتي. أما هي - عجيب، غريب! - فلم تجب وكأني لا وجود لي! كلاب لا تجيب بشيء على نداء كلب؟ يال له خرق للتقاليد؛ لا مغفرة فيه لفتيان الكلاب ولا لشيوخها! ربما لم تكن كلاباً هذه؟ لكن كيف لا تكون كلاباً، ما دمت عندما أصغيت، أدركت الهتافات الخفيضة التي يشجعّ بها بعضها بعضاً، ويدلّه على الصعوبات ويحذّره من الأخطاء؛ ما دمت كنت أرى الأخير وهو أصغرها، الذي توجهّ إليه أكثر الهتافات، وقد مال غالباً بنظره إلى جهتي، وكأنه يريد أن يجيبني، لكنه يمسك نفسه لأنه لا يجوز؟ لكن لم هذا المنع؟ لم لا يكون الأمر هذه المرّة على ما تقضي به قوانيننا الثابتة؟ كان هذا يثيرني حتى لقد بلغ بي إلى أن أنسى الموسيقى أو أكاد.

هذه الكلاب تخرق القانون؛ وهي تحت القانون، ولو كانت من عظام السحرة. إنه نفسه، الطفل الذي كنته، كان يفهم ذلك جيداً جداً. لكني لاحظت، من ملجأي، ما هو أدهى بكثير. كان الحق معهم في الصمت، ولو عن إحساس بالخطأ على الأقل. ويا لها من طريقة غريبة كانت تدفعهم بها الموسيقى لسلوكهم! لم أكن قد لاحظت ذلك؛ لقد لفظ البائسون، كل طهارة. ! لقد بلغوا أوج السخف والسفه. كانوا يمشون على أفخاذهم الخلفيّة! يا للرعب! لقد خلعوا ثيابهم وعرضوا في غرور عريهم؛ وفخروا بذلك، فإذا استجابوا أحياناً إلى طيب غرائزهم ووضعوا قوائمهم الأمامية على الأرض، خافوا من ذلك حرفيّاً، كما لو أنها غلطة، كما لو أن الاستجابة لطبيعتهم غلطة! كانوا يقفون سريعاً ويظهر عليهم من نظرهم أنهم يطلبون العفو عن هذه الهدنة القصيرة عبر حالة الخطيئة التي هم فيها. هل كان العالم مقلوباً؟ أين كنت؟ ما الذي حدث؟ هنا ما كان التردد ممكناً، فقد تناول الأمر وجودي أنا؛ وتخلصت من نطاق الخشب، وتركت في قفزة ملجئي كي أقترب منهم. لقد وجب علي، أنا التلمِيذ الصغير، أن أكون أستاذاً لهم! لقد وجب علي أن أحبسهم عن الاستمرار أبعد في الخطيئة! ولم

أنقطع عن الترديد في نفسي: «أهكذا شيوخ الكلاب هؤلاء، شيوخ الكلاب هؤلاء!» لكني ما أن صرت حرّاً، على بعد قفزتين أو ثلاث منهم فحسب، حتى استأنفت الضوضاء هيمنتها عليّ. ولربما كنت، في حماسي، قاومت، حتى تلك الضجة التي باتت أليفة عندي لولا أن تردد من قلب كل امتلائه المخيف ـ مخيف لكن مقاومته ممكنة ـ فطرحني أرضاً، لحن نيّر، قاس، متساو دائماً مع نفسه، لحن قدم صافياً من طرف العالم، ربما كان هو النغم الحقيقي في وسط الضوضاء. آه! لكن كانت ساحرة موسيقى الكلاب! كان مستحيلاً أن أخطو خطوة أبعد! أما أمر الدرس فغير وارد! وكان بوسعهم إذن أن يرتكبوا الخطيئة تلو الخطيئة وأن يجعلوا المشاهد شريكاً! كنت كلباً صغيراً جدّاً! ومن بوسعه أن يطلب منيّ واجباً ساحقاً كهذا؟ وجعلتني أصغر مما كنت. تأوهت. أو ربما كنت أعطيتهم الحق، لو أنهم طلبوا مني رأيي؟ وفوق ذلك لم يكن الأمر غير برق لحظة... واختفت الكلاب مع كل تلك الضوضاء مع كل ذاك النور، في الظلمات التي انبثقت منها.

وكما قلت أعلاه، فإن هذه المغامرة لم يكن فيها شيء خارق. والمرء، عبر الحياة إذا طالت، تحدث له أمور كثيرة، متى فرقناها عن الباقي، ورأيناها بعيني طفل، كانت أكثر إدهاشاً. والذي يبقى من هذه المغامرة ببساطة أن سبعة كلاب موسيقية التقت كي تعزف موسيقى في الصمت الصباحي، وأن كلباً صغيراً حشر نفسه بينها، فبحثت للخلاص من هذا المشاهد الطارىء بموسيقى مخيفة ورزينة، لكنها لم تنجح للأسف. وكانت أسئلة تضايقها. فهل كان عليها وهي التي أزعجها مجرد حضور هذا الدخيل بما يكفي. أن تعيره انتباهها فتتزيد في مللها بالموافقة على جوابه؟ وحتى عند الموافقة على أن القانون يأمر بالجواب عن كل سؤال، هل هذا الكلب الصغير الصغير، القادم مما لا أدري من أين، هل هو أحد ما؟ ربما كانت لا تستطيع فهمه أيضاً، ألم يكن يعوي أسئلته دون وضوح؟ بل ربما فهموه تماماً فأجابوه بعد أن بذلوا جهداً عظيماً؛ لكنه وهو الصغير، الغريب على كل موسيقى، لم يميّز الجواب من الموسيقى؟ أما عن المشي على القائمتين الخلفيتين، فربما لم تمش كذلك إلا استثناءً؟ وهذه خطيئة، لكنهم كانوا وحيدين، سبعة أصدقاء فيما بينهم، بجمعية صغيرة، ونستطيع أن نقول، في بيتهم، وما بين الأصدقاء ليس أمام الناس. وفضول كلب من الشوارع لا يبدل شيئاً، وفي حالتنا ألم يكن الأمر

وكأن شيئاً لم يحدث ؟ ليس تماماً وإنما تقريباً . . . وعلى الأهل أن يعلموا أبناءهم الركض أقل مما يفعلون ، وأن يعرفوا كيف يصمتون وأن يحترموا الأشخاص المسنين !

والمسألة مبتوت فيها من هذه الناحية . لكنّ ما بتّ فيه بالنسبة لكبار الأشخاص ، ليس كذلك بالنسبة للأطفال . فلقد ذهبت إلى مكان ، ورويت ، وسألت ، ونازعت وحقّقت . وأردت أن أجرّ كل امرىء إلى مكان لقائي ! وأردت أن أبينّ أين وجدتُ وأين وجدت الكلاب السبعة ! وكيف وأين قدمت حفلتها الموسيقية ! فإذا جاء معي أحد إلى المكان بدلاً من إبعادي ومن الضحك مني ، احتقرت براءتي وجرّبت الوقوف على قائمتي الخلفيتين كي أكرر المشهد تماماً ! وأخيراً ! إن الأمور تؤخذ على غير عواهنها من طفل ، بله العفو عن كل ما يأتي به في النهاية . ولقد حافظت أنا ، على هذه الناحية الطفولية ولو أني صرت كلباً عجوزاً . كما أني لم أتعب من التعليق على هذه المغامرة أمام الناس (وهي على كل حال أقلّ أهمية اليوم بعينيّ) وتحليلها في كل مراحلها ، وتقدير أهميتها ، والمقارنة بين ممثليها والأشخاص الحاضرين دون الأخذ باعتباري المجتمع الذي أوجد فيه ـ وقد استغرقت في هذه المسألة وحدها التي كانت تزعجني بالقدر الذي تزعج فيه محاوريّ ، ومن أجل هذا الشأن (وهذا ما كان يميّزني عنهم)، أردت أن أبيّنها بعمق كي أجد حرية فكري وأتمتع من جديد هادئاً بسلام الحياة وسعادتها . . . وعليه وجب علي أن أتصرّف ، كمافي ذلك الزمان ، لكن بأقلّ من الطفولة ـ غير أن الفرق ليس كبيراً جدّاً ! كما أني ما زلت اليوم ولم أتقدّم أبداً .

كان الأمر إذن بدءاً من تلك الحفلة الموسيقية ! لكني لا أشكو منه ، أبداً ؛ فقد كانت غريزتي الفطرية هي التي تتجلّى والتي ، وأنا واثق من ذلك ، لولا الحفلة الموسيقية ، كانت وجدت فرصة أخرى كي تعلن عن نفسها . لقد أسفت أحيانا في الماضي لابتسار تلك التظاهرة التي أفسدت جزءاً كبيراً من طفولتي ؛ فلم تدم عندي غير شهور ، حياة الكلاب الصغار السعيدة التي يعرف أكثر من واحد كيف يطيل بها سنوات عديدة . وأخيراً ! هنالك أشياء هي أهم من الطفولة ! وربما كان يخبّىء لي العمر المكافأة الصحيحة عن حياة جهد شاق ، وهي فرح الطفل الذي ليست لدى الطفل القوّة على احتماله ، لكني امتلكها أنا .

لقد بدأت في تلك الأيام بحوثي في أبسط الأشياء : ولم تكن المادة هي التي تنقصني . ياللأسف ! إن وفرتها نفسها هي التي تؤنسني في ساعاتي السوداء . لقد توخت بحوثي الأولى غذاء مجتمعنا . وهذه طبعاً ، إذا أردنا ، ليست مسألة سهلة ، إنها تشغلنا منذ بداية الزمن ، إنها مركز تأملاتنا ؛ والملاحظات في هذا المجال لا تحصى ، وكذلك التجارب والفرضيات . وتكوّن هكذا علم ، تتجاوز أجزاؤه الهائلة عبقرية عالم واحد ، أما كليته فتتجاوز عبقرية العلماء كلهم مجتمعين . والخلاصة ، فإن المجتمع الكلبي يستطيع وحده تحمل ثقله ، وذلك بإجهاد نفسه ؛ إنه علم تتفتّت أجزاؤه القديمة باستمرار ، وتتطلب تجديداً عسيراً ، دون الحديث عن الصعوبات والفرضيات التي ما يكاد يبرهن عليها والتي تصطدم بها بحوثي ! ولا يعترضن أحد علي في كل هذا ! أنا أعرف ككل كلب متوسط ، ولا تداخلني فكرة حشر نفسي في العلم الحقيقي ؛ فأنا أكنّ تجاهه كل الأحترام الواجب له ، غير أني ينقصني للمساهمة فيه ، الضروريّ من الثقافة والأجتهاد والهدوء ، وفي المقام الأوّل القابليّة ، وبخاصة منذ عدّة سنين ! وأنا أبتلع غذائي ، لكني يبدو لي أنه لا يستحق مني قبل ذلك أي إنعام بالنظر ذي طابع زراعي . يكفيني من هذه الناحية ، المثل الصغير ، زبدة كل معرفة ، الذي تقوله الأمهات لصغارهن عند الفطام : « إسق كل شيء بكل قوتك ! » ألا يحوي هذا كل شيء تقريباً ؟ وماذا يمكن أن تضيف إليه من جوهريّ الدراسة التي بدأها أجدادنا ؟ ترّهات ! ترّهات ! وكم هو غامض كل شيء ! غير أن هذه القاعدة تظلّ قائمة ما ظللنا ! إنها تتعلق بغذائنا الأساسي ؛ ونحن عندنا ، يقيناً ! مصادر أخرى ، لكننا عند الاقتضاء وإذا لم تكن المواسم سيئة ، استطعنا العيش من هذا الغذاء . ونحن نجده على الأرض ، والأرض بحاجة للماء الذي نريقه عليها . إنها تغتذي منه ، ولهذا السبب وحده تمنحنا غذاءنا ، الذي تستطيع بعض المعادلات ، ويجب ألا ننسى ذلك ، بعض الرّقى ، بعض الحركات أن تولده أسرع . لكنّ هذا هو رأيي نفسه ؛ ولا يوجد من شيء أساسي يقال حول هذا الموضوع . وأنا متفق أيضاً حول هذا مع أكثرية الكلاب الكاثرة وأصون نفسي بصرامةٍ من كل رأي ملحد . وليست الغرابة أو المماحكة ما يعنيني بصراحة ؛ فأنا سعيد بأن أكون على اتفاق مع مواطني ، كما هو أمر هذه الحالة . غير أن بحوثي الشخصية اتجهت اتجاهاً آخر . علمتني الملاحظة البسيطة أن الأرض إذا سقيناها واشتغلناها علمياً زوّدتنا بغذائنا من نوع ، وكمية ، وشكل ، وفي الأمكنة والساعات التي تفرضها أيضاً قوانين العلم الثابتة كلياً أو

جزئياً . وأنا ليس لي اعتراض، لكن السؤال لدي هو : « من أين تأخذ الأرض هذا الغذاء ؟ » سؤال نتظاهر عامّة بعدم فهمه ونجيب عليه في أحسن حال : « إذا لم يكن لديك ما يكفيك من أكل أعطيناك من زادنا ! » ولنزن جيّداً هذا الجواب ! أعرف جيّداً : أن ليس من طبعنا ، نحن الكلاب ، المشاركة في زادنا . الحياة صعبة ، والأرض بخيلة ، والعلم غني بالمعرفة ، لكن كم هو فقير بالنتائج ! من عنده ما يأكله ، يحتفظ به . وهذا ليس أنانية ، على العكس ! هذا قانون الكلاب ، هذا قرار أجمع عليه الشعب ، ونتيجة نصر على الأنانية ، لأن المالكين هم دائماً أقليّة . ولهذا كان الجواب : « إن لم يكن لديك زاد يكفيك ، أعطيناك مما عندنا ! » دائماً صيغة كلامية ، هزءاً طريفاً . لم أنسه . لكنه أخذ يبدو لي ذا معنى أكبر ، حتى أني عندما طفت في العالم سائلاً ، تخلّى الآخرون عن كل سخر تجاهي ، ولو أنهم لم يعطوني شيئاً طبعاً ! وبالتالي أين أجده سريعاً ؟ لكن إذا كان هنالك صدفة ما يؤكل ، فإن نهم الجوع ينسيك طبعاً كل اعتبار آخر . غير أن العرض يظلّ جدّياً . كنت أتلقّى طبعاً من وقت لآخر بعض الكسر . . . لو أنني على ما يكفي من حذقٍ للأستيلاء عليها ! من أين أتى هذا الموقف الخاص تجاهي ؟ لم هذه التدابير؟ لم هذا التفضيل؟ لأني كنت كلباً ضعيفاً وهزيلاً ، سيء التغذية ، قليل الأهتمام بغذائه ؟ لكنما تجري في العالم كلاب كثيرة سيئة التغذية ، ينتزع الأخرون ، من أشداقها ، إذا استطاعوا ، أبأس الغذاء . عن شره ، لا ! وإنما عن مبدأ في أغلب الأحيان . لا ما كانوا يؤثرونني ؛ ولقد وضح لديّ الأنطباع لدرجة لا أستطيع معها ذكر أدلة تؤيد انطباعي . أكانت إذن أسئلتي هي التي تسلّيهم ، وتبدو بخاصة ملائمة ؟ لا لم تكن تسلّي أحداً ، وكانوا يجدونها بليدة ! ومع ذلك لم يكن هنالك ما يثير الانتباه إليّ غير أسئلتي . يبدو لي أنهم كانوا يفضلون تلك الفظاعة : أن يغلقوا فمي بملئه ـ وما كانوا يفعلون ذلك ، بل كانوا يريدون أن يفعلوه ـ بدلاً من احتمال أسئلتي . لكن لم لم يطردوني بدلاً من منعي من إلقاء أسئلتي ؟ لا ، ما هذا الذي كانوا يريدون ؛ لم تكن لديهم ، أكيداً ! أدنى رغبة بالاستماع إلى أسئلتي ؛ لكنهم كانوا ، من أجل هذه الأسئلة نفسها ، يتردّدون عن طردي . وأيّاً كان السخر مني ، ومعاملتي على أني بهيمة صغيرة حمقاء ، ودفعي من واحد لآخر ، فقد كانت تلك إجمالاً ، نعم ، فترة أعظم مجدي . ولم يحدث أبداً فيما بعد شبيهاً لذلك ؛ فقد فسح لي المجال في كل مكان ، لم يمنع عني شيء ؛ وكانوا بحجّة تعنيفي ، يمتدحونني في الحقيقة . وكل ذلك من أجل اسئلتي ، وعدم اصطباري

وفضولي ! أكانوا يريدون بذلك تنويمي - ودون عنف ، برقّة تقريباً - أن يحوّلوني عن طريق خطأ ، طريق لم يثبت مع ذلك خطؤه تماماً فيسمحوا لأنفسهم باللجوء إلى العنف ؟ كان يدفعهم عن الوصول إلى هذا نوع من الخوف ، أو الأحترام .
ولم يكن عندي عن كل ذلك غير الحدس : وأعرفه اليوم بالضبط ، بصورة اضبط من أولئك الذين يتصرّفون على نفس الشاكلة : لقد أرادوا يقيناً أن يحوّلوني عن طريقي . ولم ينجحوا ، على العكس ! لقد انشحذ انتباهي .
وعندي الآن اليقين بأني أنا الذي اردت أن أحوّل الآخرين وأني نجحت إلى حدّ ما . ولم أصل ، إلا بعون المجتمع الكلبي ، إلى فهم المعنى الحقيقي لمعنى اسئلتي الخاصة . عندما كنت أسأل مثلاً : « من أين تأخذ الأرض غذاءها ؟ ؟ » أكنتم تصدقون ، ما كانت تعنيني الأرض عندئذ ؟ وبما كان يمكن أن تمسّني هموم الأرض ؟ بلا شيء يقيناً ! بعيداً عني كان مثل هذا القلق : ولقد أدركت ذلك سريعاً ! كانت تعنيني الكلاب وحدها ، الكلاب دون سواها ! وماذا يوجد خارج الكلاب ؟ ومن ندعو سواها في فراغ هذا العالم العظيم ؟ إن الكلاب هي كل المعرفة ، حصيلة كل الأسئلة ، وكل الأجوبة . لو كان مستطاعاً فحسب جعل هذه المعرفة ناجعة ، لو أن إنارتها ممكنة بوضح الضياء فحسب ، لو أنها لا تعرف فقط اكثر بما لا يقاس ، مما تبوح به ، أو يصرّح به بعضها لبعض ! إن أكثر الكلاب ثرثرة هو اشدّ كتماناً مما هي عليه خزانة الطعام عادة ! إنك تطوف حول قريبك ، ويسيل لعابك من رغبة ، وتسوط نفسك بذيلك ، وتسأل ، ترجو وتعوي فتحصل . . . تحصل على ما كنت تحصل عليه تماماً ، من دون أيّ جهد : إنتباه حادب ، دعابات صداقة ، شخير ماجد ، عناقات رقيقة ؛ وتختلط عواءاتك بعواءاتي ؛ ولا ينزع كل هذا إلّا إلى : أن تبتهج ، أن تنسى نفسك ، أن تهتدي إلى نفسك ! لكن ما كنت تريد الحصول عليه قبل كل شيء ، أي : الأعتراف بالمعرفة ، هو مرفوض إلى الأبد ! ولا جواب على هذا الرجاء الصامت أو المعلن ، في أحسن حال ، وإذا وصلت إلى حدود الأغراء ، غير هيئات بليدة ، ونظرات جانبية ، وعيون مضطربة ، غائمة . وهذا ليس أبداً سوى ، ما كان لي في طفولتي ، لمّا استجوبت الكلاب الموسيقية ، فصمتت هذه .

ومن الممكن أن يقال لي : « أنت تشكو من الكلاب ، إخوتك ، من صمتها على المسائل الأساسية ؛ وأنها تعرف ، على ما زعمت ، أكثر مما تبوح به ، أكثر مما تقبله في الحياة ؛ وأن هذا الصمت الذي تحافظ عليه وتسكت،

طبعاً ، عن سببه وسرّه يسمّم حياتك ويجعلها غير محتملة لديك ؛ وكان عليك أن تغيّرها ، أو تدعها ولا شكّ ! لكنك أنت نفسكَ كلب ، وعندك أيضاً معرفة الكلاب ! هيّا ! تكلّم إذن ، أجب أيضاً ! من يقاومك إذا تكلمت ؟ إن المجتمع الكلبي ليضّم في جوقة صوته إلى صوتك ، وكأنه لا ينتظر سوى ذلك ! وحينئذ يكون لك فيض من الحقيقة والوضوح والاعتراف ! وينفتح سقف هذه الحياة الدنيئة ، التي تهجو إلى هذا الحدّ ، ونرتفع جميعاً ، كلباً إثر كلب ، إلى الحرّية السامية ! فإذا لم نصل إليها ، تفاقم كلّ شيء ، واتضح أن الحقيقة كلها أكثر رزءاً من نصف الحقيقة ، وتأكد أن الصامتين هم على صواب بصفتهم مدعّمون للحياة حرّاس لها ، ويتبّدل الأمل الضئيل الذي نحن عليه الآن إلى يأس كئيب ، وعليه ! ليكن ما يكون ، فالكلمة تستأهل الجهد ، ما دمت لا تريد أن تعيش كما تستطيع أن تعيش ! هيّا إذن ، ولماذا نعيب على الآخرين صمتهم ، وانت نفسك تحافظ عليه ؟ جواب سهل : لأني كلب ! شديد الانغلاق كالآخرين حول النقطة الأساسية ، يقاوم أسئلته نفسها ، وقد قسا من كثرة القلق ! فهل أسأل إذن المجتمع الكلبي ، إجمالاً ، منذ كهولتي على الأقل ، من أجل الحصول على جواب فحسب ؟ أعندي إذن مثل هذه الآمال المجنونة ؟ أأرى إذن أسس حياتنا ، وأشك بعمقها ، أأرى العمال في شغلهم ، وقد شدّوا إلى مهمتهم القائمة فلا أنتظر أبداً ، كأثر لأسئلتي ، غير أن أرى كل الأشياء وقد انتهت واهملت وانقلبت ؟ لا لقد بتّ لا أعتمد كثيرا على ذلك ! أنا أفهم ، كلابي ! أنا من دم دمهم ، من دمهم المسكين الخالد الشباب ، من دمهم الذي لا يروي أبداً ! لكننا ليس الدم هو وحده مشترك بيننا . عندنا أيضاً المعرفة ، وليس المعرفة فحسب وإنما مفتاح المعرفة أيضاً ! وأنا لا امتلكه من دون الآخرين ، بل لا أستطيع امتلاكه دون عونهم . . . إننا لا نستطيع النصر على عظمة من حديد امتلأت بأشهى المخّ ، إلّا إذا عضتهامعاً كل أسنان كل الكلاب ! وتلك ليست طبعاً سوى صورة ، مبالغ فيها ؛ لو أن كل الأسنان استعدّت ؛ لما مسّت الحاجة للعضّ : كان ينفتح العظم من نفسه ، ويغدو المخ في متناول أضعف صغار الكلاب ! إن هدفي ، وأسئلتي وبحوثي ، أقول للحفاظ على الصورة ، تنزع إذن أكيدا إلى شيء مخيف . إني أريد أن أحصل على هذا الاتحاد بين الكلاب بالقوّة ؛ أريد أن ينفجر العظم من نفسه تحت دفع قرارهم ؛ ثم أعيدهم إلى الوجود الذي يحبّون وعندها أمصّ المخّ وحيداً ، وحيداً على مدّ النظر : وتقولون ، هذا غريب ؛ وكأني ما دمت لا يكفيني ، مخّ عظمة واحدة

أريد أن أتغذى من مخ كل الكلاب نفسه . لكن ليست هذه سوى صورة . المخّ الذي أتكلم عنه لا يؤكل ؛ لا ، فما هو إلا سمّ !

إن أسئلتي لا تنهك سواي ، والصمت الذي يجيبني وحده من كل الجهات هو وحده الذي يشجعّني ! وحتى متى تطيق أن يسكت المجتمع الكلبيّ - كما تكشفه لك أكثر فأكثر بحوثك - ويحافظ أبدياً على الصمت ؟ حتى متى تطيقه ؟ تلك هي ، فيما وراء كل أسئلة التفصيل ، معضلة حياتي : لم تطرح إلا عليّ ، ولم تعذّب إلّاي ! والجواب على هذه ، ويا للأسف ! أسهل عندي منه على أسئلة التفصيل : من المحتمل أن أقاوم حتى نهاية أيامي الطبيعية ، وهدوء النفس يقاوم أكثر فأكثر قلق المعضلات . سأموت في صمت ، يحيق بي الصمت ، في سلام تقريباً ، وانتظر الموت في هدوء . ولقد وهبنا ، فيما يشبه الخبث ، نحن الكلاب قلباً مدهش الصلابة ، ورئات لا تبلى . ونحن نقاوم كل الأسئلة ، حتى ما نلقيه نحن : نحن ، قلاع الصمت !

كل هذه الأيام الأخيرة أفكّر، ثم أفكرّ اكثر فأكثر بحياتي . أبحث فيها عن الخطأ المميت : نبع كل شر ، ذاك الذي ارتكبته ولا شكّ ، دون الوصول إلى اكتشافه . ومع ذلك فقد وجب أن أرتكبه ، وإلاّ ، وبما أني قضيت حياة شغلٍ طويلة لم تمنحني ما انتظرت منها ، ثبت البرهان أنِي كنت ألاحق المستحيل ، وما نجم عنه من أكاب يأس . تأمل أثر حياتك ! وأولّها البحوث عن السؤال : « أين تأخذ الأرض غذاءنا ؟ » منذ أن كنت كلباً شابّاً ، نهماً - وسعيداً ! - في عمقه للحياة ، رفضت كل المسرّات ، وابتعدت عن الملّذات ، فدفنت نفسي في العمل ، ورأسي بين قائمتيّ خشية إغراء . ولم يكن عمل تبحّر ، لا بتبحّره ، بل ولا بطريقته ، أو بهدفه . كانت تلك أخطاء ، غير أنها يقيناً لم تكن مميتة ! تعلمت قليلاً ، لأني تركت قبل الأوان أمي ، وتعودت سريعاً على الإستقلال، وعشت وجوداً حرّاً ، وكل استقلال مبكرّ يضرّ بالدراسة المنهجيّة . لكني رأيت كثيراً وسمعت كثيراً ؛ وتكلمت مع كل أنواع الكلاب ، وأعتقد أني لم أسيء الفهم كثيراً ، ولم أسيء تصنيف ملاحظاتي العديدة ، وهذا ما حلّ عندي ، بصورة ما ، محل التبحرّ ؛ والأستقلال ، ولو أنه غير موات للدراسة . فهو لا يخلو من بعض الميزات في البحوث الشخصية . ولقد أفادني هذا الأستقلال بالقدر الذي استحال علي منه المنهج العلمي الحقيقي ، أي استخدام أعمال السلف ، والأتصال مع علماء العصر . وحين اقتصرت على

مصادري وحدها ، بدأت بالمبادىء ، تدعمني القناعة - التي تهيج الفتوّة وتوهن الكهولة - بأن النقطة الأخيرة ، التي توضع صدفة على استنتاجاتي ، ستكون حقًا النهائية . هل كنت حقًا وحيداً إلى هذا الحد في بحوثي ، الآن ، ومنذ الأبد ؟ نعم ولا . فمن المستحيل أن لم يكن ولم يصر منذ بعيد أو قريب أو في أيامنا ، بعض الكلاب في مثل وضعي . أأكون وحيدا في مثل هذه النهائية ؟ لكنني لا تفصلني مع ذلك أية خطوة عن العقلية الكلبية . وكل كلب يعاني مثلي الرغبة في السؤال . ولو اختلف الأمر أما كانت تثير أسئلتي ذلك الإنفعال الذي قدّر لي أحياناً أن ألمسه في افتتان ، افتتان مبالغ فيه على كل حال ، أما كان بوسعي ، في الحالة المناقضة أن أحصل على اكثر من ذلك ؟ أما أني أعاني الحاجة إلى الصمت ، فإني لست بحاجة للأسف ! إلى إثباتات خاصة ! إن شيئاً مبدئياً إذن ، إن شيئاً لا يميّزني عن الكلاب الأخرى ؛ ولهذا ، وبالرغم من كل تضارب أفكارنا ، بله الكره بيننا ، فإنهم يقبلونني جميعاً واحداً منهم . وأنا أفعل نفس الشيء تجاه كل كلب آخر . والخلاف هو في مقادير المقومات الأساسية وحدها ، وهو اختلاف هام جدّاً بالنسبة للأشخاص ؛ لكنه دون مغزى بالنسبة للعرق . ألم تتكرر كمية المقادير عندي أبداً في الأيام الخالية أو الحاليّة ؟ وإذا وصفت مقاديري بالبائسة ، ألم توجد أبداً أبأس منها ؟ لوصحّ هذا فإنه مخالف لكل تجربة ! إننا نعمل نحن الكلاب ، في أكثر الحرف إذهالاً ، حرف لا تصدق ، لو لم تكن لدينا عنها معلومات جديرة بالثقة : وخير مثل عليها الكلاب الطائرة ، التي أفضل هنا أن أحلم بها . أول مرّة سمعت بها انفجرت ضاحكاً دون أن أنخدع بها . كيف ؟ ربما وجد كلب من نوع صغير ، يكاد، حتى في عمر متقدم ، أن يكون أكبر قليلاً من رأسي ، وهذا الحيوان الهزيل طبيعياً المخلوق حسب الظاهر خلقاً صناعياً وغير مكتمل - صفّف شعره بدقة ، وهو غير قادر على أقلّ قفزة - وهو يقضي حياته ، كما روي ، في التنقّل عالياً في الجوّ ، دون جهد ، وفي راحة خالدة ! وفكرت أن ذاك استغلالا لسذاجة كلب صغير ! لكني سمعت بعد قليل كلاماً عن كلب آخر طائر . هل اتفقوا على الهزء مني ؟ لكني قابلت عندها الكلاب الموسيقية ، ومنذئذ يبدو لي كل شيء ممكناً ، فلا تحدّد إدراكي أية فكرة سابقة ؛ واهتممت بأكثر الشائعات عبثاً ، ودرستها قدر استطاعتي ، وخلت أن أكثر الأمور عبثاً في هذه الحياة العبث هو أكثر احتمالاً من المعقول وبخاصة أدنى ثمراً لبحوثي . وكذلك شأن الكلاب الطائرة ! تعلمت أشياء كثيرة عن موضوعها ؛ وإذا لم أنجح برؤية أحدها ، فأنا مقتنع على الأقل

بوجودها وهي تأخذ مكاناً هامّاً في نظرتي للعالم . وأنا كما كنت دائماً ليس هو الفن الذي يجعلني هنا حالماً . إنه حقّا غريب (ومن ينكر ذلك ؟) أن تكون هذه الكلاب قادرة على التحليق في الجوّ ؛ ودهشتي في هذا المقام ، هي دهشة جنس الكلاب ، لكن ما هو أغرب برأيي ، العبث ، عبث الحيوان الأخرس على هذه الشاكلة ! إن أحداً لا يحاول ، بعامّة ، أي تفسير ؛ إنها تحلّق في الجو ، ويتوقف الأمر هنا ؛ وتستمر الحياة في مسيرتها ؛ وهنا وهناك يجري الكلام في الفنّ والفنّانين . . . وهذا كل شيء ! لكن لماذا ، أيها المجتمع الكلبي ، لماذا بحق السماء تطفو تلك الكلاب ؟ ما معنى هذه الحرفة إذن ؟ لماذا لا نستطيع الحصول منها على كلمة تفسير؟ لماذا تحلق عالياً ، وتدع للضمور قوائمها ، وغرور جنسنا ؟ لماذا انفصلت عن مغذيتنا الأرض ؟ لماذا تحصد دون أن تبذر ، بل إنها، كما قيل تتغذى جيّداً بصورة خاصة على حساب المجتمع الكلبي ؟ بوسعي أن أتباهى لأني أثرت ، على الأقل ، بأسئلتي تلك المواضيع . ونحاول التفسير ، نبدأ بالتحضير ، بالتحضير الغبيّ لنوع من التفسير ، نبدأ . . . والذي لا شكّ فيه أننا لا نذهب إلى أبعد من هذا البدء . لكنه مع ذلك بعض الشيء . هل يجب أن أقول أننا لا نصل أبداً للحقيقة ؟ لا نصل إليها أبداً ، لكننا نستشف هكذا اختلاط الكذب الغامض . كل مظاهر العبث في حياتنا ، وبخاصة أكثرها عبثاً ، يمكن تفسيرها في الحقيقة . . . ليس تماماً طبعاً ؛ وهنا العقدة الشيطانية ، لكنّها التي تكفي غالباً للسماح لنا بأن نتّقي الأسئلة المزعجة ! ولنعد إلى مثل الكلاب الطائرة . إنها خالية من أية عجرفة ، كما يمكن أن يظن ، للوهلة الأولى ، فهي بحاجة ماسّة إلى ذي القربى ! ونفهم ذلك عندما نضع أنفسنا في مكانها . وعليها في الواقع ، وليس علناً ، فلو فعلت لنقضت نذر الصمت ، أن تبحث عن الصفح عن حياتها بطريقة ما ، أو على الأقل أن تحوّل عنها انتباهنا فننساها ؛ ولهذا تهدف ، كما قيل لي ، ثرثرتها المقتية . وما دامت قد أقلعت تماماً عن كل جهد جسدي ، فعليها أن تحيط دائماً علماً بالتأملات التي يمكن أن تنصرف إليها ، أو الملاحظات التي تصل إليها من مرصدها الهوائي : وبالرغم من أنها لا تتميز أبداً بقوّة فكر خاصّة ، وهذا غني عن القول ، نظراً لخزي حياتها - بالرغم من أن فلسفتها هي أتفه من ملاحظاتها ، ومن أن العلم الذي لا ينحدر إلى مثل هذه الوسائل البائسة، ليست له تقريباً من شأن فيها - بالرغم من كل هذا ، نجيب دائماً عن السؤال عن معنى وجودها ، أنها تساهم مساهمة عظيمة في تقدّم العلم . « حسنا ! » تجيبون ، « لكن مساهمتها لا قيمة لها ،

وهي تماماً دون طائل ! » وعلى هذا لا تجاب إلاّ بهزّ الأكتاف ، ثم صرف نظر أو غضب أو ضحك . فإذا سألت ثانية ، بعد لحظة ، أنبئت ثانية بأنها تساهم في تقدّم العلم ، وأخيراً ، إذا جددت بعد بعض الوقت السؤال ، أجبت ، إلا إذا كنت سيد نفسك جدّاً . . . ، بنفس الجواب ! وربما كان أفضل ألا تعاند أكثر وأن تقبل لا أن (وهذا مستحيل) الكلاب الطائرة لها مبّرر وجود، بل ـ ما دامت واقعة ـ يجب قبولها . والطلب أكثر من ذلك هو إلحاح مع ذلك يطلب إليك ! يطلب إليك أيضاً أن تقبّل بالكلاب الطائرة الجديدة التي تنبثق باستمرار ، آتية لا نعلم من أين . فهل تنتشر بالأنجاب ؟ لكن ألديها القوّة ؟ إنها ليست سوى فرو جميل ؛ فيكف تتناسل ؟ هل يطرأ ما لا يصدق ؛ وفي أية لحظة يحدث ؟ إنها ترى دائما ، هناك عالياً في الجوّ وهي تكتفي بذاتها . ولو أنها تنازلت صدفة ، فركضت ، لما فعلت ذلك إلاّ في لحظة قصيرة . بعض خطى مصطنعة ، ثم ها هم ثانية في وحدة قاسية ، وقد غرقوا في أفكار مزعومة ، لا يستطيعون (كما يؤكدون على الأقل) أن ينتزعوا أنفسهم منها ، حتى ولو بذلوا أكبر الجهود . ولئن لم ينجبوا ، ألا يؤدّي بنا التفكير إلى أن كلاباً ، رفضت بحرية هذه الحياة المبتذلة ، كي تصبح كلاباً طائرة ، واستطاعت أن تختار ، حبّا بالرفاه وبعض الترف ، تلك الحياة الكئيبة في الأعالي ، على أرائك ؟ أمر عجب ، لأن الإنجاب والتطويع الأختياري لا يمكن تصوّرهما . ومع ذلك يثبت الواقع أن هنالك دائماً كلاب طائرة جديدة . ويجب أن نستخلص ، أنه رغم العوائق التي يبدو عليها أنها لا ترقى بالنسبة لخيالنا ، فإن أي عرق من الكلاب مهما كان غريباً ، لا ينطفىء بسهولة ، منذ أن يوجد ـ فهنالك على الأقل ، في كل عرق شيء ما يقاوم بنجاح .

وما دام الأمر كذلك في عرق شاذ غير معقول ، ظاهره غريب إطلاقاً ، وغير أهل للحياة كالكلاب الطائرة ، ألا يمكن أن يكون شأن نوعي أنا نفس الشيء؟ مع ذلك فإن مظهري الخارجي ليس فيه أي شيء غريب، فأنا انتسب إلى الطبقة الوسطى العادية، المنتشرة على الأقل ، هنا في المنطقة ، ولا يميّزني شيء خاص ، أو بارز أو محتقر ؛ ولقد كنت في شبابي ، وجزء من كهولتي ، حين لم اكن أهمل نفسي بل أقوم ببعض التمارين ، كلباً جميلاً جدّاً ؛ وكنت أثير الأعجاب، إذا نظر إليّ بخاصة من أمام، بقوائمي الهيفاء، وهيئة رأسي، أما فروي الرمادي المائل إلى الأصهب الفاتح ، الذي لا يتجعد إلا عند رأس

الشعر ، فقد كان أيضاً محط تقدير شديد . وليس في هذا كله من غريب ، غير طبعي ؛ لكنه هو أيضاً يفسّر (ولا ننس ذلك أبداً !) بطبع الكلاب العام . وإذا كان الكلب الطائر نفسه لا يبقى وحيد عرقه ، إذا كنا نجد دائماً هنا وهنا في العالم الواسع ، وإذا كان يولد منه دائماً من العدم ، استطعت أنا ، أيضاً ، أن أعيش في يقين أني لست رجيماً . والحق أن قدر « أشباهي » (هل وجب أن أسميهم بهذا الإسم ؟) يجب أن يكون فريداً؛ ولن يعنيني في أي شيء وجودهم ، إلا إذا كان تقريباً استحالة التعرف عليهم المطلقة ، في المقام الذي أنا فيه . إننا نحن الذين يخنقنا الصمت - نحن ، الظماء حقيقة إلى الهواء ، - فلا نحلم إلاّ في كسره . الآخرون يبدون سعداء في الصمت ، لكن هذا ليس سوى مظهر . مثل الكلاب الموسيقية التي كان يبدو عليها أنها تقدم حفلتها الموسيقية في هدوء ، بينما كانت في الحقيقة في أوج الهياج ! لكن هذا المظهر جبّار : لو شئنا أن نفضحه ، لسخر من كل جهودنا ! فكيف يتدبر أمرهم أشباهي ؟ ماذا يحاولون كي يعيشوا مع ذلك ؟ إنهم يستطيعون اللجوء إلى عدّة أساليب . وبما أني ، في أيّام شبابي جربت أسلوب الأسئلة ، فقد استطيع الأكتفاء بتقليد الذي يسألون كثيراً . أيكون هؤلاء إذن أشباهي ؟ وهذا ما فعلت بعض الوقت ، عبر جهود عظيمة على ذاتي ، عبر جهود عظيمة ، لأني يهمّني بخاصة الذين يجب أن يجيبوا ؛ أما الذين ، على عكسهم ، يلقون علي كيفما اتفق أسئلة لا أستطيع في غالب الأحيان جواباً عليها ، فإني أمقتهم ! ثم من لا يحب أن يسأل في شبابه ؟ كيف نميّز في هذا الحشد ، ما هو حقاً سؤال . إن أي سؤال يشبه الآخر ؛ والمهمّ هو النيّة وحدها ، لكنّها تبقى غالباً خفيّة ، حتى على من يسأل نفسه . والسؤال هو على كل حال من خصائص المجتمع الكلبي ؛ كلهم يسألون اعتباطاً ، كأنهم يريدون أن يمحوا حتى أثر الأسئلة الحقيقية ! لا ، إنني لا أجد أبداً بين السائلين من الجيل الشابّ ، أشباهي ، ولا بين الشيوخ الذين يسكتون ، والذين أنا منهم الآن . لكن إلى ماذا تهدف هذه الأسئلة ؟ لقد أخفقت بالضبط لطول ما سألت . إن رفاقي هم أحكم مني ولا شكّ يحركون ، كي يحتملوا هذه الحياة وسائل لا تستطيع (أعرف عنها بعض الشيء !) أن تخدم إلا كعلاج مرتجل ، تهدّئهم ، تنوّمهم ، تحوّلهم في جنسهم ، لكنها ، تدعهم بعد ذلك غالب الوقت ، دون قدرة ، كوسائلي : وأنا رغم قلقي ، لا أرى من نتيجة . وأخاف ، للأسف ! أن أتعرف على أشباهي بأية سمة غير سمة النجاح ! لكن أين هم أشباهي ؟ آه ! هي ذي ، هي ذي الشكوى الخالدة ! أين هم ؟ في كل مكان وفي لا مكان . ربما

كان جاري على بعد ثلاث قفزات من بيتي ؟ ويسأل أحدنا الآخر غالباً ، وهو يجيء كي يراني ، لكني لا أذهب أبداً إلى عنده . هل هو شبيهي ؟ من يدري ؟ والحق أنه لا توجد أية دلالة ، ولو أن ذلك يبقى ممكناً . ممكن ولا شك ! لكن شيئاً ما ، مع ذلك ، أي شيء ليس مستبعداً مثله . أستطيع ، وأنا بعيد عنه ، أن أتسلّ باكتشافه ، بقوّة الخيال ، فأكثر من سمة فيه أليفة لدي ، لكننا إذا التقينا وجهاً لوجه ، بدت لي كل افكاري غليظة ! هو كلب عجوز ، أصغر مني (لا يتجاوز أبداً الوسط)، داكن ، قصير الشعر ، يدع رأسه يتدلّى في عناء ، مشيته زاحفة ، وهو فوق ذلك يعرج ، بعد مرض ، عرجاً خفيفاً ، من قائمتها الخلفيَّة اليسرى. وأنا لم أعاشر منذ أمد بعيد أحداً بهذه الحميمية - يسعدني أنيّ ما زلت قادراً على احتماله قليلاً . عندما يذهب، أصيح له بأحب الكلمات، لا عن مودّة يقيناً ! ولكن غضباً من نفسي ، لأني لما أراه من ظهره ، أجد طريقته في الأبتعاد من أبشع الطرق ، وقائمته الزاحفة ، وآخر جسده الذي يلامس الأرض ! يبدو لي أحياناً ، أني أدعوه في فكري برفيقي، كي أهزأ بنفسي . وأحاديثنا لا تكشف عن شيء مشترك بيننا . وهو ذكي ، ولا شك ، ومثقف نوعاً ما ، بالنسبة لوسطنا . وأستطيع أن أتعلّم منه كثيراً ، لكن هل ما أبحث عنه هو المعرفة والثقافة ؟ إن محادثتنا تندرج عادة حول المسائل المحلّية وأعجب ، أنا ، الذي شحذت الوحدة نفاذ بصيرته ، من كمية الفكر التي يحتاجها كلب متوسط ، حتى في الظروف العادية الملائمة وسطيّاً ، كي يجني معيشته ويسلم من أعظم أخطار الوجود العادي . والعلم يدلّ على قواعد ذلك ، لكنّ فهمها ، ولو من بعيد وجملة ، ليس سهلاً ولوأننا فهمناها ، ظهرت الصعوبة الحقيقية . وهي تطبيقها على الأوضاع المحلّية . هنا ، لا أحد يعنيك ! كل ساعة تخلق مهمّات جديدة ، وكل قطعة أرض جديدة لها مهمّاتها الخاصة . وليس بوسع أحد أن يتباهى أنه قطن في مكان ما للأبد وأنه يرى حياته تنصرم فيه أنسياباً، حتى ولا أنا الذي تتناقص حاجاتي يوماً بعد يوم . وماذا يجدي هذا الجهد العظيم ؟ في أن تدلج أعمق في الصمت دون أمل في الخروج منه أبداً .

غالباً ما نمجّد التقدّم العام للمجتمع الكلبيّ عبر العصور ، ولو أنه يبدو أننا نفكرّ بخاصة بتقدم العلم . والعلم يتقدّم يقيناً دون توقف ، بل يتقدّم في سرعة تغدو أكبر فأكبر ، لكن ما في هذا من مجد ؟ كأننا نريد أن نمجدّ أحداً لأنه شاخ وهو يتقدّم في السنّ ويقترب أسرع فأسرع من الموت . وما تلك غير ظاهرة

طبيعية ، بل مؤلمة ، لا أجد فيها أي فخار . لا أرى فيها غير انحلال ، لكني لا أريد أن أقول أن الأجيال السالفة كانت أفضل . لم تكن إلا أكثر شبابا ، تلك ميزتها ! لم تكن ذاكرتها مثقلة كذاكرتنا ؛ كان دفعهم للكلام أسهل ، ولو أنّ أحداً لم ينجح في ذلك ، فقد كان أكثر إمكاناً . إن تلك الكمية الكبرى من الإمكانات ، هي بالضبط ، التي تؤثر فينا كثيراً ، حين نصغي إلى حكايات الماضي الساذجة . إننا نسمع هنا وهناك كلمة ملأى بالتلميح وكنا نقفز ، لولا أننا نحسّ وزن القرون يثقل علينا ! لا ، ومهما لمت عصري ، فإن الأجيال السالفة لم تكن أفضل من الجديدة ، بل كانت ، في معنى ما اكثر فساداً وأضعف أيضاً . والحق أن المعجزات لم تكن تجري في الشوارع في متناول أوّل قادم ، لكن الكلاب لم تكن أيضاً (لا أستطيع أن أعبّر بغير هذه الطريقة) على كلبنة هذه الأيام ؛ فقد كان بناء المجتمع الكلبي ما يزال مرناً ؛ وكان بوسع الكلمة الحقّ أن تتدخّل ، وأن تحدد هذا البناء وأن تحوله ، وتغيره حسب مشيئتها وتجعل منه ضدها . . . ، وكانت هذه الكلمة هنا ، أو على الأقل قريبة جدّاً ، وكانت على طرف لسان كل أحد ، كل كان قادراً على تجلّيها ـ لكن أين تاهت اليوم ؟ لو أننا نلاحقها حتّى أسفل الحلق لكان أمراً عبثاً ! إن جيلنا ضائع ولا شكّ وفاسد لكنه أقل جريمة مَن جيل ذلك الوقت . تردّد جيلي ، استطيع فهمه ؛ فهو لم يعد تردّدا ، إنه نسيان حلم حلمناه منذ آلاف الليالي ونسيناه آلاف المرّات : ومن يحقد علينا ، بالضبط ، من أجل هذا النسيان الألف ؟ لكنّ تردّد أجدادنا ، أستطيع أن أفهمه أيضاً ؛ لو كنا في مكانهم لتصرّفنا ولا شكّ مثلهم ؛ أقول تقريباً : سعداء نحن أننا لم يكن علينا احتمال الخطيئة ! سعداء نحن لأننا نستطيع في عالم جعله الآخرون مظلماً أن نطير للقاء الموت في صمت يكاد يكون بريئاً ! وعندما تاه أجدادنا كادوا لا يفكرون بغلط لا يصلح : أي إنهم ، كانوا ما يزالون يرون مفترق الطرق ؛ ولقد كانت العودة سهلة ، وما ترددوا في الرجوع إلا كي يتمتعوا قليلاً بحياتهم الكلبية . ولم تكن تلك ، بالواقع ، حياة كلبية صحيحة ، لكنها وقد ظهرت لهم ساحرة ، ما يكون الأمر بعد حين ؟ وهكذا ساروا يتيهون أكثر فأكثر . ما كانوا يعرفون أن الروح ـ كما نحدس بها عندما نتأمل التاريخ ـ تتبدّل قبل الحياة ، وأنهم عندما بدأوا يتمتعون بحياتهم الكلبية ، فقد كانت روحهم قبل ذلك روح كلب عجوز ، وأنهم لم يكونوا قريبين من نقطة انطلاقهم لما اعتقدوا أو جعلتهم عيونهم يعتقدون أنهم يتمتعون بكل اللذائذ الكلبية . . . ومن يستطيع اليوم أن يتكلم عن الشباب ؟ كانوا من حيث

التعريف كلاباً شابّة والبؤس أن طموحها الوحيد ويا للأسف ! أن تصبح كلاباً عجوزة . وما كانت إلا لتنجح كثيراً ، كما تشهد بذلك كل الأجيال التالية ، وبخاصة جيلنا نحن ، الأخير .

وأنا لا أتحدث ، طبعاً ، في كل هذا لجاري ؛ لكن الفكرة لا تتركني أبداً وأنا أجلس أمام هذا الكلب العجوز النموذجي ، أو عندما أدخل خطمي في شعره الذي له رائحة تشبه رائحة الفروة . فكان عبثاً الكلام معه في هذا الشأن ـ أو مع أي آخر ، على كل حال . وأعرف أكثر مما ينبغي الأتجاه الذي يأخذه الحديث . سوف تكون له هنا وهناك بعض الاعتراضات الصغيرة . وفي النهاية يوافق ـ الموافقة هي أحسن سلاح ! ـ وتدفن المسألة . فلماذا إذن نخرجها من القبر ؟ وربما كان هناك ، بالرغم من كل ذلك ، مع جاري ، تفاهماً أعمق ، يتجاوز بسيط الكلمات . ويجب علي أن أؤكد دون وني هذا ، حتى ولو لم يكن لديّ أيّ اثبات ، ولو أني قد أكون ضحية وهم بسيط . هذا الكلب ، هو الوحيد الذي أعاشر منذ زمن طويل ، وعليه اقتصرت .

أتكون أنت ، رغم كل شيء ، رفيقي على طريقتك ؟ وهل أنت خجل من أنك فشلت في كل مكان ؟ أنظر ، كان مصيري كمصيرك . وإذا كنت وحيداً ، فأنا أعوي من وحدتي . تعال ! عند اثنين ، الأمر أقل قسوة ! » هذا ما كنت غالباً أفكّر فيه ، وأنا أحدّق إليه . وهو يؤازر نظرتي ، لكني لا أستطيع أن أقرأ شيئاً أبداً في نظرته . تظلّ عيناه فارغتين وجامدتين ؛ ويعجب للصمت الذي يقطع الحديث . لكن هل هذه النظرة الفارغة هي بالضبط طريقته الخاصة بالسؤال ؟ ربما كنت أخيب ظنّه كما يخيب ظني ؟ في شبابي ، لو لم تبدلي بعض المسائل الأخرى أهمّ ، ولو أني لم أكن أكتفي عن سعة بنفسي ، أما كنت ربما أسأله بصوت عال ؟ ربما كنت حصلت على رضى ضعيف ؟ أقل من الآن بعد كل حساب ، لأنه يصمت ! لكن ألا يتمسكون جميعاً بنفس الصمت ؟ فلم لم أعتبرهم إذن جميعاً رفاقي ؟ بدلا عن مساعد منسيّ في مكان ما ، هو ونتائجه الهزيلة ، والذي لا أستطيع الوصول إليه عبر قتام الزمان وصخب أيّامنا ، ولربما كان لي في كل المجالات التي يتوخاها اهتمامي رفاق ، يكدحون جميعا على طريقتهم ، جميعاً عبثاً على طريقتهم ، جميعاً في صمت أو يثرثرون في هيئة لا تخرج عن القاعدة في هذه البحوث التي دون أمل ؟ لم تكن إذن هنالك حاجة لاعتزالي ؛ كان بوسعي تماماً أن أبقى بين الآخرين . وما كنت بحاجة لأن أنسلّ

خارجاً وأنا أدفع ، كطفل قليل التهذيب ، كبار الأشخاص الذين كانوا يريدون مثلي الخروج ، والذين يشدهني عندهم فقط ، ذلك الحس السليم الذي يقول لهم أن أحداً لا يستطيع الوصول إلى المخرج وأن كل تدافع هو جنون !

مثل هذه الأفكار تفضح بجلاء تأثير جاري . إنه يضلّلني ويدفع بي إلى الكآبة ، مع أنه هو مرح نوعاً مـا ، فأنا أسمعه على الأقل ، عندما يكون في بيته ، يصرخ ويغني ، حتى ليزعجني . ولربما أحسن صنعاً ، إذا كرست إلى بحوثي وحدها ، ما بقي لي من وقت قليل أعيشه ؟ في زيارته المقبلة سوف أختبىء ، سوف أتصنّع النوم ، وأواظب على ذلك إلى أن ينقطع عن زيارتي .

لقد بات النظام لا يسود بحوثي ، خارت قواي ، تعبت ؛ وآل اندفاعي السابق الرائع إلى خبب إنسان آليّ صغير . وإني لأذكر الزمن الذي بدأت فيه بفحص مسألة : « أين تأخذ الأرض غذاءها ؟ » كنت أعيش ، والحق ، يومئذ بين شعبي . كنت أستعجل ، حيث يكون الجمهور أكثف ما يمكن ؛ فقد كنت أريد أن أشهد الناس جميعاً على أعمالي ، شهادة هي أهم عندي من أعمالي نفسها ! وربما أني كنت أنتظر من بحوثي بعض النتيجة ذات المنفعة العامة ، فقد كان يجيئني ، طبعاً من كل مكان التشجيع المتحمّس الذي انقضى زمانه ، عند المعتزل الذي صرته . كنت من القوّة يومئذ ، بحيث أندفع في مشروع غريب ، يخالف كلّ مبادئي ؛ وشهود ذلك الزمان يحفظون عنه ولا بد ذكرى غير مألوفة . لقد أدركت أن العلم الذي يميل عامّة ، إلى تخصص غير محدود ، قد حقّق في نقطة تبسيطاً غريباً . وهو حسب تلك المعلومات قبل كل شيء ، أن الأرض هي التي تنتج غذاءنا ، وبعد أن تثبتت هذه الفرضية ، فإن العلم يدلنا بأية السبل نستطيع الحصول على مختلف الأطعمة بأسهل وأغزر ما يمكن . وإذا كان لا يمارى بأن الأرض تنتج غذاءنا ، فإن هذا ليس بالسهولة التي نتصورها عادة ولا يجعل القيام ببحوث تالية وجديدة غير ذي جدوى . ولنلاحظ فقط أبسط الظواهر التي تتكرر يومياً . إننا إذا أقلعنا عن كل فعالية ، كما سيكون شأني بعد قليل ، ونمنا أرضاً ، بعد إعداد سطحي للتربة ، بانتظار الأحداث وجدنا فعلاً ، إذا افترضنا حدوث شيء ، الغذاء على التربة . لكن هذا بالضبط هو ما ليس القاعدة. من لم يحافظ إلاّ نوعاً ما على الحياد تجاه العلم ـ وهم قليلون والحق ، لأن هزاته تغدو أعنف فأعنف ـ يعترف بسهولة ، حتى ولو لم يعن بملاحظات خاصة ، أن القسم الأكبر من الغذاء الذي يوجد آنئذ على التربة يأتي من أعلى ذلك أننا ، تبعاً لمهارتنا

وبهمنا ، نلتقط الجزء الأكبر في الهواء ، قبل أن يلامس الأرض . وأنا لا أريد أن أعني شيئاً ضد العلم : إن الأرض تنتج ، فعلا ، هذا الغذاء بصورة طبيعية . أما إذا جذبت بعضاً منه من نفسها ، وبعضاً من فوق ، فإن الفرق ليس جسيماً ولا شك ؛ وبعد أن أثبت العلم أن إعداد التربة لا غنى عنه في الحالين ، فإن عليه أن يهمل هذا « التمييز »! ويقال في الواقع : « الغذاء في الحنك وعلى هذا ، فقد حلت كل المسائل هذه المرّة ! » لكنى يبدو لي أن العلم بصورة مقنّعة ، يتصدّى ، على الأقل جزئياً ، لهذه المسائل وهو يميّز بين نهجين أساسيين في الحصول على الغذاء ، يعني إعداد التربة بالذات وشغل الإتقان المتمّم : المعادلات السحريّة ، والرقص والتعاويذ . وأجد في ذلك تبريراً للعمليتين اللتين تميّزان في الحصول على الغذاء . وأنا أرى ، أن إعداد الأرض يرمي إلى الحصول على نوعين من الغذاء ، ويبقى دائماً لا غنى عنه ، فيما لا تعنى إلا قليلاً المعادلات السحرية والرقص والتعاويذ بالغذاء الذي من منشأ أرضي بحت، لكنها تخدم في جذب الغذاء من أعلى . ويؤيدني التقليد في هذا الرآي . وهنا يبدو على الشعب ، دون علم منه ، ودون مقاومة من العلم ، أنه ينهض بالأخيرة . فإذا كانت ، حسب آراء العلم ، لا تعني هذه العبادات غير التربة : كي تعطيها ، مثلاً ، القوّة لجذب الغذاء من أعلى ، فقد وجب عليها منطقيـاً ألا تتمّ إلا على التربة ؛ وإلى التربة وحدها يجب أن تتجه كل الدندنات ، وكل القفزات وكل الرقصات . والعلم ، حسب ما أعلم ، لا يطلب غير هذا ، لكن المدهش هو : أن الشعب بكل عبادته يتجه إلى السماء . وتلك ليست مخالفة للعلم . فهو لا يمنعها أبداً ويدع كل الحرية للمزارع ؛ وتعاليمه تتجه للأرض وحدها ، وهو يكتفي بأن يلتزم الفلاح بتوجيهاته ؛ لكني ، أرى ، أنه يجب عليه كي يكون منطيقيّاً ، أن يطلب شيئاً آخر أيضاً . وأنا الذي لست خبيراً عن قرب بالعلم ، لا أستطيع أن أفهم كيف يطيق العلماء أن يصرخ شعبنا ، وهو الأنفعالي ، للسماء بالمعادلات السحرية ، ويصيح على انغام أناشيدنا القديمة الشعبية ، وينفّذ رقصات الخلاص ، كما لو أنه يريد ، وقد نسي الأرض ، أن يطير إلى الأبد . إنطلقت أنا من هذه التناقضات ، واكتفيت بالأرض حصراً : وفي كل مرّة كان يقترب زمن الحصاد بفضل تعاليم العلم ، كنت أفلحها قليلاً وأنا أرقص ؛ وأفتل عنقي كي أكون ، فحسب ، أقرب ما يمكن منها . وكنت أحفر بعد ذلك وجراً كي أدفن فيه خطمي وكنت أغني وأخطب وأنا متأكد أن أحداً لا يسمعني سواه ، لا من حوالّي أو من فوقي .

كانت نتيجة بحوثي هزيلة . كان الغذاء في غالب الأحيان غائباً ، وكنت أذهب في صياح عظيم أحتفل باكتشافي ، عندها . . . كان يرجع الغذاء ! ويبدو أنهم كانوا يعرفون ، بعد مرور لحظة الحيرة الأولى ، ميّزة سلوكي الغريب ، وأنهم كانوا يرضون عن طيب خاطر بصراخي وقفزي . وكثيرا ما كان يأتي الغذاء أغزر من قبل . . . ثم ينقص على كل حال في المرة التالية ! وكنت ، في حماس لا مثيل له عند الكلاب الفتيان ، أضع جداول لكل تجاربي . وكنت أظن أني اكتشف ، هنا وهناك أثراً قمينا بأن يؤدّي بي إلى أبعد ، لكنه ما يلبث أن يضيع . ومما لا جدال فيه أن نقص ثقافتي العلمية كان يعاكس أيضا مشاريعي . أية ضمانة كانت عندي مثلاً ، بأن غياب الغذاء لم يأت نتيجة لتجربتي ، وانما من إعداد للتربة غير كاف علمياً ؟ وفي هذه الحالة تنهار كل استنتاجاتي . ولو أن بعض الشروط اكتنفت تجربتي لكانت مقنعة كل الأقناع : مثلاً كان بوسعي دون أي إعداد للأرض أن انزل الغذاء باحتفال أوجهه للسماء وحدها ، كما كان بوسعي أن أمنع مجيئه بتوجيه الأحتفال إلى الأرض وحدها . ولقد حاولت هذه التجارب أيضاً ، لكن من غير قناعة عميقة وفي شروط ناقصة ، لأن رأيي الذي لا يتزحزح هو أنه لا يمكن الأستغناء عن بعض الإعداد للأرض ؛ وحتى لو كان الكفرة ، الذين لا يفكرون كذلك ، على حق ، فإن أي شيء لا يمكن البرهان عليه لأن سقاية الأرض تنجم عن حاجة قصوى ، ويظلّ لا يمكن تحاشيه إلى حد معيّن ، وهنالك تجربة أخرى ، كانت أكثر إقناعاً وأحدثت بعض الضجة ، بالرغم من أنها شاذّة قليلاً . بناء على عادة التقاط الغذاء من الهواء ، قررت ألاّ أعترضه خلال سقوطه . وكنت ، لهذه الغاية أقوم بقفزة صغيرة للقياه عندما يصل ؛ لكن دائماً بشيء من الحذق كي لا أصل إليه ؛ فكان يسقط في غالب الأحيان على الأرض في عدم اهتمام كئيب ، فكنت أقذف نفسي عليه غاضباً ، غضب الجوع وغضب الخيبة أيضاً .

ولقد حدث ، مع ذلك ، نادراً جدّاً ، شيء مختلف ، شيء معجز حقّاً : كان الغذاء يلاحق الجائع - لا وقتا طويلاً ، وعلى مسافة قصيرة فحسب - ثم كان يسقط ويختفي ، أو كان نهمي ، في أحيان أكثر ، يضع حدّاً للتجربة قبل أوانها . . . فقد كنت ألتهم غرضها . وكنت مع ذلك سعيداً ؛ وكانت تسمع في جواري الهمسات ، كانوا يقلقون ، ويضطربون ، وكنت أجد أصدقائي ألين جانباً تجاه أسئلتي ؛ كنت أرى في العيون يلمع ما يشبه النداء للمساعدة ؛ حتى

حين لم يكن ذاك غير انعكاس نظرتي أنا ! لم أكن أرغب بأكثر من هذا ، فقد كنت به مسروراً . . . حتى اللحظة التي علمت فيهافيها بعد ، وعلم فيها معي الآخرون ، أن نفس التجربة ، وصفت منذ أمد طويل في حوليّات العلم ، ولقد كان نجاحها أفضل ! ولقد حدا ما تتطلبه من ضبط للنفس إلى منع تكرارها منذ أمد طويل ، وهو ما ليس له من مبّرر ، لأنها من وجهة النظر العلمية ، تغدو دون أهمية ، وهي ليست سوى دليل واقعة معروفة من قبل ، تقول بأن التربة لا تجتذب الغذاء على خط مستقيم فحسب ، بل مائل أيضاً ، بل حتىّ لولبي ! وهكذا وقعت في الفخّ ! لكنّي كنت أشدّ شباباً من أن يهن عزمي . كنت بعيداً عن هذا الأمر ، فهنالك مهماز أثر حياتي العظيم . ولم أكن أعتقد أن العلم يقلّل من شأن تجربتي ، غير أن الأعتقاد لا يغني هنا عني شيئاً ، والإثبات وحده هو الذي يهمّ ! ولقد هممت بأن أدلي به ، فأنير ، في قلب أحداث الساعة العلمية ، تلك التجربة الفريدة . أردت أن أثبت أني ، عندما أبتعد عن الغذاء ، فإن التربة ليست هي التي تجتذبه مائلاً ، وإنما أنا الذي كنت أجتذبه ورائي . وما كان بمكنتي أن أبتعد كثيراً بهذه التجربة : أن أرى الغذاء أمامي ، وأنا أقوم بتجربة علمية ، إن المرء لا يستطيع أن يقاوم طويلاً ! غير أني كنت أريد شيئاً آخر ؛ كنت أريد أن أصوم بصرامة ، حتى نهاية قواي ، وأن أجانب طيلة هذا الصيام أدنى غذاء ، أدنى إغراء . فإذا انسحبت وظللت مغمضاً عيني ، ليل نهار ، وقد منعت نفسي من التقاط أو تناول أضأل نتفة ، كما لو أني لا أجرؤ على أن أؤكد ذلك ـ آمل به على الأقلّ ـ فإن الغذاء ينزل عفويّاً على سقى التربة غير المعقول الذي لا يمكن اجتنابه . وعلى ترديد المعادلات السحرية الصامت ـ أسقطت الرقص خوفاً من أن أضعف ـ فإذا جاء الغذاء دون أن يهتمّ بالتربة ، من نفسه ، من أعلى ، وطرق على أسناني كي يفتح له . . . إذا حدث كل هذا ، فإن العلم ، الذي تدع مرونته مكاناً لاستثناءات التفاصيل ، لا يفلس يقيناً أبداً . لكن ما يقول الشعب الذي ليس على مثل هذه المرونة ؟ لأن هذه الحالة لن تكون من تلك الحالات الإستثنائية التي حفل بها التاريخ ، التي يرى فيها أحد ما ، مثلاً ، يرفض (عن مرض ، أو عن كآبة) أن يقوم بالاستعدادات المسبقة للحصول على الغذاء ، أو البحث عنه ، أو التقاطه . عندها يوحّد المجتمع الكلبّي صلواته ، كي يترك الغذاء سبيله المعتاد ويسقط رأساً في حنك المريض . أما أنا ، فقد كنت ، على العكس ، في أوج القوّة ، رائع الشهية ، حتى أني كنت لا أفكر أياماً بطولها إلاّ بإشباعها ! ولقد أخضعت نفسي إرادياً

للصيام ، صدقوني أو لا تصدّقوني ! كنت ، أنا نفسي ، في حالة إنزال الغذاء ، وأردت أن أفعله ، ولم أكن بأية حاجة لنجدة المجتمع الكلبّي ولقد رفضها بأكثر الصور قطعياً .

كنت أبحث إذن عن مكان ملائم في دغل منعزل لا أسمع فيه كلاماً عن الغذاء ولا مصّ العظام ، أو كسرها ؛ فأكلت للمرّة الأخيرة ، حتى البشم قبل أن أذهب فأستلقي . وكنت أودّ ، إن أمكن ، أن أقضي كل هذا الوقت مغمضاً عيني ؛ فيما يكون عندي ليلاً اسود ، ليلاً بلا هدنة ، ما لم يأت الغذاء ، حتى ولو دام ذلك أياماً وأسابيع ! لكني كان علي ألا أنام أبداً أبداً . تعقيد ضخم ، فقد وجب عليّ ليس توسل الغذاء بالنزول فحسب ، وإنما المحافظة بنفس الوقت على قدر من الصحو فلا أنام في اللحظة التي يصل فيها ! كما أني ، من جهة أخرى ، كنت أرحّب بالنوم ، لأني لو نمت لاستطعت الصيام مدّة أطول مما لو لم أنم .وعزمت إذن على أن أقسّم بعناية وقتي ، فأنام كثيراً ، لكن خلال مدّة جدّ قصيرة من الزمن فحسب . وتخيلت حيلة للنوم وقد استند رأسي إلى غصن ضعيف ، يوقظني حالاً ، إذاانحنى سريعاً . وهكذا كنت وأنا مضطجع ، نمت أم لم أنم ، أحلم وأدندن في صمت . ومضت الأيام الأولى دون أن تحمل أية نتيجة ؛ ولربما لم يلاحظ أحد بعد من أين يأتي الغذاء ؛ حتى لقد ثرت هنا ضد مجرى الأشياء الطبيعي . ولقد ظَل كل شيء صامتاً . وكنت أضطرب خوفاً من أن تتنبّه من غيابي الكلاب ، فتكتشفني وتحاول شيئاً ضدّي. كان هنالك موضوع آخر للخوف هو أن تعطي التربة ، ولو كانت علمياً عقيمة ، بعذريّ بسيط ، ما يسمى بالغذاء الطارىء الذي تغريني رائحته . غير أن شيئاً من هذا لم يقع واستطعت الإستمرار بصيامي . وبعد أن زالت هذه الخشيات ، كنت على هدوء لم أعان مثله من قبل . وبالرغم من أني كنت أعمل جِداً على إلغاء العلم ، فقد كنت أحسّني امتلأت سعادة وكأني اقتحمني صفاء العالم الذي يضرب به المثل . وكنت أحصل في أحلامي على عفو العلم ، فقد كان يتّسع لبحوثي ؛ وكان الأمل المعزّي يغني في أذني بأني لم أكن ـ مهما استطاعت أن تبدو بحوثي مثمرة ، وبخاصة في هذه الحالة ! ـ ضائعاً بالنسبة للحياة الكلبية ؛ فقد كان العلم مواتياً لي؛ وقد شرع ، نفسه ، بتعليل نتائجي ، وفي هذا الوعد يتم كماله . ولسوف أستقبل بكل التكريم ، أنا الذي ، أحسست دائماً ! في أعماقي ، أني خارج على القانون ، نوعاً من متوحّش أنقضّ على أسوار المدينة ـ سوف تغمرني

حرارة كل الكلاب المرجوّة ، وقد اجتمعت حولي ، وحملتني كمنتصر ، وأنا أتأرجح على أكتاف شعبي . . . آثار أوّل الجوع الغريبة ! ولقد تبدّى لي أثر على عظمة ، ترفقت معها بحالي وأشفقت على نفسي ، فأخذت أبكي . في قعر العوسجة الهادئة ، دموع غبيّة على كل حال ، لأني ما دمت انتظر الجزاء الذي استحق ، لماذا البكاء ؟ من السعادة ولا شك ! لأني بكيت دائماً في لحظات الغبطة ، اللحظات النادرة ، ويا للأسف ! لكن السعادة اضمحلّت دون تأخير . وتبعثرت الصور الجميلة بالقدر الذي تفاقم فيه الجوع ؛ واستأذنت سريعاً بالانصراف عن هذه النزوات وذاك الانفعال ، فوجدتني وحيداً ، إطلاقاً وحيداً والجوع الذي يحرق أمعائي . « إنه الجوع » اجتررت هذا القول حتى الإرهاق ، وكأني أقنع نفسي بأني كنت والجوع دائماً اثنين وأنه كان بوسعي الخلاص منه كأنه طارىء أنيق ؛ لكن الواقع أني كنت في ألم شديد ، وإياه واحداً ؛ ولئن كنت أقول : « إنه الجوع ! » فإنما كان الجوع ، هو الذي يتكلم ، حقاً ، ويهزأ بي ، لخطة سيئة ، سيئة جداً! إني لأرتعش لمجرّد ذكرها ، وليس من فكرة العذاب ، بل للإحساس بفشلي آنئذ ، ما دمت بحاجة ، للوصول إلى أي شيء ، إلى المرور بنفس المعاناة . وما زلت في الواقع ، حتى اليوم ، أرى في الجوع أسمى وأنجع وسيلة في بحوثي . يجب أن أمرّ بالصوم ؛ إن الهدف الأسمى ، إذا كان مأمولاً ، فإنما يكون الوصول إليه بجهد أسمى . وهذا الجهد الأسمى هو عندنا الصيام الإرادي ! وإذا كنت أجتر هكذا ذكريات تلك الحقبة (وليست لديّ لذة اكبر منها) ، فإنما كي أدرك أفضل تهديد الأزمنة القادمة . والظاهر ، أنه يجب علينا أن ندع حياة كاملة تمرّ قبل أن نتعافى من مثل هذه المحاولة : كل سنوات كهولتي تفصلني عن زمان ذاك الصيام دون أن استطيع شفاءً منه حتى الآن . ولربما كنت على عزم أشدّ من ذي قبل ، حين أبدأ قريباً من جديد الصيام ، ربما وجدتني أقوى تجربة أيضاً ، وأوضح رؤيا عن ضرورته ؟ لكن قواي تدنّت منذئذ ، ويكفيني مجرد تصوري العذابات التي كابدتها ، حتى أضعف .

ولن يفيدني في شيء نقص قابليتي ، فهو لا يعدو أن يقلّل من قيمة تجربتي وربما أكرهني على الصيام مدّة أطول مما كان يلزمني من قبل . وأعتقد أني أعرف كل هذه المقدمات وغيرها أيضاً ؛ ولقد قمت خلال هذه الفترة الطويلة بعدة محاولات تحضيريّة ، فلم استطع أن أدفع نفسي غالباً عن أن أجرّب الصيام من جديد دون أن أحضر نفسي له ، لكن حماس الشباب الساذج اختفى طبعا وإلى الأبد . ولقد كان يخف في ذلك الزمن خلال الصّيام . كانت تعذبني كل أنواع

الأفكار . وكان يظهر لي أجدادنا مهدّدين . وأنا أتهمهم ، دون أن أجرؤ ، والحق ، على القول علناً ، بكل المسؤوليات ؛ إنهم مسؤولون عن حياتنا ، حياة الكلب . وهكذا ، كان سهلاً عليّ أن أجيب على تهديدهم بمثله . لكنّي أنحني أمام معرفتهم ؛ فهي تجري من ينابيع نجهلها اليوم ! ومهما دار في خلدي أن أكافحهم ، فإني لن أذهب حتى انتهاك قوانينهم ؛ بل أكتفي في أبعد حد ، باستخدام الثغرات التي تحويها ، والتي أقص أثرها بشمّ خاص ، كي أنجو منها . أمّا عن الصيام ، فإني استشهد بالمؤتمر الشهير الذي عبّر خلاله أحد حكمائنا بنيته في تحريمه ، وردّه عن شأنه سؤال وحيد من حكيم آخر : « ومن ذا يريد أن يصوم ؟ » واقتنع الأوّل دون أن يلحّ على التحريم .

وهكذا يطرح السؤال من جديد : « أليس الصيام ممنوعاً في الواقع ؟ » وتجيب أكثرية المعلقين بالنفي ؛ إنها تجد الصيام مشروعاً ، وتساند الحكيم الثاني ولا تخشى ، على هذا ، النتائج المؤسفة لخطأ في التفسير . ولقد تأكدت من ذلك قبل أن أبدأ صيامي . لكني عندما كنت أتلوى في غمرات الجوع ، وقد تاه فكري قليلاً ، كنت أبحث دائماً عن النجاة في قائمتي الخلفيتين ، فألحسهما ، وأعضهما ، وأمصّهما في يأس ، من تحت إلى أعلى حتى الشرج ، وظهر لي أن التفسير العادي لذلك المؤتمر كان غلطاً جذرياً ، ولعنت كل علم التعليقات ، ولعنت نفسي أنا الذي تركتني أُضَلّل. إن الطفل نفسه ليكتشف ، في الحقيقة اكثر من منع للصوم في ذلك المؤتمر : كان الحكيم الأول يريد منع الصوم ، وبما أن إرادة الحكيم هي قانون ، فإن الصوم منع منذئذ ؛ ولقد ذهب الحكيم الثاني ، الذي لم يسرّه الوقوف إلى جانب هذا الرأي ، إلى الحكم بأن الصيام مستحيل . ولقد أضاف إلى التحريم الأول ، تحريم الطبيعة الكلبية نفسه . وبناء على هذا كلّه، لم يشأ الحكيم الأول أن ينطق بالتحريم القطعي ، أي إنه - وكل شيء بميزان - كان يأمر الكلاب بأن تظهر أنها عاقلة وأن تحرم على نفسها الصيام . إذن تحريم ثلاثي بدلاً من التحريم العاديّ الوحيد . وأنا الذي انتهكته ! وكان بوسعي ، والحق ، أن أطيع ، ولو متأخراً وأقطع صيامي ، لكني في أوج عذابي ، كنت أكابد الإغراء بالأستمرار بالصيام ! لقد استسلمت إليه بنفس النهم الذي نبذله ونحن نتبع كلباً مجهولاً . ولم أكن استطيع قطع صيامي ، ولربما كنت ، على كل حال ، أضعف من أن أنهض فألجأ إلى بلد أجنبي ؟ كنت أتدحرج على الخلنج ؛ النوم لم يكن ممكناً ؛ وكانت تلاحقني من

كل مكان أصوات كما أنه كان يبدو على صيامي أنه يوقظ عالماً نام خلال حياتي الماضية ، وراودني الخوف بأني لن أستطيع الأكل من بعد . كيف ، إذن ، أردّ العالم الذي استسلم للضوضاء إلى الصمت ؟ لن أكون قادراً على ذلك أبداً ! كنت اسمع اكثر الضجة في بطني نفسه ؛ كنت أضع عليه غالباً أذني وأتصوّر أني كنت أجول بعينين خائفتين ، لأني كنت أكاد لا أصدّق أذنيّ ؛ وحين صارت الضجة الآن شديدة الرعب ، بدا أن الدوار استولى على وجودي ، الذي لجأ غريزياً ، طلباً للنجاة ، إلى جهود مضطربة : بدأت استشف شذا أطعمة ، أطعمة فاخرة أجهلها منذ زمن بَعيد ! لذاذات طفولتي ! نعم ، تلك كانت رائحة ضرع أمي . ونسيت قراري بمقاومة كل شمّ ، أو لم أنس بالأحرى ! جررت نفسي من كل جهاتي ، وقد امتلأت عزماً ، كأن هذا العزم جزء من مجموع خطّتي ، فلم أتجاوز بعض الخطى ، وعندهانشقت، كأنما لا أشتهي الأطعمة إلّا كي أحفظ نفسي منها ! وما كان ليخيب أملي أن لم أجد شيئاً ، فالأطعمة كانت دانية ؛ كانت فحسب على عدة خطى بعيدة جدّاً ؛ وعند منتصف الطريق جثت قوائمي . . . ؛ وقد كنت أعرف بالتالي أني لا أستطيع شيئاً ، وأن خوف الإنهيار النهائي وحده ، في نقطة ما لا أغادرها أبداً ، كان يوحي بهذه الحركات الصغيرة . واختفت الآمال الأخيرة والمحاولات الأخيرة ؛ هنا سأموت إذن موتاً بائساً ! ما جدوى بحوثي ، التي هي محاولات صبيانية من عهد صبياني السعادة ؟ هنا والآن بات الوضع جدّيّاً ، هنا كان بوسع بحوثي أن تنجح ، لكن أين كانت بحوثي ؟ هنا ما كان يوجد غير كلب ضائع ، ينهش في الفراغ غذاء غائباً ، كلب مسكين ما انفك في اختلاجاته يسقي التربة لا شعوريّاً ، كلب مسكين ذاكرته ضائعة ، لا يستطيع أن يتذكرّ من حشو المعادلات السحرية أية واحدة . لا ، حتى ولا قافية واحدة مما يعرفه الوليدون كي يلطوا تحت بطون الأمهات ! كان يبدو ، أنه لا يبعد غير عدة قفزات عن إخوته ، وهو على بعد لا نهائي عنهم ، كان يبدو أنه يموت من إهمال لا من جوع . إن أحداً ، وكان هذا في غاية الجلاء ، إن أحداً لم يكن يهتمّ بي ، أحداً ، لا تحت الأرض ، ولا فوق الأرض ، ولا في السماء ؛ كنت أموت من عدم الاهتمام ذاك ، ذاك اللا اهتمام الذي كان يقول : إنه يموت ! وهذا ما كان يحدث . ألم يكن هذا أيضاً رأيي الشخصي ؟ أما كنت أقول قولهم ؟ ألم أرده هذا الهجران ؟ أكيداً أيها الكلاب ، لكن لا لكي انتهي هكذا ! على العكس ! كي أصل إلى الحقيقة ، بعيداً عن عالم الكذب هذا ، حيث لا يوجد أحد يمكن أن نتعلّم منه الحقيقة ، بل ولا مني أنا

مواطن الكذب بالولادة ! ربما لم تكن الحقيقة على هذا البعد ؟ ربما لم أكن مهملاً إلى الحدّ الذي ذهبت إليه ؟ ولا هجرني الآخرون كما هجرت نفسي أنا وحدي الذي أنهار وأموت ؟

لكن الكائن لا يموت على السرعة التي يعتقد بها كلب عصبي . أغمي عليّ فحسب ، وعندما صحوت وفتحت عيني ، رأيت أمامي كلباً غريباً . كنت لا أعاني أدنى جوع ، وأحسست أني قوي ، وتخيلت أن مفاصلي ليّنة ، لكني لم أحاول أن أجرّبها وأنا أنهض . كان يقف أمامي كلب جميل ، لكنه ليس خارقاً إلاّ قليلاً . هذا كل ما كنت أراه . مع ذلك ، بدا لي ، أني أرى فيه شيئاً غريباً جدّاً . كنت مضطجعاً في الدم ؛ وظننت للوهلة الأولى أن هذا الدم غذاء ؛ لكنّي سريعاً ما ميّزت أنه ليس دماً تقيّأته . والتفتّ كي أنظر إلى الكلب . كان هزيلاً ، عالياً على قوائمه ، داكناً مبقّعاً بأبيض، وله نظرة جميلة قادرة سائلة :

قال لي : « ما تفعل هنا . يجب أن تذهب ! »

أجبته دون أن أشرح له : « لا أستطيع أن أرحل الآن ». وكيف أشرح له كل شيء في الواقع ؟ وكان يبدو ، فوق ذلك ، مستعجلاً .

استأنف قائلاً ، وهو يرفع ، فارغ الصبر ، قائمه بعد أخرى : « إذهب ، أرجوك ـ »

قلت : « دعني ! تابع طريقك ، ولا يشغلك شأني ؛ فالآخرون لا يهتمون بي أيضاً ».

قال لي : « أرجوك، حبّاً بك »

أجبت : « أرج باسم من شئت ، فأنا لا أستطيع أن أذهب حتى لو أردت ».

قال وهو يبتسم : « لا عليك ! أنت تستطيع المشي . وأنا أطلب إليك الرحيل الآن بالضبط دون إسراعٍ لأنك تبدو ضعيفاً ؛ إذا تأخرت إضطررت للركض !

قلت : « ذلك شأني ».

قال ، وقد أحزنه عنادي : « شأني أنا أيضاً ».

كان يبدو عليه أنه وافق على تركي هناك مؤقتاً ، لكنه كان يحاول الاستفادة من الفرصة كي يقترب مني بحنان . ولو أن الأمر حدث في غير ذاك الوقت لاحتملته مختاراً من مثل هذا الكلب الجميل ، لكنني لم أفهم ساعتئذ . واستولى علي الرعب .

ـ إذهب ! صحت عالياً بالقدر الذي لم أستطع فيه الدفاع عن نفسي بصورة أخرى .

قال وهو يتراجع في بطء : « لكني أتركك . أنت غريب. أنا لا أعجبك إذن ؟ »

قلت له : « تعجبني إن ذهبت فتركتني بسلام ».

لكني لم أكن واثقاً من نفسي على الدرجة التي أردت أن يعتقد بها . ولقد رأيت أو سمعت فيه بفضل حواسي التي شحذها الجوع ، شيئاً ما خارقاً ، شيئاً لم يتجاوز بدءه ، يزداد ، يقترب . . . « كنت أعرف أن هذا الكلب ، يملك القدرة على طردك ، حتى ولو لم تستطع التخيّل كيف تصبح قادراً على النهوض ».

وتطلعت في فضول متعاظم إلى الذي اكتفى ، لدى جوابي الغليظ ، بهزّ الرأس في رقّة .

سألت : « من أنت ؟ »

قال : « أنا صيّاد . »

ـ ولماذا لا تريد أن أبقى حيث أنا ؟

قال : « إنك تزعجني فأنا لا أستطيع الصيد وأنت هنا !

ـ حاول ، فلربما استطعت رغما عن ذلك ؟

ـ لا . آسف ، يجب أن تذهب !

تضرّعت له : « أقلع عن الصيد هذا اليوم . »

ـ لا ، يجب أن أصيد .

قلت : « يجب أن أرحل ، يجب أن تصيد . دائماً هذا : اليجب ! هل تفهم هذا : اليجب ؟ »

قال : « لا ، لكن لا يوجد هنا ما يجب أن يُفهم ؛ إنه شيء جليّ ، شيء عادي !

قلت : « لا ، أبداً . أنت تأسف ، لأنه يجب عليك أن تجعلني أرحل ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك تفعله ! »

قال : « هكذا . »

كررت برماً : « هكذا . هذا ليس بجواب . عمّ تتخلّى بصورة أسهل ، عن الصيد أم عن جعلي أرحل ؟

قال دون تردّد : « عن الصيد ».

قلت : « حسناً ! لكن يوجد هنا تناقض!

قال : « ماذا ؟ أي تناقض ؟ لكن ألا تفهم يا كلبي العزيز الصغير أنه يجب أن أصيد ؟ ألا تفهم إذن البداهة ؟

لم أجب بعد ، لأني أدركت ـ وقد اخترقتني حياة جديدة ، حياة يمنحها الرعب ـ لمست ، من تفاصيل زهيدة ، لا يدركها ولا شك أحد سواي ، بأن الكلب بدأ يغنّي في عمق حنجرته .

قلت : « سوف تغني . »

قال في وقار : « سوف أغني عما قريب ، لكن ليس الآن . هيّء نفسك على كل حال ! »

قلت وأنا أرتجف : « مهما أنكرت ، فإني سمعت . »

لم يجب . وظننت عندها أني ألاحظ شيئاً ما عرفه كلب قبلي ـ أو أن التقليد لم يدل عنه بأي تلميح ـ وفي إحساس لا يوصف بالرعب والخجل ، خبأت وجهي في رامة الدم الممتدة أمامي ، واعتقدت ، بالواقع ، أني كنت أتبيّن ، دون أن أعرف بعد ، أن الكلب كان يغنّي ، بل أكثر من ذلك ! كان يطفو النشيد ـ وقد انفصل عنه ـ في الهواء تبعاً لقانون خاص ، ويرتفع فوقه ، كأنه لا صلة له به ، كي يأتي إليّ ، إلي وحدي !

وأنا الآن لا أنكر طبعاً كل البينات من هذا النوع وإنما أضعها على حساب الهياج الذي كنت فيه . لكني حتى في حالة الخطأ ، لا تنقص اكتشافي العظمة الحقيقية ؛ تلك هي الحقيقة الوحيدة ، ولو لم تكن إلا في الظاهر ، هي الباقي الوحيد من زمن الصيام ذاك ؛ وهي تشهد على الأقل على النقطة التي نستطيع الوصول إليها ، عندما نكون فعلاً « خارج أنفسنا »! ولقد كنت فعلاً « خارج نفسي ».

لو أنها ظروف طبيعية ، لمرضت جدّاً ، وما قدرت على الحركة ، لكني لم أستطع مقاومة هذا النشيد الذي ما لبث الكلب أن جعله ملكه . كانت قدرته تزداد دون انقطاع وتتّسع حتى اللانهاية وعندها كادت تصمّني . والأدهى، أنها كان يبدو عليها أنها لا تبقي إلا لي ، على هذا الصوت السامي ، الذي كان يشتد صمت الغابة عمقاً أمامه ، لي أنا ، وليس إلاّ لي ! ومن كنت ، فأجرؤ على البقاء في المكان الذي كنت فيه ، وأتمدّد ، أمام تلك الحضرة ، في قذارتي ودمي ؟ ونهضت وأنا أترنّح وأحدّق إلى ذاتي من أعلى إلى أسفل : وفكرت ، كيف تركض مثل هذه الخرقة ؛ لكني لما طردني النشيد فررت بقفزات رائعة . . . لم أقل شيئاً لأصدقائي ؛ ولربما كنت رويت ، لدى وصولي ، كل شيء لأصدقائي ، لو لم أكن في غاية الضعف ؛ ثم ظهر لي فيما بعد ، أن كل رواية مستحيلة . ولقد ضاعت في الأحاديث ، دون نتيجة ، بعض التلميحات التي لم أعرف كيف أمسك عنها . ولقد شفيت ، على كل حال ، بعد ساعات عضوياً ، لكني ما زلت أعاني ، أخلاقياً ، نتائج المغامرة .

ومددت ، فيما بعد ، شطر بحوثي إلى موسيقى الكلاب . هنا أيضاً لم يكن العلم دون فعالية ؛ وعلم الموسيقى ، إذا صدقت معلوماتي ، قد يكون أوسع من علم الغذاء . وهو ، في كل الأحوال أثبت . ومن الممكن ، ولا شك ، العمل في هذا المجال بانفعال أقل مما في ذاك ، ولا يتعدّى الأمر هنا الملاحظة فحسب والتنهيج ، فيما يجب هناك استخلاص النتائج العملية . وهذا ما يفسر تقدير علم الموسيقى تقديراً أكبر من علم الغذاء ، ولو أن الأول لم يستطع أبداً النفاذ عميقاً في الشعب شأن الثاني . ولقد كان موقفي من هذا العلم ، قبل أن أسمع الصوت في الغابة ، أكثر تحفظاً منه تجاه أي علم آخر . ولقد كان بوسع مغامرة الكلاب الموسيقية أن توجهني إليه، لكني كنت صغيراً جدّاً في ذلك الزمان. كما أن الوصول إليه ليس سهلاً، فهو يعتبر في غاية الصعوبة، كما أنه ينغلق متعجرفاً، على الجمهور. لقد كانت الموسيقى هي أول ما أذهلني عند تلك الكلاب، لكن خيل لي أن سكوتها هو أكثر أساسيّة من الموسيقى. وربما لم يكن لموسيقاها المريعة شبيه في أي مكان؛ وكان بوسعي إهمالها بصورة أسهل، لكني لقيت منذئذ نفس الطبع عند كل الكلاب. غير أني من أجل نفاذ أفضل إلى ذكائها، قدرت أن البحوث على الغذاء هي ما يناسب ويؤدي إلى الهدف مباشرة. ربما كنت أخطىء؟ ولقد كانت بعض القربى بين

العلمين تشدّ انتباهي، وهي المذهب القائل بأن التعويذ ينزل الغذاء من أعلى إلى الأرض. وهنا يزعجني أيضاً النقص في الدراسات الموسيقية الجادّة: وأنا لا أستطيع، ومن بعيد، أن أحسب نفسي في عداد نصف العلماء أولئك، الذين احتقرهم بخاصة، العلم دائماً. هذا الذي وجب ألاّ أنساه. وأنا أمام العالِم (وعندي للأسف! الدليل) لا أستطيع أن أنجح في فحص علمي إلاّ بصعوبة، مهما كان سهلاً! وفيما عدا ما قلت عن حياتي، عليّ أن أبحث عن السبب أوّلاً في عدم كفايتي العلمية، ونقص حدّة ذهني، وضعف ذاكرتي، وبخاصة ما أعانيه من عدم القدرة على وضع هدف العلم باستمرار نصب عينيّ. كل هذا اعترف به لنفسي صراحة، وفي بعض الرضى! لأن سبب عدم الكفاية العميق يبدو لي غريزة، وليس هو يقيناً بالغريزة السيئة. ولو أردت التبجّح، لاستطعت القول بأن هذه الغريزة هي التي حطمت بالضبط طاقاتي العلمية: أليس، والحق، من أغرب الأمور أن استطيع إقامة البرهان على ذكاء متوسط في أحداثِ الحياة اليومية العادية، مع أنها ليست من أبسطها، وبخاصة، أني عوضاً عن العلم أفهم جيداً العلماء، كما تشهد بذلك النتائج التي توصلت إليها ـ أنا الذي لست مع ذلك أهلاً، قبْليّاً، لأن أضع قائمتي على أوّل درجة من العلم؟ كانت تلك الغريزة هي، وربّما باسم العلم، لكنّه علم آخر، غير الذي يطبّق الآن، ـ باسم علم أسمى ـ هي التي تجعلني أقدّر الحرّية أكثر من كل شيء في العالم. الحرية! الحرية هي يقيناً، كما هي ممكنة اليوم، ليست غير نبتة هزيلة، لكنّ الحرّية على كل حال، على كل حال هي قسر.

نهاية النص

الفهرست

سور الصين

الغلاف : عماد حليم

لو أردت أن أحصي عدد الذين أثّروا بالقرن العشرين وطبعوه بميسمهم لبدأت بدوستيفيسكي ونيتشه وكافكا وربما توقفت عندهم.

ولئن أعطانا نيتشه الأمل بعالم أفضل تبدعه إرادتنا بالتفوّق، وإنسان أفضل يولد منا (والولادة عنده إبداع) هو السوبرمان، فقد سحق كافكا هذا الأمل فعرّى الحياة من كل ما تزينت به عبر العصور، وكأنما نحن دون إرادة ودون قدرة إلا على الاستمرار، مدفوعون إلى النهاية من دون رغبة ولا اختيار، في جهل مطبق مغلق... كل شيء عنده عبث.

إنك لا تستطيع - كنت معه أم عليه - إلا وأن تتأثر ببيانه. المدارس الحديثة - دون استثناء - مطبوعة به. ولا أظن القارىء يجد بين الريبيّين منذ اليونان حتى اليوم من صوّر اللاجدوى وحدّق إليها دون وجل مثله وفي يأس يرفض كل منطق الحياة... لكنّ الجمال عنده حقيقة... الحقيقة الوحيدة وهو يعجب لعدم طاقته على النشيد... أليس ما كتب نشيداً؟



الثمن ١٤ ل. ل.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً - موكيالي - بيروت - ص. ب ١١/٥٤٦٠ بيروت